

محاضرات في مقياس : ابيستمولوجيا العلوم الاجتماعية

المحاضرة الأولى

تعريف الإبيستمولوجيا

- 1- مفهوم الإبيستمولوجيا
- 2- الإبيستمولوجيا وتاريخ العلوم
- 3- الإبيستمولوجيا المثالية
- 4- نظرية المعرفة
- 5- من نظرية المعرفة إلى الإبيستمولوجيا
- 6- من نظرية المعرفة إلى فلسفة العلوم
- 7- من فلسفة العلوم إلى الإبيستمولوجيا
- 8- الأشكال الكبرى للإبيستمولوجيا

1- مفهوم الإستيمولوجيا:

لا يمكن تحديد مفهوم للإستيمولوجيا إلا بتحديد مفهوم كلمات أخرى كثيرا ما تتداخل معها ونقصد فلسفة العلوم ونظرية المعرفة. الإستيمولوجيا مفهوم أنجلوساكسوني في الأصل، دخل إلى اللغة الفرنسية وتم استعماله في بداية القرن العشرين. الإستيمولوجيا تعطي تغيرات في المعنى في أصله الاشتقاقي: إستيمولوجوس يحيلان إلى فكرة الخطاب العلمي، نظرية ومنطق للعلم، حيث أن المتغير التأويلي يكمن خاصة في كلمة علم بمعنى عام هي نظرية المعرفة.

بمعنى ضيق وفرنسي تتحدد بدراسة شروط صلاحية العلوم في معنى العلوم الرياضية والفيزيائية مع امتداد إشكالي إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

مفهوم الإستيمولوجيا لدى فوكو تأثر بأعمال حول تاريخ العلوم لباشلار، وكويري وكافياس وخاصة كانغيلام، ومستلهما أيضا للبنىوية، كاتب الكلمات والأشياء وأركيولوجيا المعرفة حاول استخلاص ترتيبات زمنية للخطاب، معارف متكونة في أنساق من التصورات الخاصة بفترة يسميها إستيمولوجيا¹.

في الحقيقة الإجماع بعيد عن دلالة كلمة إستيمولوجيا فالمعنى الاشتقاقي السابق يجعل من الإستيمولوجيا دراسة أو خطابا حول العلم ولكنها أيضا دراسة للمعرفة.

الإنجليز يفضلون المعنى الثاني ويستخدمون الإستيمولوجيا كمترادف لنظرية المعرفة. الفرنسيون يفهمون الكلمة بمعنى ضيق: إنهم يستعملونها فقط لوصف التفكير حول المعرفة العلمية تحديدا، محتفظين بعبارة نظرية المعرفة للإشارة إلى دراسة المعرفة بشكل عام (علمية وغير علمية).

ويعرفها فيريو ريموند كما يلي: " هي فلسفة العلوم، ولكن بمعنى أكثر دقة، هي ليست دراسة للمناهج العلمية التي هي موضوع الميتودولوجيا وتشكل قسما من المنطق وهي ليست كذلك تركيبا أو استباقا تخمينيا للقوانين العلمية (على طريقة الوضعية أو التطورية) إنها أساس الدراسة النقدية للمبادئ، وفروض ونتائج مختلف العلوم، بقصد تحديد أصلها المنطقي (لا النفساني) وقيمتها ومدى موضوعيتها"². ولكن هذا التعريف هو تعريف لالاند في معجمه الفلسفي الذي يقول فيه: تدل هذه الكلمة على فلسفة العلوم، لكن بمعنى أدق، فهي ليست

¹Jean-Luc Chabot et Nicolas Macarez , Méthodes des sciences sociales , PUF , Paris , 1995.

²A. virieux-Reymond , Introduction à l'épistémologie , PUF , Paris , 1972.

حقا دراسة المناهج العلمية، التي هي موضوع الطرائقية (الميتودولوجيا) وتنتمي إلى المنطق. كما أنها ليست توليفا أو إرهابا ظنيا بالقوانين العلمية (على منوال المذهب الوضعي والنشوي) جوهريا الإستيمولوجيا هي الدرس النقدي لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها، الرامي إلى تحديد أصلها المنطقي، وقيمتها ومداهما الموضوعي. علينا إذن التفريق بين الإستيمولوجيا ونظرية المعرفة على الرغم من كون الإستيمولوجيا مدخلا لها ومساعدتها اللازم، فهي تمتاز من نظرية المعرفة، بأنها تدرس المعرفة بالتفصيل وبشكل بعدي، في مختلف العلوم والأغراض أكثر مما تدرسها على صعيد وحدة الفكر".³

حسب كويلي Quillet الإستيمولوجيا تشير إلى الدراسة النقدية للعلوم الدقيقة والإنسانية وتكوين وشروط المعرفة العلمية".⁴

من الواضح حسب تعريف لالاند خاصة أن الإستيمولوجيا هي فلسفة للعلم وهي تختلف عن نظرية المعرفة. ولكن هذا التمييز الأخير وما قبله في تعريف لالاند والمتعلق باختلافها عن الميتودولوجيا يكون أقل صرامة في اللغات الأجنبية. الإنجليز والإيطاليون يجمعون تحت نفس الكلمة، ما أشار إليه لالاند زيادة على نظرية المعرفة والميتودولوجيا. أما الكلمة الألمانية WissenshaftsLehre التي تقابل الكلمة Erkenntnislehre (نظرية المعرفة) ولكنها تشير إلى فلسفة العلوم في مجموعها.

كل واحد من المفهومين فيما يرى فيريو ريموند يمكن أن يكون مشروعا، إذا لاحظنا التمييز المقترح من قبل لالاند، فإننا نطيع مبدأ التخصص العلمي الذي يريد أن يفصل ميادين البحث من أجل استقلالها. إذا جمعت الفروع الثلاثة في علم واحد، فإننا نريد بذلك الإشارة إلى تداخل الميادين الثلاثة، موقف مشروع كذلك لأنه من الصعب إجراء اختيار نقدي للنتائج المحصلة بواسطة علم ما من غير تدخل: 1- فحص المناهج التي أنشأتها.

2- قيمة المعلومات الحسية حول الوقائع.

فإدخال المنهجية ضمن الإستيمولوجيا مشروع أيضا.⁵ يعرف ماريو بونج الإستيمولوجيا بقوله: " الإستيمولوجيا أو فلسفة العلوم هي ذلك الفرع من الفلسفة الذي يدرس البحث العلمي ومنتوجه، المعرفة العلمية ورقة بسيطة من شجرة الفلسفة، الإستيمولوجيا صارت اليوم غصنا مهما من هذه الشجرة".⁶

³ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط2، 2001،

⁴ Jacques Hamel ,Precis d'épithemologie de la sociologie , L'harmattan , 1997 .

من الواضح أن تعريف لالاند يطابق بين الإبيستيمولوجيا وفلسفة العلوم وهناك من يرى أن الإبيستيمولوجيا جاءت كبديل لفلسفة العلوم. ولكن ما هي فلسفة العلوم ؟ عبارة فلسفة العلوم دخلت متأخرة في المعجم الفلسفي، الحدث تم تقريبا في آن واحد في فرنسا وإنجلترا. الفيزيائي والكيميائي، أوندري-ماري أومبير-André Marie Ampère (1775-1836) هو الذي شكل التركيب في الفرنسية. طبع سنة 1834 " محاولة في فلسفة العلوم أو عرض التحليل لتصنيف طبيعي لكل المعارف البشرية". معجب كبير إن لم يكن قارئاً كبيراً لكانط، تصور العلوم كمجموعات من الحقائق. فلسفة العلوم تقوم على اكتشاف النظام الطبيعي لهذه المجموعات، حسب نموذج التصنيف المتفرع ثنائياً المستخدم من قبل بارنارجوسيو بالنسبة للنباتات. أومبير اعتقد أنه قادر على رد هذا النظام إلى النظام الذي افترضه بين ملكات الإنسانية المعرفية. لقد أراد عرض التقدم التاريخي للعلوم مثل التطور الفردي للقدرات المعرفية. هذا النظام يجب أن يمتد من العلوم الكوسمولوجية، تلك المتعلقة بالظواهر المادية إلى العلوم الفكرية التي تدرس الفكر والمجتمعات البشرية.

في نفس الفترة، في بداية سنوات 1830 البوليتكنيكي أوغست كونت (1798 – 1857) جسد مشروعا بنفس الآمال الموسوعية، ولكن باتساع كبير. تحت تسمية "فلسفة العلوم " اقترح هو أيضا تصنيف الظواهر الأكثر بساطة، بين أنها أيضا الأكثر عمومية وكذلك الأكثر غرابة عن الإنسان.

الترتيب العقلاني لمختلف العلوم الأساسية الذي يمليه هذا النظام يذهب من الرياضيات إلى العلوم البيولوجية ثم إلى العلم الوضعي الذي يجب أن يصبح علم الاجتماع.

في سنة 1840 أدخل وليام ويول William Whewell (1794-1866) عبارة " فلسفة العلوم "، في المعجم الفلسفي الإنجليزي.⁷ يرى محمد عابد الجابري أن فلسفة العلوم مصطلح غامض عائم. فكل تفكير في العلم أو في جانب من جوانبه، في مبادئه أو فروضه أو قوانينه، في نتائجه الفلسفية أو قيمته المنطقية والأخلاقية هو، بشكل أو بآخر، فلسفة للعلم. وحسب رأي مؤلفين أمريكيين معاصرين (فيجل. ه. وم. برودبك H. Feigl et M. Brodbek) يمكن التفلسف في العلم من وجوه أربعة:

- دراسة علاقات العلم بكل من العالم والمجتمع، أي العلم من حيث هو ظاهرة اجتماعية.

⁵A. Virieux –Reymond ,OP.Cit.P.

⁶Mario Bunge , Epistémologie , Maloine s. a. éditeur , Paris , 1983.

⁷Dominique Lecourt , La philosophie des sciences , PUF , Paris .

- محاولة وضع العلم في المكان الخاص به ضمن مجموع القيم الإنسانية.

- الرغبة في تشييد فلسفة للطبيعة انطلاقاً من نتائج العلم.

- التحليل المنطقي للغة العلمية.

واضح أننا هنا أمام ميادين واسعة ومختلفة يمكن أن تتزاحم فيها وجهات النظر المتباينة، الاجتماعية منها والأخلاقية والفلسفية والمنطقية والعلمية.⁸ ويذهب جون ميشال برتيلو إلى تحديد هدفين لفلسفة العلوم:

(1) إقامة معايير لتحديد ما هو علم وما هو غير علم، بمعنى معايير شكلية (منطقية) تمكننا من تبرير الفصل بين العلم والأسطورة، العلم الزائف والميتافيزيقا والمعارف العلمية .

(2) تقييم، في ضوء تلك المعايير، مختلف العلوم التي تقدم نفسها كعلوم (من الفيزياء والفلك مروراً باللسانيات أو علم الاجتماع).⁹

يمكن القول أن مجال فلسفة العلوم أوسع من مجال الإبيستيمولوجيا هذه الكلمة التي استعملها لأول مرة الميتافيزيقي الإسكتلندي جيمس فردريك فيريي James Fredrick Ferrier (1808 – 1864) طواه النسيان اليوم في كتابه Institutes of Metaphysics الذي طبع سنة 1854. وقد ركبها انطلاقاً من اليونانية للإشارة إلى الخطاب العقلاني (لوغس) حول العلم (إبيستيمني).¹⁰

ويعرف هارفي بارو الإبيستيمولوجيا يقول: " الإبيستيمولوجيا التي هي موضوع هذا الكتاب، هي دراسة العلم أو بالأحرى العلوم ".¹¹

وتذهب لنا سولر إلى أن التمييز ليس سهلاً بين الإبيستيمولوجيا وفلسفة العلوم كمترادفين مثل باشلار، والبعض الآخر يتجنب استعمال الواحدة بدل الأخرى. العديد من المفكرين كأفلاطون، وأرسطو، وديكارت، وكانط، وكونت، في فترة مساهمهم أخذوا العلم كموضوع لتأملهم، ولهذا يمكن القول أن فلسفة العلوم موجودة منذ القدم (مع التدقيق أن كلمة علم والممارسات المشار إليها بهذه الكلمة قد تطورت منذ القدم إلى يومنا هذا)

⁸ محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط 4، 1998، ص 24.

⁹ Jean-Michel Berthelot , OP.cit .

¹⁰ Dominique Lecourt , OP.cit .

¹¹ Hervé Barreau , L'epistémologie , PUF , Paris , 1990 .

ولكن فقط منع كائناً أن تكون المشروع الخاص لفلسفة العلوم بمعنى الدقيق، اعتبار العلم كموضوع متميز عن الفلسفة.

ما يميز الإستمولوجيا عن فلسفة العلوم بالنسبة لبعض الإستمولوجيين المعاصرين هو أن الإستمولوجيا المعاصرة تتقاسمهما تحتفظ به فلسفة العلوم ألا وهو إخضاع تحليل العمليات العلمية لاهتمامات الفلسفة العامة. الإستمولوجيا تعتبر العلوم كغاية في ذاتها. بينما فلسفة العلوم تعتبرها وسيلة لغاية (لإيجاد أساس فلسفي لكل معرفة أو خوض سؤال فلسفي مثل الحتمية).

الإستمولوجيا فلسفية: الإستمولوجيا تبقى فلسفة تقوم على خاصيتين تميزان الفلسفة: فهي تأملية ونقدية. المشكل الإستمولوجي هو أساساً مشكل فلسفي يقول غرانجي: "الإستمولوجيا لا تفترض كونها علم العلم. إنها تبقى فلسفة للعلم. مهمتها أن تفهمه باعتباره من عمل المعرفة وتأويل دلالاته الخاصة بالمعيش الإنساني". ويتأكد وضع الإستمولوجيا الفلسفي من حيث أنها تقدم غالباً كميدان فرعي من فلسفة العلوم.

2-الإستمولوجيا وتاريخ العلوم:

طريقتان بالنسبة للإستمولوجيا لمعالجة العلوم: الدراسة الدياكرونية لتطورها أو التحليل السانكروني لبنيتها الداخلية الحالية.

العلم له تاريخ: المفاهيم، النظريات، المناهج والموضوع وكل علم يتطور بما لا يقبل الجدل.

الإستمولوجيا كتأمل في العلوم تقدر أو لا تقدر على الأخذ في الاعتبار لهذا التاريخ. في الحالة الأولى تتبنى وجهة نظر دياكرونية، بمعنى دراسة شروط تكون وتطور معارف علمية، وفي الحالة الثانية تتبنى في المقابل وجهة نظر سانكرونية، إنها تعتبر العلم الحالي الذي تكون، وتضع بين قوسين المراحل التاريخية لإنتاجه.

ولكن أية دروس يمكن أن تستفيد منها الإستمولوجيا من تاريخ العلوم؟

تاريخ العلوم يمكن الإستمولوجيا من:

- فهم الحالة الحاضرة للعلم: دراسة جينالوجيا المفاهيم، وإعادة بناء خيط المشاكل والحلول، تحليل انتقالات الحدود بين العلوم الموجودة وشروط تكوين علوم جديدة يقود إلى إدراك سبب وجود المظاهر الحالية.

- تحليل طبيعة التطور العلمي: الإجابة على أسئلة مثل: هل هناك تطور وبأي معنى؟ هل الأمر يتعلق بتطور متواصل وتراكمي أم بعملية متقطعة مطبوعة بالقطائع.

- التمييز بين ما هو بعدي في العلوم المعاصرة وما هو قبلي (يأتي من الذات العارفة وينضاف بواسطة الإنسان إلى المعطيات التجريبية التي تمثل ما هو بعدي).¹²

الإبستمولوجيا تكون مفيدة للعلم إذا حققت الشروط التالية:

أ- إنها تعني بالعلم بالمعنى الدقيق للكلمة وليس الصورة السخيفة وأحيانا الكاريكاتورية المستمدة من مصنفات لنصوص أولية.

ب- تهتم بمشكلات فلسفية تظهر فعليا خلال البحث العلمي، أو التأمل في المشكلات والمناهج ونظريات العلم، بدلا من الاهتمام بمشكلات صغيرة لا وجود لها.

ت- تقترح حلولاً واضحة لمثل هذه المشكلات.

ث- تكون قادرة على التمييز بين العلم الحقيقي من العلم الزائف، البحث المعمق من البحث السطحي.

ج- تكون قادرة على نقد البرامج والنتائج الخاطئة كما تكون قادرة أيضا على اقتراح مقاربات جديدة مليئة بالوعود.

والإبستمولوجيا بهذا المعنى تكون قادرة على بحث المشكلات التالية:

1) مشكلات منطقية:

- أية علاقات شكلية (منطقية أو جبرية) توجد بين نظريتين.

- أية تغييرات يمكن انتظامها في نظرية معطاة إذا عدلنا بطريقة ما منطقتها الثاوي (إذا بدلنا مثلا المنطق العادي بالمنطق الحدسي)؟

- هل صحيح أن التجربة العلمية تجربنا على تغيير المنطق الثاوي لنظرية علمية؟ خاصة هل نحن واثقون أن ميكانيك الكوانتا تستعمل منطقا خاصا مختلفا عن المنطق العادي؟

2) مشكلات دلالية:

- ما هو المحتوى العلمي لنظرية ما؟

- على ماذا يقوم التأويل العملي لنظرية رياضية؟

¹²Léna Soler , op.cit .

- إلى أي حساب يخضع مفهوم الحقيقة التقريبية ؟

(3) مشكلات نظرية المعرفة:

- أية علاقة توجد بين ملاحظة واقعة ما والقضايا التي تمثلها ؟
- أية علاقة توجد بين المفاهيم التجريبية كمفهوم الحرارة والمفاهيم النظرية كمفهوم درجة الحرارة.
- هل صحيح أن استعمال مفهوم الاحتمال لا يفرض نفسه إلا عندما نمتلك معلومات غير كافية ؟

(4) مشكلات منهجية:

- ماذا يعني مؤشر اجتماعي ؟
- كيف يمكن قياس درجة تطابق فرضية مع نظرية.

(5) مشكلات وجودية:

- ما هو القانون الاجتماعي أو الطبيعي ؟
- ما هي نظرية الزمكان المبرهن عليها بواسطة الفيزياء الحالية ؟

(6) مشكلات قيمية:

- أي دور يلعبه التفصيل داخل النشاط العلمي ؟
- كيف نعرف مفاهيم القيمة المعرفية والقيمة العملية ؟

(7) مشكلات أخلاقية:

- أية علاقة توجد بين القيم المعرفية والعلم والقيم الأخلاقية ؟
- هل العلم محايد من وجهة النظر الأخلاقية ؟
- ماذا سيغدو قانون أخلاقي أساسي بالنسبة للجماعة العلمية؟

(8) مشكلات جمالية:

- البحث العلمي هل يمتلك قيما جمالية ؟
- متى نقول عن نظرية أنها جميلة ؟
- على ماذا يقوم أسلوب الباحث ؟

قائمة المشكلات التي أتينا على ذكرها تفترض تصور الإبستمولوجيا مختلفة عن الطريقة التي تمت بها

العادة، بمعنى إبستمولوجيا تتضمن الفروع التالية:

- 1) -منطق العلم.
- 2) -علم دلالة العلم .
- 3) -نظرية المعرفة العلمية.
- 4) -منهجية العلم.
- 5) -أنطولوجيا العلم أو تحليل وتنسيق الفرضيات والنتائج الأنطولوجية (الميتافيزيقية) للبحث العلمي.
- 6) -أكسيولوجيا العلم، أو نسق قيم الجماعة العلمية.
- 7) -أخلاق العلم أو البحث في المعايير التي يتبعها البحث العلمي أو لا يتبعها.
- 8) جمالية العلم: أو دراسة القيم الجمالية للبحث العلمي.

الإبستمولوجيا الجهوية:

إذا تصورنا تصنيفا للعلوم على المستوى الفلسفي نحصل على فروع الإبستمولوجيا:

- 1) -إبستمولوجيا المنطق.
- 2) -إبستمولوجيا الرياضيات.
- 3) -إبستمولوجيا الفيزياء.
- 4) -إبستمولوجيا الكيمياء.
- 5) -إبستمولوجيا البيولوجيا.
- 6) -إبستمولوجيا علم النفس.
- 7) -إبستمولوجيا العلوم الاجتماعية.
- 8) -إبستمولوجيا التكنولوجيا.
- 9) -إبستمولوجيا نظرية الأنساق.¹³

يميز جيل غاستون جرانجيا الإبستمولوجيا كفرع فلسفي. إنها ليست علما وصفيا ولا طبا للعلم. إن هدفها هو إضاءة دلالة العمل العلمي، بمعنى توضيح العلاقات غير الظاهرة مباشرة بين المفاهيم ولذلك فالعمل الخاص للإبستمولوجيا تأويلي ونقدي تاريخي إنه يقوم على إظهار تنظيمات من المفاهيم.¹⁴

¹³Mario Bunge ,OP.cit.

بالعودة إلى تعريف لالاند المرجعي للكثير من الباحثين نجده يتميز في نظر محمد وقيدى بتحديدات سلبية وجانب إيجابي. فالتحديدات السلبية هي أن الإبيستيمولوجيا ليست دراسة لمناهج العلوم لأن هذه الدراسة الأخيرة تعتبر جزءا من المنطق ولكن لا يجب أن نستبعد مناهج العلوم في الدراسة النقدية للإبيستيمولوجيا لأن الإبيستيمولوجي بحاجة قبل النقد إلى معرفة مسبقة لمناهج العلوم التي يدرسها. ولكن لا يجب أن نعتبر دراسة مناهج العلوم جزءا من المنطق فما يعنيه المنطق اليوم لم يعد يشمل الدراسات الميتودولوجية، ولكن مع ذلك هناك علاقات بين الدراسات الميتودولوجية والدراسات المنطقية والإبيستيمولوجيا .

يميز التعريف ثانيا بين الإبيستيمولوجيا وبين الفلسفة الوضعية التي يقال عنها أنها تركيب أو استباق للقوانين العلمية.

ولكن ليس هناك تباعدا تاما بين الإبيستيمولوجيا وبين الفلسفة الوضعية بل نجد فيما أسماه كونت كذلك أول طرح لإمكان قيام تفكير إبيستيمولوجي، غير أنه يجب التنبيه أن مفهوم الفلسفة الوضعية عند صاحبها ليس هو المفهوم الذي يعطيه لها لالاند، فهي عند كونت تهتم بالعلاقات بين العلوم ضمن التقسيم المنظم للمعارف، بمعنى أن تقدم العلوم والمعارف فرض نوعا من تقسيم المعارف، والفيلسوف الوضعي هو من يهتم بالتنسيق بين نتائج العلوم المختلفة. فالفلسفة الوضعية إذن ليست تركيبا لنتائج العلوم وليست استباقا لتلك النتائج.

إن مفهوم الفلسفة الوضعية يلتقي مع الإبيستيمولوجيا كما يحددها كثير من المعاصرين في كونها عملا تابعا للعمل العلمي، بل إن الفلسفة الوضعية لا تعني من جهة كونت إلا اختصاصا علميا جديدا، يضاف إلى تلك الاختصاصات التي تقتضيها الحالة الوضعية، وبهذا يتميز موقف الفيلسوف الوضعي كما يتميز موقف الإبيستيمولوجي عن موقف الفيلسوف التقليدي.

هناك تمييز ثالث يدعونا تعريف لالاند إلى إقامته وهو التمييز بين الإبيستيمولوجيا ونظرية المعرفة.

هناك موقف في الواقع، موقف الإبيستيمولوجيين الفلاسفة وهو في الغالب الأمل إلى الموقف الأول الذي يقرب بين الإبيستيمولوجيا ونظرية المعرفة، فهناك علاقة بينهما من حيث المبدأ علاقة نوع بجنس، لأن الإبيستيمولوجيا تقف عند البحث في صورة خاصة من المعرفة هي المعرفة العلمية، بينما نظرية المعرفة تهتم بالمعرفة بصفة عامة.

¹⁴Gilles Gaston granger « A quoi Sert l'épistémologie ! » , in droit et société , N°20-21 , 1992.

أما الموقف الثاني فهو يفصل بين الإبستمولوجيا ونظرية المعرفة، ويكفي لفهم هذا الموقف أن نرجع إلى علاقة فلسفة كلاسيكية كفلسفة كانط بالعلم المعاصر، إن المقولات التي بنى كانط على أساسها مشروعية المعرفة والتي رأى أنها توجه في الفهم بصورة قبلية بحيث ينتظم إدراك التجارب فيها فالتطورات العلمية التي حدثت في مجال الرياضيات وفي العلوم الفيزيائية قد سارت بالعلم والإبستمولوجيا في الطريق التي تزداد فيه الهوة تدريجيا مع مثل هذا الموقف الكلاسيكي، فالمكان والزمان كما تتحدث عنهما الفلسفة الكانطية هما المفهومان الملائمان للنسق النيوتوني ولكنهما لا يتلاءمان مع الفيزياء المعاصرة: الفيزياء النسبية، وفيزياء الكوانطا، إن بناء نظرية في المعرفة لن يكون بالتالي إلا محاولة لإدخال صبغة المطلق على ما هو نسبي، وهي بالتالي محاولة لإدخال العلم المتطور باستمرار ضمن نسق فلسفي مغلق .

وإلى جانب التحديدات السلبية أو التمييزات التي ذكرها تعريف لالاند هناك تمييز آخر بين الإبستمولوجيا وتاريخ العلوم. فعمل الإبستمولوجي لا يمكن أن يستغني بحال عن العمل الذي يقوم به مؤرخ العلوم، بل إن كليهما يهتم بهذا التاريخ، ولكن مهمتهما ليست متطابقة بصدد تاريخ العلوم، فما يهم الإبستمولوجي ليس حصرا معرفة الترتيب التاريخي للاكتشافات والعلاقات بين هذه الاكتشافات والمجالات التي تقع بها، بل مهمة البحث في دلالتها بالنسبة للفكر العلمي وبالنسبة لتطور المعرفة الإنسانية بصفة عامة.

أما التحديد الإيجابي للإبستمولوجيا فيتمثل في كونها دراسة نقدية موضوعها المعرفة العلمية من حيث المبادئ التي تركز عليها والفرضيات التي تنطلق منها والنتائج التي تصل إليها. أما الهدف فهو البحث عن الأصول المنطقية لهذه الفرضيات والمبادئ والنتائج من جهة وبيان قيمتها من جهة أخرى.

من خلال هذا التحديد يمكن القول أن المشكلة الإبستمولوجية هي مشكلة فلسفية، ومعنى النقد لا يعني إقامة مشكلة فلسفية بناء على قيام نظريات علمية جديدة، بل هو يعني بيان الدلالات المعرفية لتلك النظريات، ولذلك فإن تحقيق هذه المهمة يعتمد في الوقت ذاته على تحديدنا للشروط التي ينبغي أن تتوفر في الإبستمولوجي لكي يقوم بالوظيفة النقدية بالمعنى الذي حددناه. هذا الترابط بين صورة المهمة وشروطها يدفعنا إلى تبين تنبيه إبستمولوجيين معاصرين هما باشلار وبياجي.

فباشلار يضعنا أمام الحقيقة التالية: لا يمكننا أن نفكر في مهام الإبستمولوجيا دون الأخذ في الاعتبار الطبيعة الخاصة للمرحلة العلمية الراهنة التي نريد أن نفكر فيها إبستمولوجيا وسيتبين لنا عندئذ أن العلم المعاصر

هو من السعة بحيث لا يمكن لمن لم يتلمذ على العلماء أولا أن يكون إبستمولوجيا عند الاكتفاء بإصدار أحكام عامة.

أما بياجي فيؤكد ذلك بعبارة أخرى حين يرى أنه لا يمكن أن يكون الإبستمولوجي فيلسوفا تأمليا ولا أن يؤدي وظيفة الإبستمولوجي من ليس له اختصاص علمي ضيق، بحيث يستطيع أن يعمم انطلاقا من المشكلات التي يواجهها في ميدانه الخاص، إن علماء متخصصين في ميادين معرفية مختلفة هم الذين يقدمون للإبستمولوجيا في الوقت الحاضر كثيرا من المعطيات التي يستطيع فيلسوف تقليدي أن يمدّها بها. وهكذا نستطيع تبين مهام الإبستمولوجي، فهي ليست بناء نظرية في المعرفة، بل متابعة - فيما يرى باشلار - أثر المعارف العلمية في بنية الفكر، وهذا التحديد يتضمن مفهوما للفكر مخالفا لما تقول به الفلسفات التقليدية الكبرى، التي تعتقد بفكر ثابت، كما يرى باشلار أن مهمة الإبستمولوجي يمكن أن تكون هي التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، تحليل نفسي موضوعه لاشعور الباحث العلمي وهدفه اكتشاف جملة العوائق التي تعوق عملية المعرفة والتي يسميها بالعوائق الإبستمولوجية .

أما صاحب الإبستمولوجيا التكوينية جان بياجي فمهمة الإبستمولوجيا هي البحث في تطور المفاهيم العلمية، بحيث تكون الإبستمولوجيا صلة بين علم النفس التطوري والإبستمولوجيا العامة التي يود اغناءها باعتبار منهج التطور، وهذا الاعتبار يؤدي بياجي إلى اعتبار الإبستمولوجيا علما لا فلسفة أي علما من العلوم الإنسانية موضوعه المعرفة العلمية ومنهجه يستفيدة من علم النفس التكويني.

ولكن الإبستمولوجيا ليست علما إنسانيا وتظل تفكيريا فلسفيا في العلم. ولكن ليس كل تفكير فلسفي في العلم يعتبر إبستمولوجيا. ذلك أن علاقة التفكير الفلسفي بالعلم، قد اتخذت من تاريخهما تصورا لا يمكن أن نقر لهما جميعا بالإتفاق مع الأهداف التي يمكن أن يسعى إليها التفكير الإبستمولوجي المعاصر، فالتفكير الإبستمولوجي ليس بناء نظرية ميتافيزيقية بناء على ما يثيره علم معين أو علم فترة تاريخية من مشاكل ذات طبيعة فلسفية، وذلك لأن الأمر لا يتعلق في الإبستمولوجيا باستغلال نتائج العلم من أجل بناء نظرية فلسفية خارج العلم. وهو من ناحية أخرى ليس بناء نظرية عامة في المعرفة انطلاقا من علم فترة معينة، وهذا لأن هذه النظرية ستصبح متجاوزة بالضرورة.

هذا هو حال نظرية كانط في المعرفة العلمية التي شادها على أساس النسق العلمي النيوتوني، فكانت كان يبحث عن الإجابة على سؤال كيف تكون المعرفة العلمية ممكنة ؟ وللإجابة على هذا السؤال استند كانط على

نتائج العلم الرياضي والفيزيائي كما انتهيا في عصره مع نيوتن الذي اعتمد على علماء قبله مثل كبلر، تيكويراهي، وفرانسيس بيكون. ونيوتن كان يعتقد أن الزمان والمكان مفهومان مطلقان لا يتخلصان من إدراك حركة الأشياء ووجودها. ومعلوم أن كانط يرجع المعرفة إلى تكامل بين الحساسة والفهم. الحساسة تقدم مادة المعرفة والفهم يقدم صور ومقولات المعرفة وهذه الأخيرة قبلية فالمكان والزمان قبلان والسببية والإمكان والإضافة وغيرهما من المقولات قبلية أيضا. وحينما يرى كانط أن المكان قبلي فهو يعبر عن التصور الرياضي في عصره للمكان، وهو المكان الإقليدي ذي ثلاثة أبعاد، وكذلك الزمان فهو الزمان بالمفهوم النيوتوني الذي يقوم على فكرة التآني. ولكن الفيزياء المعاصرة مع نظرية النسبية ستتجاوز هذا المفهوم الرياضي والفيزيائي النيوتوني للزمان والمكان. ولذلك فإن نظرية كانط تنهار تحت ضربات التطورات الحاصلة في العلم. وتفضح الاستغلال السيء للعلم من أجل إقامة أنساق فلسفية مثلما يفعل كانط.¹⁵

يمكن أن نخلص إلى مجموعة من النتائج: الإبستمولوجيا تتميز بالخصائص التالية:

- إنها خطاب تأملي، بمعنى خطاب ينتقد العلوم فالإبستمولوجيا تفترض إذن العلم وتأتي بعده.
- إنها خطاب نقدي إنها لا تميل إلى وصف العلوم من غير الحكم عليها.
- الإبستمولوجيا مرتبطة بالمنطق من حيث أنها كالمنطق تدرس شروط المعرفة الصحيحة، ولكنها تختلف عنه من حيث إن المنطق يعنى بصورة المعرفة فقط، في حين أنها تهتم بصورة المعرفة ومادتها معا، وبالأخص بالعلاقة القائمة بينهما.
- وهي مرتبطة بالميتودولوجيا من حيث إنها تتناول مناهج العلوم، ولكن لا من الزاوية الوصفية التحليلية فحسب بل أيضا، وبالأخص، من زاوية نقدية وتركيبية.
- وهي مرتبطة بنظرية المعرفة بمعناها العام من حيث إنها تدرس طرق اكتساب المعرفة وطبيعتها وحدودها، ولكن لا من زاوية التأمل الفلسفي المجرد، بل من زاوية فحص المعرفة العلمية والتفكير العلمي فحصا علميا ونقديا قوامه الاستقراء والاستنتاج معا. وهي وثيقة الصلة بتاريخ العلوم من حيث إنها تدرس تاريخ العلوم، ولكن لا بذاته، بل من زاوية كونه مسلسلا لنمو الفاعلية البشرية، الفكرية خاصة، تلك الفاعلية التي هي عبارة عن تحقق إمكانيات وعي الذات بنفسها وبقدراتها وحدودها.

3-الإبستمولوجيا المثالية:

¹⁵ محمد وقيدى، ما هي الإبستمولوجيا، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1987.

ميلاد الإيستيمولوجيا المثالية: حتى ولو كان البعض لا يرى عدم انتماء ديكارت للتيار المثالي، فهو رائد ومخترع الثورة المنهجية التي أحدثتها في الفلسفة. الفكرة المركزية لدى ديكارت تقوم على إقامة علم الرياضيات أو الهندسة في المنهج الفلسفي. واقتراح المنهج لعلوم الواقع بأن يصير منهج كلية المعرفة بالواقع. الهدف الذي كان يبحث عنه هو إيضاح العمل الفلسفي تجاه مدرسية متهاوية، التي تبدو منغلقة في منطق مجرد وإسمي. أفكار واضحة ومتميزة عن الواقع بدلا عن الواقع ذاته، هنا إسهام المنهج الرياضي في نظرية المعرفة والفلسفة المعاصرة منذ ديكارت.

لحظة ديكارت: ديكارت بطل، إنه المرمي الحقيقي للفلسفة الحديثة. لقد شكل بلورة الرمزية والتركيبية لحركة شاملة للفكر الأوروبي.

ترييض العلوم، ذاتانية المعرفة، تسوير الفعل في دراسته الامتداد المقاس، سمات تجتمع في فكر صاحب خطاب في المنهج. في الواقع ديكارت ينطلق من فكرة وحدة العلم حول الذكاء الذي يتبع المنهج الرياضي باعتباره عالميا.

لحظة كانط: كانط يقدم مسعاه الفلسفي على أنه يشكل ثورة كوبرنيكية بالنسبة لسابقه، وخاصة ديكارت. المنهج الذي ابتكره هذا الأخير تم إدراكه كعنصر أول كرونولوجيا، كوسيلة في خدمة غاية، متمثلة في تحليل الواقع وبلوغ عمق وقمة الفلسفة، بمعنى الميتافيزيقا منذ أرسطو على الأقل. الأمر يتعلق مع كانط، بالتفكير في الفكر كعقل مركزي للفلسفة وكمفتاح للمشاكل التي تطرحها. فلسفة كانط هي نقدية أساسا. إنها تشيد مشكل المعرفة في الفلسفة الأولى في مكان الميتافيزيقا. مفهوم التعالي المستعمل بكثرة من قبل كانط من أجل تمييز مسعاه المثالي والنقدي (جمالي، تحليلي، جدلي) يعني أن الإلحاح الحامل للمعنى ليس الواقع الخارجي للذات العارفة، ولكن مجموع القوانين الداخلية لفكر العارف، المعرفة الذاتية للعقل. بعبارة أخرى المتعالي دوما يكون ملازما للذات العارفة ولكنه يتعالى عن الواقع المعروف. المعرفة لا ترجع إلى الموضوعات الملاحظة ولكن إلى البنية الداخلية لفكر الذات العارفة. ما يسميه كانط بالمفاهيم، ثم الأحكام القبلية. كانط أعاد التمييز الأرسطي بين المادة والصورة، ولكنه غير تماما مضمونه، بدلا من الاعتراف في هذه الثنائية بسمات الواقع الموضوعي، فإنه يقسم مادة الصورة إلى معطين داخليين للذات العارفة. الشكل يدرك قبليا، كفعل للذات، مستقلا عن التجربة والمادة بعديا كمعطى للتجربة التي تستقبله الذات.

المعرفة تبدأ بالظاهرة الحسية، التجربة الفردية والمحتملة، ولكن انطلاقاً من الذات، التي تشكل موضوع ما أسماه كانط بالحدس الحسي، مادة الظاهرة هي الإحساس قابلية التأثير السلبي للذات، وشكل الظاهرة على العكس يفرض من قبل الذات. إنها الأطر القبلية للحساسية التي تنظم وتوحد المادة المتعددة والمتفرقة للظاهرة، هذه الصور القبلية للحساسية هي المكان والزمان. الأول بالنسبة للإحساسات الخارجية والثاني بالنسبة للإحساسات الداخلية.

4- نظرية المعرفة: بما أن الإستيمولوجيا لها علاقة بنظرية المعرفة فيجب أن نقول شيئاً عن هذه الأخيرة. فنظرية المعرفة تحاول أن تجيب على سؤال مركزي هو: كيف يكون الناس معرفتهم؟ نظرية المعرفة تستند أولاً على نقاش أساسي بين المثالية والمادية. عالم الأفكار هل هو أولي ويحظى بوجود مستقل؟ المادة هل هي أولية والأفكار تشتق منها بطريقة أو بأخرى؟

المثالية: بالنسبة للمثالية، فهي تيار اجتاحت الفلسفة منذ أفلاطون (428 - 347 ق. م). توجد أفكار تشكل الصور الكاملة والتي توجد قبل التجربة. مثلاً المساواة في ذاتها هي معرفة قبلية، وبالرجوع إلى هذه الفكرة نستطيع تقريب الواقع الناقص. عندما نؤكد أن شيئين محسوسين لهما قول متساو، فالأمر لا يتعلق سوى بالتقريب. وبالمثل الدائرة الكاملة (المثالية) تمكن من تقدير الدائرة المرسومة (المحسوسة). عالم الأفكار (اللوغس) له وجود في ذاته، وهناك بالنسبة لأفلاطون واقع أعلى على واقع العالم المحسوس الذي هو في جزء كبير منه مجرد وهم. ضمن هذا المنظور نحن نصل إلى المعرفة الصحيحة بواسطة العقل واللغة باعتبار أن هذه الأخيرة هي التعبير عن الأشكال.

هذا التقليد المثالي تجسد خصوصاً بواسطة باركلي وكانط وهيغل، وبعض الفيزيائيين المعاصرين (مثل شرودينجر).¹⁶

المادية: بالنسبة للمادية الواقع المادي يوجد مستقلاً عن الفكر. بالنسبة لماركس حركة الفكر ليست سوى انعكاس للحركة الواقعية، منقولة إلى دماغ الإنسان، التصور المادي يتجلى منذ القدم مع أعمال ديمقريطس وأبيقور التي شكلت موضوع أطروحة ماركس. في عصر الأنوار، التصور المادي تطور تحت تراجع تأثير المثالية ذات الإلهام الديني. المادية مرتبطة جداً بظهور المعرفة العلمية، ذلك أن فعل المعرفة يفترض تمييزاً بين موضوع المعرفة والذات العارفة. المادية الميكانيكية تتبنى نظرية الانعكاس (حسبها الفكر ليس سوى انعكاس سلبي للواقع المادي) الذي

¹⁶Alain Belton et autres , Sciences sociales , éditions Dalloz , Paris , 2000.

يكون محل جدل. المادية الجدلية لماركس وإنجلز تهدف إلى تجاوز التناقض بين المثالية والمادية. التشديد من قبل ماركس كان على البراكسيس، على تحول الواقع، على الاستقلالية النسبية للأفكار، التي تكون كاشفة عن إرادة تصور مادية متناغمة مع الدور الفعال للفكر الإنساني في تكوين المعارف. لينين شدد على الخاصية الناقصة للمعارف وعلى الخاصية غير المكتملة دائما لإنتاج المعارف العلمية.

التجريبية والعقلانية: التفكير في أصل المعرفة سيعطي محلا لتطورات إبستمولوجية مع النقاش الذي يقابل بين العقلانية والتجريبية. النقاش التجريبية/العقلانية مرتبط جدا مع النقاش المادية/المثالية ولكن لا ينحل إليه.

العقلانية يمثلها بشكل خاص ديكارت (1596-1650) بالنسبة له العقل يمكنه أن يؤسس معارفنا. هذه الأخيرة لا تأتي من حواسنا والتأثير عليها من الواقع المادي. الوصول إلى الحق لا يمكن أن ينتج إلا عن التوجيه المنطقي للفكر (لهذا كتب ديكارت مقالة الطريقة) الحقيقة تفرض نفسها مع قوة البداهة. التجريبية دافع عنها خاصة ببيكون ولوك وهيوم. بالنسبة لهؤلاء الكتاب المعارف تولد عن الإدراكات. هناك إذن أولية للوقائع. مع ذلك، نشاط الذات العارضة لا ينتفي. ببيكون دافع بوضوح عن عمل مسعى مزدوج ينطلق من الوقائع للوصول إلى الأوليات وينطلق من الأوليات ليصل إلى الوقائع.

الوضعية والعلموية: الوضعية ترتبط عموما بكونت. هذا الأخير هو أكبر داع إليها. ولكن مع ذلك هناك كتاب آخرون أخذوا الأفكار الأساسية للوضعية مثل ج. س. مل وبيرتلو M. Berthelot وكلود برنارد، وتين H. Taine ودوركاي وليمي E. Littré.

بالنسبة لكونت الوضعية ترتبط بظهور عصر العلم المميز لحالة الوضعية التي تتبع، في قانون الأول الثلاثة، الحالة اللاهوتية والحالة الميتافيزيقية. المذهب الوضعي مرتبط بالثقة في تقدم الإنسانية والاعتقاد في منافع العقلانية العلمية. المعرفة يجب أن تستند حسب كونت على ملاحظة الواقع وليس على المعارف القبلية، الوضعية تشكل إذن تنسيقا للتجريبية المترافقة بنوع من الدين والعلم القائم على حتمية آلية.

أما العلموية فهي ليست خطابا إبستمولوجيا ولكنها مجموعة من الآراء، والمعتقدات والأحكام السياسية. إنها أولا ثقة مفرطة في تقدم العلم، وآثاره الإيجابية على الإنسانية. ولكنها أيضا تصور حسب المعرفة العلمية يجب أن تمكن من الإفلات من الجهل في كل الميادين وإذن حسب صيغة رينان، تنظيم الإنسانية علميا. ضمن هذا المنظور السياسي يحى أمام التسيير العلمي للمشكلات الاجتماعية كل نزاع لا ينشأ إلا عن الجهل أو الإيمان

السيء، العلمية تولي أهمية عظمى للتربية. بالنسبة للعلميين الأكثر راديكالية، السلطة السياسية يجب أن تمنح للعلماء.

المادية العقلية والعقلانية النقدية: في بداية 1930 ظهر كتابان أساسيان: الفكر العلمي الجديد لصاحبه غاستون باشلار، ومنطق الكشف العلمي لكارل بوبر. هاذان الكاتبان، اللذان يقابل بينهما أحياناً، لهما شيء مشترك هو إقامة تجاوز النقاش التجريبية/ العقلانية. بالنسبة لباشلار المادية العقلانية توجد في مركز إبستمولوجي حيث نهايتهما يتكونان بالمثالية والمادية. بالنسبة لبوبر العقلانية النقدية تعبر عن الرفض المزدوج للمثالية والوضعية المنطقية. في كلتا الحالتين، يتعلق الأمر بالتأكيد في نفس الوقت على إمكانية الولوج إلى معرفة موضوعية وإلى دور إيجابي للذات في بناء العلم. الكاتبان معاً لهما شيء مشترك هو التشديد على أهمية المشكلات العلمية. بوبر كتب قائلاً: " العلم يولد عن المشكلات وينتهي بالمشكلات " أما باشلار فكتب: "المسعى العلمي يطالب بتكوين إشكالية، إنه يأخذ منطلقه من مشكلة ما، هذه المشكلة طرحت بشكل سيء".¹⁷

تعريف العلم:

بما أن الإبستمولوجيا هي تفكير نقدي في العلم فإننا نتساءل ما هو العلم ؟

روبير الصغير يقترح هذا التعريف: مجموع المعارف، والدراسات التي لها قيمة كونية، تتميز بموضوع ومنهج محددتين، وقائمة على علاقات موضوعية يمكن التحقق منها.

أو هو كل المعارف التي تنشئ أو تحاول انشاء علاقات عامة وضرورية وموضوعية وهذا بغض النظر عن طبيعة موضوعها.

ويمكن أن نستخلص عناصر العلم كما يلي:

العلم يجب أن يحدد موضوعه الذي هو ميدان بحثه الطبيعة الجامدة بالنسبة للفيزياء، الكائن الحي بالنسبة للبيولوجيا، الظواهر النفسية بالنسبة لعلم النفس وغير ذلك مع بقية العلوم.

- العلم يقدم معارف عن موضوعه.
- المعارف العلمية يجب أن تقوم على علاقات موضوعية يمكن التحقق منها.

¹⁷Ibid .

- المعارف العلمية تمتلك قيمة كونية.
- المعارف العلمية: يجب أن تحصل بمنهج محدد.¹⁸
- من غير أن يكون محل إجماع كلي فإنه محل إجماع مدهش .
- إنه بيثقافي: رغم أنه مزدهر في بعض البلدان دون أخرى، فإنه يبدو قادرا على العيش تحت مناخات ثقافية وسياسية مختلفة جدا وأن يكون إلى حد كبير مستقلا.
- إنه تراكمي.
- رغم أنه يستطيع أن يعلم للأفراد من أي أصل ثقافي، فإنه يتطلب تكويننا قاسيا وطويلا من أجل اكتساب أساليب وتقنيات التفكير التي لا تندرج أبدا في استمرارية الحياة اليومية والتي تتجه عكس الحدى.¹⁹

5-من نظرية المعرفة إلى الإستيمولوجيا:

الإستيمولوجيا هي نظرية الإنتاج النوعي للتصورات العلمية. إنها النظرية التي تهتم بتشكيل نظريات كل علم على حدة، معنى هذا أنه إذا كان في استطاعتنا أن نتحدث عن إستيمولوجيا الرياضيات أو العلوم الطبيعية أو الحيوية، فإننا لا نستطيع الحديث عن إستيمولوجيا العلم أو عن الإستيمولوجيا. هذا ما يعنيه باشلار عندما يتحدث عن الإستيمولوجيا الجوهرية. فإن كان ما يميز نظريات المعرفة التقليدية وما يطبع فلسفات العلوم في حديثها عن العلوم، هو روحها الشمولية ونزعتها نحو التوحيد، كما سنرى فيما بعد، فإن ما يميز الإستيمولوجيا المعاصرة هو سعيها نحو التخصص. إن كان ما يميز فيلسوف العلم في بداية القرن العشرين كإميل مايرسون هو حديثه عن العلم بصفة عامة، فإن ما يطبع الأبحاث الإستيمولوجية المعاصرة هو ارتباط اسم الفيلسوف لا بالعلم بصيغة الفرد بل بعلم بعينه، ما يرتبط لدينا مثلا اسم كانغيلام بالعلوم الحيوية، واسم كافايسوفينغشتاين بالرياضيات وباشلار بالكيمياء، وبروديل بالتاريخ.

نظرية المعرفة تهتم بجميع أنواع المعارف دون تخصيص، أو على الأصح، بقدرتنا العارفة مهما كان الموضوع المعروف، في حين أن الإستيمولوجيا تتعرض لنوع خاص من المعارف هو المعرفة العلمية. ولكن الأمر ليس بهذه

¹⁸Lena Soler ,op.cit .

¹⁹Ernest Gellner , "Le Statut Scientifique des sciences sociales" , Revue Internationale des sciences sociales , vol xxxvi, N°4 , UNESCO , 1984.

البساطة ولا بهذا الوضوح، خصوصا إذا علمنا أن اشتقاق لفظ إبستيمولوجيا يردنا إلى نظرية المعرفة. الإبستيمي تعني المعرفة.

ثم إن هذا التمييز لا يبقى له كبير أهمية عند من لا يعترفون إلا بنوع واحد من المعارف هو المعرفة العلمية. فأصحاب الوضعية المحدثة يرفضون جميع المعارف التي لا تتمتع بالصبغة العلمية. ففي اعتبار هؤلاء لا فرق أن نتكلم عن نظرية المعرفة أن عن فلسفة العلم، أو عن الإبستيمولوجيا. ما دامت المعرفة الممكنة هي المعرفة العلمية. وربما إزداد الأمر تعقيدا إن اعتبرنا أن لفظ إبستيمولوجيا استخدم في بعض اللغات المعاصرة كمرادف وحيد لنظرية المعرفة، وأنه جاء عند البعض كفيلسوف العلم مايرسون ليعني ما سيطلق عليه فيما بعد فلسفة علم لا إبستيمولوجيا.

يمكن القول أن الميلاذ الرسمي لنظرية المعرفة كان مع ظهور المشروع الكانطي لنقد العقل. ولكن هذا لا يعني عدم وجود بحوث في المعرفة لدى الفلاسفة السابقين على كانط.

نظرية المعرفة تتساءل على العلاقة بين الذات والموضوع. أي إمكانية معرفة الذات والموضوع. وإن هي أثبتت تلك الإمكانية بحثت في أدواتها ثم في حدودها ومدى صلاحيتها، إنها تبحث في طبيعة المعرفة ووسيلتها ثم في قيمتها.

ما يميز نظريات المعرفة في الفلسفة خاصيتان أساسيتان:

- 1) الأسئلة التي وضعت في نظريات المعرفة لم تكن أسئلة نابعة من صميم المعرفة ذاتها.
- 2) العلاقة التي أقامتها الفلسفة في نظريات المعرفة التقليدية مع المعرفة العلمية، علاقة إيديولوجية، في هذه النظريات استخدمت الفلسفة المعرفة العلمية استخداما إيديولوجيا.

إن الفلسفة، في نظريات المعرفة التقليدية، تأملت من خارج الشروط القبلية التي تضمن إمكانية المعرفة لهذا فإنها لم تحاول فهم الميكانيزم الفعلي الذي يخضع له إنتاج المعارف، والمعرفة العلمية بشكل خاص. وأخذت تتحدث عن عملية المعرفة كما تتوهمها هي. وأصبحت تقسم عناصر المعرفة إلى ذات عارفة ثم موضوع معروف.

ثم إن مشكل المعرفة، في هذه النظريات وضع وضعا إيديولوجيا. فحديث نظرية المعرفة مثلا عن الفرق بين النظرية والتطبيق أو أن علاقة النظر بالعمل إن مثل هذا السؤال، سؤال إيديولوجي: والأسئلة في الإيديولوجيا لا توضع من أجل المعرفة. الإيديولوجيا مبالغة إلى الاعتقاد أكثر من ميلها إلى الانتقاد، إنها تميل إلى اليقين أكثر من

ميلها إلى الشك. ولهذا فإن الأسئلة الإيديولوجية التي وضعتها نظريات المعرفة، لم تعمل إلا على وضع حجاب بينها وبين الكيفية التي يتم وفقها إنتاج المعارف وخصوصا المعرفة العلمية.

ويمكن توضيح هذه الفكرة بفلسفة أفلاطون. فمن المعروف أن المشكل الأساس عند أفلاطون كان مشكلا سياسيا. لقد كان الفكر الأفلاطوني وليد أزمة دولة المدينة. تلك الأزمة التي تجلت في اضمحلال أثينا. ففي نهاية القرن الخامس كشفت أثينا عن عجزها عن الاحتفاظ بديموقراطية الطبقات الوسطى داخل تشكيلة اجتماعية عبودية. لذا إنصبت الفلسفة الأفلاطونية على مشكل إعادة تنظيم المدينة. وسخر أفلاطون الفلسفة لإقامة حكم عادل. كما سخر مبحث الوجود والمعرفة لخدمة الأخلاق والسياسة. وهكذا تصبح جميع المعارف عنده تحت رحمة هذه النظرة، بما في ذلك المعرفة الرياضية نفسها، فعند أفلاطون لا قيمة لأية نظرية علمية إلا إذا كانت أسسها النظرية ومنطلقاتها لا تتنافر مع التنظيم الكامل. فحتى الفلك يرتبط عنده بكسمولوجية عقلية تعتبر العالم خير المصنوعات. فالبحث عن كيفية تنظيم الكون، كما يهدف إليه الفلك، من شأنه أن يؤدي إلى العلم الأكمل والنظام الأمثل. وهكذا تؤدي دراسة الطبيعة إلى معرفة القيم، ويصبح البحث في أسس المعرفة وقيمتها وسيلة للبحث في سير تنظيم المجتمع. فكأن نظرية المعرفة هنا وسيلة لحل المشاكل الأخلاقية والسياسية التي طرحتها أزمة دولة المدينة.²⁰

ما العلاقة التي أقامتها الفلسفة بالمعرفة العلمية في نظريات المعرفة التقليدية ؟

إن العلاقة التي تربط الفلسفة بالعلم في نظريات المعرفة هي علاقة منفعة واستغلال. فالمعرفة العلمية جرى استغلالها من أجل تصورات فلسفية، يقول باشلار: كان الفيلسوف يقتصر على أن يطلب من العلم أسئلة تؤيد نشاط العمليات العقلية، ولكنه كان يعتقد أن له القدرة على تحليل تلك العمليات المتنافسة دون مساندة العلم بل وقبل قيامه. وهكذا كانت الأمثلة العلمية تجبى لتقرر ما سبق تأكيده، لا لتحلل في ذاتها " فالفلاسفة هنا يولون ظهورهم للعلم، إنهم يستخدمون العلم لتبرير أنساقهم. إن نظرية المعرفة قد فهمت العلم فهما إيديولوجيا.

على هذا الأساس يمكن أن نفهم الفلسفة الكانطية فهي لم تأت إلى العلم إلا لكي تبرر التقسيم الذي أقامه كانط بين الشيء في ذاته والشيء أو الظاهرة التي هي موضوع العلم أما التوهمين أو الشيء في ذاته فهو موضوع الإيمان. ولذلك فقد أقام كانط ميتافيزيقا الميتافيزيقا إنقاذا للميتافيزيقا وإيمانا بالمطلق.

²⁰ عبد السلام بنعيد العالي/ سالم يفوت، دراسة الإستيمولوجيا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1985.

وفلسفة العلم كما يجب تصورها فلسفة تقطع مع الاستغلال السيء للعلم. إنها فلسفة تسير العلم في تطوره، " فلسفة منهمكة باستمرار في مهمة صعبة هي مهمة الكشف عن الأخطاء التي وقع فيها العقل البشري وإبراز الوهم الذي تصوره البعض عندما كونوا لأنفسهم مفهوما إستاتيكية عن الروح العلمية " يقول باشلار.²¹

إن فلسفة العلوم التي يتصورها باشلار تعيد النظر في مفهوم الذات العارفة فليست هي الذات المتأملة كما كانت عند أفلاطون، أو تلك القارئة لكتاب الطبيعة كما هي عند ديكارت. أو الناقدة لقدرات عقل مجرد كما هي عند كانط. إنها ليست الذات التي صنعتها نظريات المعرفة. فهي كما يرى باشلار. ذات مجهزة لا ترى العالم إلا من خلال نظريات مجسدة تبلور كل الماضي النظري والتقني للعلوم. وهذا أيضا شأن الموضوع المعروف " فالظواهر العلمية في العالم المعاصر لا تظهر إلا عندما نطلق حركة الأجهزة. إن الظاهرة هي دوما ظاهرة مجهزة".

6-من نظرية المعرفة إلى فلسفة العلوم:

فلسفة العلوم هي نوع من الفكر واكب التفكير العلمي منذ نشأته يدرس مناهج العلوم وخطواتها. إن النشأة الفعلية لفلسفة العلوم هذه لن تتم إلا من تقدم فعلي للعلوم وتحسن لمناهجها وتعدد لتقنياتها وتقدم لصناعاتها. وإذا كانت النشأة العقلية لنظرية المعرفة قد تمت مع كانط وفلسفته النقدية، فإن الميلاد الفعلي لفلسفة العلوم لم يكن إلا مع أوغست كونت وفلسفته الوضعية. المعروف أن كونت عندما أراد أن يبرر استخدامه لعبارة "فلسفة وضعية" كعنوان للدروس التي كان يعطيها ارتأى أن التسمية "فلسفة العلوم" ربما كانت أصلح لدروسه. فهو يعرف فلسفته الوضعية: " بأنها الدراسة الخاصة للمفاهيم العامة لمختلف العلوم من حيث إن هذه خاضعة لمنهج واحد ومن حيث إنها أجزاء مختلفة لمبحث عام " .²² ليست الفلسفة الوضعية، إذن هي العلوم الوضعية، وإنما هي دراسة لمنهج تلك العلوم. هذا المنهج الوضعي الذي يوافق آخر مرحلة آل إليها تطور الفكري البشري، بعد المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية.

ولكن فلسفة العلوم تقع في مطبات على غرار نظريات المعرفة كما سبق أن بينا. فعيوب فلاسفة العلم هي:

- (1) -لقد حاول فلاسفة العلم تطبيق مفاهيم ميتافيزيقية على العلم واستخلاص دروس أخلاقية من فعاليته، كما أنهم أسقطوا على تاريخه مفهوما فلسفيا عن التاريخ.

²¹المرجع نفسه.

²²المرجع نفسه .

(2) - يتحدث هؤلاء الفلاسفة عن العلم بصيغة المفرد كأن هناك علما واحدا لا دراسات متخصصة متنوعة وعلوما متباينة المناهج والموضوعات والتواريخ.

(3) - ظل هؤلاء الفلاسفة سجينى مفهوم وضعى اختبارى عن العلوم واعتقدوا أن العلم يصف الواقع، وأن العالم يقرأ كتاب الطبيعة.

فبالنسبة للنقطة الأولى يمكن أن نعطي مثالا عن مايرسون الذي حاول في كتابه الهوية والواقع. أن يثبت أن الأنطولوجيا جزء لا يتجزأ من صميم العلم. وعناستخلاص الدروس من العلم يمكن ذكر غوبلو في كتابه " المطول في المنطق " الذي يقول: " يتوفر الفكر العلمى على خصائص تتجاوز العقل والمعرفة. إنها خصال أخلاقية مثل حب الحقيقة والنزاهة الفكرية والعمق وثقابة النظر والدقة والقوة والمرونة"²³. ها هنا لا يجيئ الفيلسوف إلى العلم كما يقول باشلار إلا ليستقي منه أمثلة تؤيد دعواه وتقر ما يذهب إليه، إنه يأتي إلى العلم وقد اتخذ مواقفه من الحياة والمعرفة.

وتاريخ العلوم عن هؤلاء الفلاسفة لا يتحدد بآلياته الخاصة ويخضع لضرورة نوعية. إنه ككل التاريخ منسجم مستمر. لا انقطاع يتخلله. هذا ما نلاحظه عند برانشفيك. وما يؤاخذ به باشلار عليه هو أنه حاول أن يمثل تاريخ العلم وكأنه حركة مستمرة لتقدم واحد دون أن يعنى بضروب العوائق والتعثرات والانفصالات والقطيعات التي استمر بها تاريخ العلوم.

وعن النقطة الثانية نجد فلاسفة العلم يتحدثون عن العلم بصيغة المفرد لا عن العلوم، يتحدثون عن منهج العلم وتاريخ العلم: وهم يتكلمون عن المعارف العلمية كما لو كانت تشكل كلا واحدا له موضوع واحد ومنهج واحد وتاريخ واحد. فعند ديكارت منهج العلم واحد هو منهج الرياضيات. وعند كونت كل العلوم تجمعها روح واحدة هي الروح الوضعية.

أما النقطة الثالثة فتتعلق بوراثنة فلاسفة العلوم عن الاتجاه الوضعي لمفهوم اختباري عن العلم. فهم يعتبرون المعرفة العلمية امتداد للمعرفة العادية. فميرسون مثلا لا يرى فرقا بين المعرفة العادية والمعرفة العلمية. يقول: " إن نقطة انطلاق العلم لا توجد إلا في معطيات بادئ الرأي. وهذا من السهل إثباته وقد أكدته كثير من العلماء، فدوهايم مثلا يرى أن أعلى معارفنا العلمية ليس لها أساس غير معطيات بادئ الرأي ". ويستخلص أخيرا: ينتج مما سبق أننا لا نرى بين المبادئ الرأي والعلم ذلك الاختلاف الكبير الذي يرى بينهما عادة. إننا نؤمن إيمانا كلياً فإن

²³ - نفسه.

العلم يتخذ نفس الموقف الذي يتخذه بادئ الرأي " ²⁴ لا فرق بين المعرفتين العامة والعلمية ما دام مبدأ العلمية والهوية يقوم في كليهما.

إن المعرفة العلمية صارت مجهزة بأحدث التقنيات ولذلك فإن التجارب العلمية اليوم ليست رجوعاً إلى الواقع وإنما هي إنتاج للواقع وإعادة إنتاج له.

-الوضعية المحدثة: فلسفة للعلم:

ظهرت الوضعية المحدثة سنة 1923 على يد جماعة من العلماء والفلاسفة الذين تلقوا تعليمهم في فيينا حول شليك الذي كان عالماً فيزيائياً يشتغل ابتداءً من 1922 أستاذاً للفلسفة وتاريخ العلوم بجامعة فيينا، وهو المنصب الذي كان يشغله فيما قبله ماك. وعندما عين كارناب سنة 1926 في جامعة فيينا أصبح من مسيري هذه الجماعة.

وقد تشكلت الموضوعات الرئيسية للنزعة الوضعية الجديدة بمساعدة جماعة أخرى كانت قد تأسست في برلين بزعمارة رايشنباخ تحت اسم الفلسفة التجريبية، وقد بدأ التعاون بين الجماعتين ابتداءً من 1929. وهكذا تكون النزعة الوضعية المحدثة. لقد ظهرت إلى الوجود العالمي حوالي 1929 عندما عقد المؤتمر السابع للفلسفة بأكسفورد حيث ألقى شليك عرضه حول مستقبل الفلسفة.

قامت الوضعية المحدثة ضد الموقف الذي كان يسود ألمانيا خلال الثلاثينيات من العلم، فهاجموا النزعة المثالية التي كانت تهيمن آنذاك. وقد حاول أصحابها أن يقربوا بين الفلسفة والعلم وذلك باستبعاد أشباه المشاكل التي تشكل الخطاب الميتافيزيقي. فمعرفة الواقع في رأيهم تتم عن طريق العلم. أما مهمة الفلسفة فهي أن تنكب على لغة العلماء من أجل توضيح قضايا العلم. والأمر لا يتوقف عند حد التقريب بين العلم والفلسفة عند هؤلاء بل يصل إلى التوحيد والذوبان، فكارناب يريد أن يجعل من الفلسفة علماً من العلوم.

إن الفلسفة هي فلسفة المعرفة، والمعرفة العلمية على الخصوص. وليس هناك مبرر للميتافيزيقا عند هؤلاء. وهم في هذا يتبعون أب الوضعية كونت. فهم يرفضون الميتافيزيقا لأنها تشكل الكلام الذي لا معنى له.

²⁴المرجع نفسه.

وعيب الفلسفة التقليدية في نظر هؤلاء راجع إلى سوء استعمال اللغة. ومن ثمة كانت هناك ضرورة لتحليل اللغة تحليلًا منطقيًا لإحلال اللغة الرمزية محل غموض اللغة العادية. وقد وجد هؤلاء في المنطق الرمزي كما عند فريجه وراسل أداة لتحليلاتهم اللغوية.

ويلقب الوضعيون المحدثون كذلك بالوضعيين التجريبيين أو التجريبيين المنطقيين، فيطلق على نزعتهم التجريبية المنطقية وذلك لكونهم يؤكدون تعلقهم بالنزعة التجريبية، أي بفلسفة تعتبر التجربة مصدر معرفة علمية ولا تفصل المعرفة العادية عن التجارب العلمية.

ولكن إلى أي حد يخرجنا الموقف الوضعي الجديد من الإشكالية العامة لفلسفة العلم؟ وهل يتجاوز هؤلاء العيوب التي أثبتناها بصدد تلك الإشكالية؟

ليست هناك حاجة للتذكير ببعض المواقف المشتركة والتي تجعل الوضعيين الجدد لا يخرجون، سواءً بالمشاكل التي يطرحونها أو الحلول التي يقترحونها، عن الإشكالية العامة لفلسفة العلم، ولعل أهم تلك المواقف حديثهم عن علم موحد للغة واعتبارهم المعرفة العلمية امتدادًا لبادئ الرأي. إلا أن أهم المشاكل التي تثيرها نزعتهم تلك التفرقة بين العبارات التي لا معنى لها والتي لها معنى. وهذا "لا يصح - فيما يقول بياجي - أن نقبل وصف المشاكل الميتافيزيقية على أنها مشاكل عديمة المعنى. ولا يعني هذا أننا نقبل المعرفة الميتافيزيقية. ولكن لا شيء يسمح لنا بإدخال هذا النوع من القضايا أو تصنيفه نهائيًا ضمن قضايا علمية أو قضايا ميتافيزيقية. كل ما يمكن أن يقال عن مشكل لا زال الجدال قائمًا حوله هو أنه مشكل لم يحظ بعد بالمعنى".²⁵

الإبستمولوجيا التكوينية: تقدم الإبستمولوجية التكوينية كمحاولة لتجاوز أصحاب نظرية المعرفة والإشكالية العامة لفلسفة العلم.

تقوم هذه الإبستمولوجيا كما تصورها صاحبها بياجي على النقاط التالية:

- إن نظريات المعرفة التقليدية لم تنظر إلى المعرفة العلمية كمسلسل وعملية تطور.
- إن الكيفية التي وضع عليها مشكل المعرفة كانت تؤدي بتلك النظريات إلى الخوض في مسائل الميتافيزيقا.
- إن نظريات المعرفة التقليدية اعتبرت الحقائق جاهزة كما اعتبرت المعارف العلمية متوقفة متحجرة.

²⁵ المرجع نفسه.

بالنسبة للنقطة الأولى يقول بياجيه: "إن الفرضية التي تجمع عليها كل الإستمولوجيات التقليدية هي أن المعرفة حالة قارة وليست عملية تطور".²⁶ وهذا ما جعل هذه النظريات التقليدية بعيدة عن أن تخوض مبحث المعرفة من الوجهة الصحيحة. وهو ما حال بينها وبين فهم صحيح لطبيعة المعرفة.

أما بالنسبة للنقطة الثانية فإن طبيعة الأسئلة التي وضعتها نظريات المعرفة التقليدية كانت تؤدي بأصحابها إلى الخوض في مسائل ميتافيزيقية الشيء الذي جعل العلم تحت رحمة الأنساق الفلسفية.

وآخر نقطة، فقد اعتبرت نظريات المعرفة التقليدية أن الحقائق جاهزة وأن المعارف العلمية متوقفة قارة. يرى بياجيه أن علينا أن نتخلص من فكرة الثبات والاستقرار وأن ننظر سواء إلى المعرفة أو إلى الذات العارفة أو الموضوع المعروف أن ننظر إلى كل هذا في نمو حركته، وأن نعتبر العلم طريقا مفتوحا. يقول: "ليس علينا أن نتساءل عما هي المعرفة العلمية ككل ساكن، بل علينا أن نضع السؤال: كيف تنمو المعارف وتزايد ناظرين إلى تلك المعارف في تعددها".²⁷

إذن الإستمولوجيا التكوينية تنظر إلى العلم في نمو وتطوره. ومن ثم فإن هذا النمو يقتضي إعادة إنشاء السير التاريخي الذي رسمه ذلك النمو. لذا فإن الإستمولوجيا التكوينية تستفيد أكبر الإفادة من تاريخ العلوم. ثم إن علم النفس التكويني يقدم بدوره أكبر الخدمات لهذه الإستمولوجيا.

تميز الإستمولوجيا التكوينية إذن عن باقي النظريات التقليدية في المعرفة من حيث أنها تريد أن تقوم على نتائج علمية وتعتمد بصفة صريحة نتائج علم النفس. إذن من شأن ذلك أن يسمع لتلك الإستمولوجيا بأن تتابع نمو المعارف.

فالإستمولوجيا التكوينية تعتمد على التحليل التاريخي التكويني من جهة، وعلم التحليل المنطقي الصوري من جهة أخرى. ولكن هل الإستمولوجيا التكوينية استطاعت أن تتجاوز عيوب النظريات التي حاولت تخطيها؟ إنه رغم الإيجابيات الكثيرة التي أثبتناها بصدد هذه الإستمولوجيا. ورغم فهمها التكويني للمعرفة ووعيتها بالتطور العلمي وانفتاحها على العلوم بمختلف فروعها، واسنادها البحوث الإستمولوجية إلى العمل الجماعي، واعتبارها الإستمولوجيا ملتقى عدة دراسات، رغم كل هذا فإن إستمولوجيا بياجيه لا تخرجنا عن السياق

²⁷ المرجع نفسه.

الوضعي الذي أثبتناه بصدد الإشكالية العامة لفلسفة العلم. لتساءل عن العلاقة الحقيقية التي يقيمها بياجيه بين الفلسفة والعلم ؟ حقا إنه لا يريد أن يمنع العلم من تخطي بعض الحدود وافتحام بعض الأسوار، ولكنه، كما يقول هو ذاته، يريد أن يخرج الفلسفة ويبعدها عن أكبر عدد ممكن من المسائل الجزئية كي يختص بها العلم. إنها إذن نفس الروح الوضعية التي تنظر إلى الفلسفة نظرًا إلى العاجز، ولا ترى في الفعالية الفلسفية إلا العقم، وتريد أن تحرر المعارف من الفلسفة ليختص بها النشاط المعرفي المنتج أي النشاط العلمي.

7- من فلسفة العلوم إلى الإستمولوجيا:

تجاوزا لإشكالية فلسفة العلم تأتي الإستمولوجيا مع باشلار لتصوغ تصورهما لعلاقة الفلسفة بالعلوم رافضة كثيرا من الدعائم التي تقوم عليها الفلسفات التقليدية. وهذه الإستمولوجيا تقوم على ثلاث نقاط:

- 1) - هناك ارتباط وثيق الصلة بين النشاط العلمي والفعالية الفلسفية.
- 2) - لا تتحدد الفلسفة عند باشلار إلا في علاقتها بالعلوم ولا تعرف إلا بالوظيفة التي تقوم بها.
- 3) - الفلسفة تضع خطأ فصلا بين ما هو علمي في العلوم، وإيديولوجي في الإيديولوجيات.

بالنسبة للنقطة الأولى فتاريخ الفلسفة يكشف لنا أن العلاقة كانت دوما جدلية بين الفلسفة والعلم، فالفلسفات الكبرى ارتبط نشوؤها بنظريات علمية أو بثورات علمية. يقول بياجيه: "يظهر أن مما لا جدال فيه أن أكبر المذاهب الفلسفية ينحدر من تأمل حول الاكتشافات العلمية لأصحابها أنفسهم. أو حول ثورة علمية خاصة عرفها عصرهم أو العصر الذي سبق وجودهم مباشرة. ذلك هو الأمر فيما يتعلق بأفلاطون مع الرياضيات، وأرسطو مع المنطق والبيولوجيا، وديكارت مع الجبر والهندسة التحليلية، ولاينتز مع حساب اللانهايات، وبتجريبية لوك وهيوم وتمهيدهما لعلم النفس، وبكانط مع العلم النيوتونيوتعميماته، وبهيجل والماركسية مع التاريخ وعلم الاجتماع إلى أن نصل إلى هوسرل مع المنطق الرمزي كما هو عند فريجه".²⁸

وهكذا فإن تاريخ الفكر العلمي يثبت أن:

- أ) الفكر العلمي لم يكن خطأ منفصلا عن الفكر الفلسفي.
- ب) الثورات العلمية الكبرى قد تحددت بانقلابات وتحولات في المفاهيم الفلسفية.

²⁸ المرجع نفسه.

الفكر العلمي، ونقصد هنا العلوم الطبيعية، لا ينمو في الخواء، بل إنه يوجد دوما داخل سياق من الأفكار والمبادئ الأساسية، والأوليات البديهية التي كانت تعد من مجال الفلسفة.

يعرف بياجيا لإبستمولوجيا بأنها دراسة تكون المعارف الصحيحة، وكلمة تكون تغطي في الوقت ذاته شروط الوصول والشروط التكوينية بالضبط.

من أجل تفسير هذا التعريف في مختلف أوجهه، نطلق من القول الذي تم اختياره تاريخيا من أجل صياغة المشكل الإبستمولوجي، كيف تكون العلوم ممكنة ؟ نستنتج إذن أن:

1) - هذا التعريف يحيل من جهة، إلى صحة المعارف ما يتضمن وجهها معياريا، ولكن أيضا، من جهة أخرى شروط الوصول.

2) - الجمع الذي ينسب الى كلمة معارف يشير إلى أن الشروط المعنية ليست نفسها لمختلف أنماط المعرفة: فهم كيف تكون البيولوجيا ممكنة لا يفسر كيف تكون الرياضيات ممكنة والعكس.

3) - كلمة وصول تشير إلى أن المعرفة هي عملية (بعد ثقافي أو تاريخي) والحال أن هذه العملية تهم الإبستمولوجيا كثيرا. فمثلا الأمر يتعلق بسؤال إبستمولوجي وليس فقط سيكولوجي التساؤل إذا كانت الكائنات الرياضية موضوع اختراع أو مجرد اكتشاف (يقضي أنها موجودة قبل اكتشافها).

4) - بالنسبة للشروط التكوينية نفهم منها في نفس الوقت شروط الصحة الصورية أو التجريبية وشروط الواقع الخاصة بعلاقات الموضوع بعلاقات الذات بصياغة المعارف. المشكل المركزي للإبستمولوجيا هو في الواقع، بناء إذا ما كانت المعرفة تختزل إلى تسجيل خالص بواسطة الذات لمعطيات منظمة باستقلال عنها في عالم خارجي (طبيعي أو مثالي)، أو إذا ما كانت الذات تتدخل بنشاط في المعرفة وفي تنظيم الأشياء.

الإبستمولوجيا مثل المنطق (الذي انفصل عن الفلسفة وشكل فرعا علميا خاصا) تستند على تحليل ذي سمة علمية لأن طبيعة المشكلات التي تثيرها تتضمن تنسيقا وثيقا للأبحاث المنطقية والسيكولوجية والمنهجية التي هي جميعها اليوم مستقلة عن الفلسفة العامة. لهذا فإن مستقبل الإبستمولوجيا دون شك هو التموّج على أرضية الأبحاث المتناظرة والمتخصصة أكثر من التموّج على أرضية التفكير التأملية المعزول.

8- الأشكال الكبرى للإبستمولوجيا:

تصنف نظريات المعرفة إلا ثلاث فئات كبرى :

- 1- الفئة التي تنطلق من التفكير في العلوم وتميل إلى تمديده إلى نظرية عامة في المعرفة .
- 2- الفئة التي وهي تستند على نقد للعلوم، تبحث عن الوصول إلى نمط من المعرفة متميز عن المعرفة العلمية.
- 3- الفئة التي تبقى داخل تأمل حول العلوم. نلاحظ أن هذا التقسيم الثلاثي يبين أنه لا توجد إبستيمولوجيا مستقلة عن العلوم سنسمي ميتاعلمية أو ما وراء علمية نظريات المعرفة من النمط الأول وشبه علمية النظريات من النمط الثاني، وعلمية النظريات من النمط الثالث.

1- **الإبستيمولوجيات الميتاعلمية:** تتمثل في الإبستيمولوجيا اليونانية التي ولدت عن التفكير في الرياضيات مع أفلاطون والمنطق مع أرسطو، والإبستيمولوجيا الديكارتية، والإبستيمولوجيا الكانطية فهذه الإبستيمولوجيات تشير إلى النظريات التي تكونت بالفعل أو التي تم اختراعها من قبل كتاب التأملات اللاحقة. لقد تجاوزتها إلى حد ما، ولكنها خرجت منها، من هنا مصطلح ميتاعلمية.

2- **الإبستيمولوجيات على هامش العلمية :** parascientifiques هذه الإبستيمولوجيات لا تكمن في التفكير في شروط التفكير العلمي من أجل الوصول إلى نظرية أكثر عمومية للمعرفة، ولكنها تجهد في الانطلاق من نقد تحديدي للعلم من أجل تأسيس، خارج حدوده، معرفة ذات شكل مختلف، الأمر يتعلق بإبستيمولوجيات ترافسونولا شولبي ويوبروبرسون. والإبستيمولوجيات الفينومينولوجية.

3- **الإبستيمولوجيات العلمية:** مهمتها استخلاص قيمة المعرفة العلمية، مثل المذاهب الكلاسيكية الكبرى، ولكن مع هذه الجدة التي في وجودها أمام ليس فقط تكاثرا معتبرا للعلوم، ولكن أيضا أمام صيرورة غير متوقعة تترجم في ظهور مبادئ جديدة بواسطة زعزعة مبادئ أخرى، باختصار بواسطة التحولات التي تعدل في لحظة ما طرح المشكل.

يمكن أن نعزو إلى الإبستيمولوجيات التي نسميها علمية ثلاثة مصادر: الأول ذو خاصية أخلاقية، والمصدر الثاني يتمثل في أهمية الفلاسفة الذين من كورنو إلى برونشفيك إلى كاسيرر وآخرين، بحثوا في فلسفة العلوم عن معلومات هي أن التفكير التأملي لا يمكن أن يمنحهم إياها حول تحولات المعرفة. والمصدر الثالث يتعلق بتفكير العلماء ذاتهم في أدوات المعرفة التي تمتلكها علومهم، تفكير يتجه ليس إلى التفلسف ولكن إلى تذليل الأزمات عندما لا تنتج هذه الأزمات فقط عن التفاوتات حول النتائج المحصلة، ولكن من تدخل قيمة المفاهيم أو المبادئ المستعملة من أجل الحصول عليها.

التيارات الوضعية: وضعية كونت التي تقوم على تصور للعلم يقوم على أن العلم لا يهتم إلا بالظواهر وليس بطبيعة الأشياء. والعلم لا يعرف سوى القوانين ويجهل أسلوب إنتاج الظواهر بمعنى السببية.

فلسفات العلوم مع كورنووبرونشفيك:

الإبستمولوجيا داخل العلوم: ميزة الإبستمولوجيا المعاصرة هي أن التفكير الإبستمولوجي يتولد من داخل العلوم ذاتها. هذا التفكير الذي يقوم بنقد المفاهيم والمناهج والمبادئ المستعملة إلى غاية الآن من أجل تحديد قيمتها الإبستمولوجية ذاتها.

مناهج الإبستمولوجيا: يمكن أن نستخلص مما سبق نتيجتين: الأولى هي أن الإبستمولوجيات الكبرى كان يسبقها دائما تفكير حول العلوم. والثانية أن الإبستمولوجيات المعاصرة تشتق من الضرورة الداخلية ذاتها الخاصة بالعلوم في تطورها، مرجعة ثابتة لمبادئها وأدوات المعرفة الخاصة بها. الإبستمولوجيا تميل إذن إلى أن تندرج في نسق العلوم ذاته. ولكن لا يمكنها أن تصبح علمية إلا بفضل تحديد مناهجها وحصر مشكلاتها بطريقة تمكن من معالجتها حسب الإجراءات الاستنباطية أو التجريبية التي تشرط الموضوعية بشكل عام.

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من المناهج:

(1) **مناهج التحليل المباشر:** التي تقوم، في حضور جسم جديد من المذاهب العلمية أو أزمة تدخل إعادة صياغة بعض المبادئ، على محاولة استخلاص بواسطة تحليل تأملي بسيط شروط المعرفة الداخلية في مثل هذه الأحداث.

(2) **مناهج التحليل التشكيلية:** تشير إلى المناهج التي، مثل مناهج التجريبية المنطقية، تضيف إلى التحليل المباشر لعمليات المعرفة اختيارا لشروط تكوينها والتنسيق بين هذا التكوين والتجربة.

(3) **المناهج التكوينية:** هي تلك المناهج التي تبحث عن فهم عمليات المعرفة العلمية فيما يتعلق بتطورها أو بتكوينها ذاتها. وهذه المناهج تميز فيها بين المناهج التاريخية النقدية التي تمدد مناهج التحليل المباشر، برفع اختبار جسم من المذاهب الحالية، إلى دراسة تكوينه، ولكن بتشديدها على التقدم التاريخي، وتحمل غالبا اعتبار تشكيلها. والإبستمولوجيا التكوينية التي بواسطة تنسيق التحليلات السيكتوكوينية وتشكيل البنيات، تبحث عن بلوغ الشروط السيكتولوجية لتكون معارف أولية وتنسق نتائجها مع دراسة شروط التشكيل.

مناهج التحليل المباشر: هذه المناهج تمدد التقاليد الكبرى للتفكير حول العلم الخاصة بالإبستمولوجيات الكلاسيكية، وتقوم أساساً على تنقية هذا التفكير يجعله متضامناً مع النقاشات المثارة داخل العلوم ذاتها.

التحليل التشكيلي ومناهج الوضعية المنطقية:

تقوم هذه المناهج على تحليل شروط المعرفة العلمية، بمعالجة المشكلات خطوة بخطوة بالنظر إلى تحولات العلوم، بدلاً من الانطلاق من معايير مطلقة ومن قوانين العقل ومن حلول زائفة من الإبستمولوجيا الكلاسيكية. مناهج التحليل التشكيلي هي تلك المناهج التي تتبناها حلقة فيينا أو التجريبية المنطقية.

المناهج التاريخية النقدية: تاريخ العلوم وحده باعتبار سرداً بسيطاً لتتابع الاكتشافات، لا يهم الإبستمولوجي مباشرة. المشكل التاريخي النقدي يتم التصدي له، على العكس، عندما نتمكن من استعمال إعادة التكوين التاريخي بالنظر إلى التحليل النقدي (بمعنى مماثل للنقد لدى كانط) مثلاً من أجل تفكيك الأجزاء المتبادلة للاستنباط والتجربة خلال تكوين مبدأ ما.

المنهج السيكلولوجي التكويني والإبستمولوجيا التكوينية:

الإبستمولوجيا التكوينية تقوم ببساطة على الأخذ بجدية إسهامات علم النفس بدلاً من الاكتفاء بالمراجع الضمنية أو التأميلية مثلما هو الحال بالنسبة لأغلب الإبستمولوجيات. الأمر يتعلق فقط بالنسبة لكل مشكلة إبستمولوجية خاصة، بالتدقيق وتنظيم الدعوة إلى التكوين النفساني الذي ترجع إليه كل الإبستمولوجيات العلمية من جهة، ومن جهة أخرى تكملة التحليل التكويني النفساني، غير الكافي وحده باعتباره منهجاً إبستمولوجياً بواسطة تحليلات تاريخية نقدية وتحليلات مباشرة وخاصة بالتحليل التشكيلي.²⁹

المحاضرة الثانية

نظرية المعرفة

1-الأدوية

2-التجريبية

²⁹Jean Piaget (sousdir) , Logique et connaissance scientifiques , Gallimard , Paris , 1967 .

3-العقلانية

4-المثالية

5-الواقعية

1-اللاأدرية: السؤال الأول الذي يجب طرحه بصدد المعرفة يتعلق بإمكانية المعرفة، هل الفكر البشري قادر على تحصيل الحقيقة أو هل لديه يقينيات مشروعة. إذا كنا لا نأمل في تحصيل الحقيقة في أي مجال نكون لأدريين. اللاأدرية تقوم تحديداً على توقيف حكمها على كل الأشياء. الموقف النقيض هو الاعتقادية Dogmatisme، إنها تقوم على الدفاع عن أننا نستطيع معرفة الحقيقة. اللاأدرية إغراء دائم بالنسبة للفكر البشري بمجرد التفكير ومغادرة الميدان الركين لليقينيات الحس المشترك. إنها تظهر قلق فطري لدى الإنسان وعدم رضى أبدي. ولكن بما أنها تدفع القلق إلى حدوده القصوى وتقييمه كنوع مطلق، فإنها تصل إلى فقدان للأمل الفكري.

إذا ألقينا نظرة على تاريخ الفلسفة الغربية نلاحظ نوعاً من التذبذب المستمر بين الاعتقادية واللاأدرية. كل عمل عظيم للفكر الاعتقادي يكون متبوعاً بأزمة من التخاذل وفقدان الأمل. الفلاسفة الأوائل الإغريق طاليسوهيراقليطسبارمينيدسوديموقريطس، انطلقوا من محاولات مختلفة من أجل تفسير الطبيعة. لكن سرعان ما أتى السوفسطائيون (بروناغوراسوجورجياس) الذين أقاموا صفحة بيضاء خلال قرن من العمل. سقراط أنقذ الفلسفة. وأفلاطون وأرسطو بنوا الأنساق الأكثر قوة والتي لم يسبق إليها الفكر البشري. ولكن أرسطو يختف بعد حتى ظهر بيرون، الذي أعطى اسمه لمدرسة كاملة تعتبر الشك كحكمة وحيدة. خلال العصر الوسيط كله، المفكرون المسيحيون الكبار المنقادون بالإيمان، مددوا وحسنوا الفلسفة القديمة. ولكن في الأزمنة المعاصرة موتتاني بعث اللاأدرية الإغريقية وقدم الشك في الفترة المعاصرة. حركة العقرب تسارعت، ديكارت أطلق الفكر الميتافيزيقي. ولكن هيوم فك الديكارتيه بنقد لاذع واستقر في اللاأدرية. نفس المغامرة مع كانط، لقد أعطى للفلسفة انطلاقة جديدة، ولكن مع ذلك اللاأدرية ستبدو في شكل الوضعية. نفس المغامرة أخيراً مع هيجل الأكثر اعتقادية للفلسفات المعاصرة. إنحلالاً لهيجلية تبخر تحت أعيننا إنها فلسفة المجرد، الشكل المعاصر لللاأدرية الخالدة.

إذا أردنا أن نعطي تعريفاً يصلح على كل أشكال اللاأدرية نقدم التالي: حركة انحلال نزعة اعتقادية. ونفهم هكذا بأن هناك أشكالاً مختلفة من اللاأدرية حسب النزعات الاعتقادية التي تناقضها.

ولكن إذا أردنا أن نكون معرفة باللاأدرية، فيجب الرجوع دائما إلى اللاأدرية الإغريقية لأن كل اللاأدريات الأخرى تتوقف عليها. اللاأدرية الإغريقية تأخذ أربع أشكال رئيسية:

الشكل الأقصى يوجد لدى بيرون الذي يرى أنه لا يجب الاعتقاد في أي شيء، التوقف عن الحكم والعيش في لا مبالة كاملة الاتراكسيا Atraxie (طمأنينة النفس) هي الحكمة بالنسبة لبيرون. لقد كان هدفه هو تجريد الإنسان، بمعنى يتجرد من إنسانيته. بعد بيرون اللاأدرية أصبحت جدلا فكريا خالصا، موجهة أساسا ضد اعتقادية الرواقيين.

الأكاديمية الجديدة حيث أن قادتها على التوالي هما أرسيسيلاسوكارنديار كانوا يعلمون الاحتمالية. أي تصور لا يكون بديهيا، لسنا متأكدين أبدا أننا في قلب الحقيقة، ولكن بعض التصورات تكون محتملة، إنها تكفي جيدا للحياة.

اللاأدرية الكلاسيكية حيث أستاذها هو أينسدام Aénésidème هو ظاهراتي. اللاأدرية قبلت بالاعتقادات في المظاهر، باعتبارها حاضرة مباشرة في الشعور ومقابلة له.

المرحلة الأخيرة من اللاأدرية الإغريقية تتمثل في التجريبية، التي نجدها لدى سيكتوسأومبركوس وهي التطور المنطقي للظاهراتية.

حجج اللاأدرية:

- 1) تناقض الفلاسفة، وبشكل واسع تعدد واختلاف الآراء الإنسانية. الناس ليسوا متفقين على أي موضوع.
- 2) الأخطاء، وخاصة أخطاء الحواس، الأحلام، الهلوسات، السكر كلها تجعلنا نتساءل كيف نضمن لأنفسنا أننا لم نخطئ ؟
- 3) نسبية المعرفة: يمكن أن تأخذ شكلين: أولا كل شيء نسبي بالنسبة للأشياء الأخرى، ذلك أنه لا شيء في الكون معزول، ومفصول عن المجموع. من المستحيل معرفة شيء دون معرفة كل الأشياء الأخرى. ومن جهة أخرى الشيء المعروف نسبي بالنسبة للذات التي تكون دائما فردا له عمر معين، وحالة صحية معينة ويوجد في وضعية معينة من المستحيل إذن معرفة أن الشيء يكون هو ذاته، في استقلال عن علاقته بنا.

4) الحلقة المفرغة: إنها حجة منطقية خالصة. إذا لم تكن هناك قضية مبرهنة فلا يوجد أي سبب لتبنيها. إذا برهن عليها، فيكون ذلك بواسطة مبدأ ولكن هذا المبدأ يحتاج إلى مبدأ بدوره وهكذا نترجع إلى ما لا نهاية.³⁰

1- التجريبية: هناك تقارب بين التجريبية والأدوية فالأدوية أدرى وأميركوس تجريبي، وهيوم يعتبر لأدريا. النقطة المشتركة بين التجريبيين جميعا هي أن التجربة هي وسيلة المعرفة.

في الفلسفة الإغريقية، التجريبية ليست بعد سوى حسية. هيراقليطس أسسها على معطيات الحواس ودافع عن فكرة أن الكائن صيرورة خالصة. كل شيء يجري، لا شيء يبقى. تلميذه بروتاغوراس لاحظ أن الإحساس خاص بتكوين حواسنا وأعلن أن " الإنسان مقياس كل شيء ". صيغة كاملة نهائية للنسبية والإنسوية. أبيقور أخيرا مشهور بأخلاق اللذة. ولكن هذه الأخلاق لا تفهم إلا بوصفها نتيجة لنظرية حسية في المعرفة. ما هو الخير؟ ليس شيئا آخر غير ما تعلمنا إياه الحواس، وإذن اللذة. في العصر الوسيط، التجريبية يمثلها بشكل رئيس أو كام Occam وأخذت اسم الإسمية. أطروحته المركزية هي أنه لا يوجد في الفكر مفاهيم مجردة وعالمية، تمثل الماهيات ولكن فقط كلمات أو أسماء حيث أن المعنى يقوم في تعيين أفراد معطاة بواسطة التجربة. هذا المذهب الذي يهدف العقل سيدخل إلى التجريبية ويصبح هيكلها الأساسي.

التجريبية الإنجليزية يمكن أخذها ككل ذلك أنها تقدم انسجاما ملحوظا ولم تتنوع خلال ثلاثة قرون. لوك لازال واقعيًا، باركلي يعلم اللامادية. وهيوم ظاهريًا، بنتام استخلص نتائج أخلاقية من الظاهرية مع قياسه للذات. ولكن المبادئ النقدية متطابقة لدى الجمع، وهيوم هو الذي سيصوغها بشكل نهائي:

- 1) لا يوجد في الفكر أفكار فطرية ولا مفاهيم مجردة.
- 2) المعرفة تختزل إلى إنطباعات حسية وإلى أفكار هي نسخ باهتة لهذه الانطباعات بمعنى الصور.
- 3) الكيفيات الحسية ذاتية.
- 4) العلاقات بين الأفكار تختزل إلى ترابطات.
- 5) المبادئ الأولى وتحديدًا مبدأ السببية هي ترابطات من الأفكار صارت معتادة.
- 6) المعرفة محدودة بالظواهر وكل ميتافيزيقا تكون مستحيلة .

التجريبية انتهت في فرنسا إلى كوندياك الذي بنى نسقا حسيا أرجع كل معرفة إلى الإحساس المتحول إلى طرق مختلفة.

³⁰Royer Vernaux ,Epistemologie Générale , Beauchesne , Paris .

الوضعية تنظم إلى التجريبية مع كونت. "كل قضية، يقول كونت، ليست مختزلة بشكل حاسم إلى بيان واقعة، لن يكون لها أية قيمة لا واقعية ولا فكرية". الوضعية ترجع المعرفة إلى دراسة الظواهر الطبيعية وقوانينها حسب إجراءات المنهج التجريبي.

والحجج التي يستند إليها التجريبيون كثيرة، فلوك مثلاً يقول بأنه لا توجد أفكار فطرية في الذهن ذلك أن الأطفال والبدائيين والمجانين ليس لديهم أفكار إنسان بالغ.

بالنسبة لهيوم فقد برهن على تجريبيته بواسطة فكرة السببية حيث بين أنه لا توجد علاقة اقتران بين الحوادث، فإذا لاحظنا تتابع حادثتين فإننا لا نرى تأثير إحداها في الأخرى، وكل ما هنالك أن المشاهدة المتكررة لتتابع الحادثتين هي التي تجعلنا نقول عن الحادث الأول سببا والحادث الثاني مسببا.

2- العقلانية: العقلانية هي الإتجاه المناقض للتجريبية، حتى لو جعلت العقلانية مكانا للتجربة، فهي ترفض أن يكون لها قيمة علمية. في الفلسفة الإغريقية، العقلانية أعطت حركتين بارزتين: الأولى ترجع إلى بارميندس الذي رأى أن طريق التجربة لا يقود سوى إلى الخطأ، العقل وحده يقود الحكيم نحو قلب الحقيقة التي تشكل دائرة جميلة. الحقيقة الأولى التي يطرحها العقل هي مبدأ الهوية. الكائن موجود، اللاموجود غير موجود. الأخلاق الرواقية تستند على ميتافيزيقا من نفس النمط. الحكيم يكون لا مباليا بظروف وحركات الحساسة، إنه يجهد في أن يكون غير محس باللذة والألم، إنه يستأصل أهواءه ولكن لماذا؟ لأن السعادة تكمن في الفضيلة، والفضيلة تقوم في العيش حسب العقل. وأن العقل أخيرا وحتى الإله ملازم للعالم والإنسان. العيش في توافق مع العقل، هو أن تكون إلها.

في الفلسفة الحديثة العقلانية ظهرت مع ديكارت واتخذت أشكالا إلى حد ما خالصة لدى ديكارت تتعبّر بشكل أساسي بفكرة الرياضيات العالمية ونظرية الأفكار الفطرية. الرياضيات هي بالنسبة لديكارت نمط العلم، ذلك أنها في نفس الوقت صارمة وتقدمية. من أجل أن تكون لغة المعرفة علمية، في أي ميدان كانت، وخاصة في الفيزياء والميتافيزيقا يجب أن تنطلق من أفكار واضحة ومتميزة مدركة بالحدس ونتجة عن حقائق بواسطة نظام، مثل سلسلة النظريات الهندسية. ديكارت يمنح دون شك دورا للتجربة في الفيزياء، ولكنه يختزله إلى الآتي: إعطاء إشارة عن وجود نتائج محصلة قبلها عن المبادئ، التجربة لا تمنح أي موضوع للعالم إذن. أما عن أصل الأفكار، فديكارت يتبنى أن عددا لا بأس به هو عارض مثل الإحساسات، وخيالي مثل التحييلات. ولكن هذه الأفكار ليست واضحة ولا متميزة، ولا يمكن أن تدخل مجال العلم إذن. الأفكار الفطرية وحدها تكون واضحة ومتميزة، وخاصة فكرة الامتداد الذي هو موضوع الهندسة.

الأفكار الفطرية موجودة فينا منذ الأصل، ليس كأفعال ولكن كقوى مثل الكرم الذي هو فطري لدى بعض الأسر.

فلاسفة آخرون عقليون أمثال سبينوزا وليبنيز وكانط الذي على يديه تعمقت العقلانية. كانط جعل المعرفة ممكنة بتعاون التجربة والعقل. العقل يتضمن مبادئ قبلية وصورتين قبليتين هو المكان والزمان، والتجربة تقدم معرفة بعدية. والمعرفة لا تتم إلا بتعاون الحساسية والفاهمة. الحساسية تقدم معطيات ذاتية ومشتتة والفكر هو الذي ينظم تلك المعطيات ويعطيها شكلها الموضوعي .

3- **المثالية:** هناك أبوة بين العقلانية والمثالية، وانحدار للأولى نحو الثانية، ذلك أن الوسيلة الممتازة لبلوغ الواقعي الذي يكون عقلانيا هو افتراض أن الواقعي يتكون بفعل العقل. مع ذلك لا يمكننا المطابقة الخالصة والبسيطة بين التيارين. أولا لأن المشكل الذي يجيبان عليه ليس واحدا. بالنسبة لأحدهما هو وسيلة المعرفة وبالنسبة للآخر هو مأخذها.

ثم لأن التاريخ يقدم ارتباطات مختلفة عقلانية واقعية مثالا لدى ديكارت، ومثالية تجريبية مثالا لدى باركلي . المثالية مذهب حديث. تعزى أحيانا إلى أفلاطون أبوة هذه الحركة، ولكن هذا خطأ. هناك بكل تأكيد لدى أفلاطون نظرية في الأفكار، ولكنها نظرية واقعية، إنها أكثر واقعية من الأشياء الحسية التي ليست سوى ظل بمعنى مشاركة بعيدة. روحنا شاهدت عالم الأفكار قبل أن تسجن في الجسد، وأفكارنا هي تذكر لهذا الحدس المباشر. من أجل ترجمة نظرية الأفكار كمثالية، يجب قراءة أفلاطون بنظارات كانط. أب المثالية هو ديكارت. ومن الخطأ أيضا تقديمه هو ذاته كمثالي، ذلك أن نتائج نسقه واقعية. ولكنه وهو يكون نسقه، زرع بذور المثالية التي توسعت بعده. أولا ديكارت بدأ فلسفته بالشك المنهجي. لقد استبعد كل اليقينيات التي يمكن اكتسابها، وخاصة تلك التي انبنت على معطيات الحواس. هكذا وجود العالم لم يبد لها بديهيا، فلا يمكن تنبيهه إلا إذا تمت البرهنة عليه.

ثانيا: المبدأ الأول لفلسفته هو الكوجيتو. لقد طرح أن الفكر هو الحقيقة الوحيدة التي تعطى للفكر بطريقة مباشرة وأكيدة. كل حقيقة أخرى يجب أن تحتزل من هذه الحقيقة الوحيدة .

ثالثا: ديكارت منح للفكر أفكارا فطرية التي هي في ذاتها لوحات، بمعنى أشياء للمعرفة.

فلاسفة آخرون أمثال مالبرانش وباركلي وليبنيز قدموا فلسفات مثالية.

ولكن مع كانط تتكون وتتحدد المثالية. كانط سمي موقف ديكارت بالمثالية الإشكالية، وموقف باركلي بالمثالية الاعتقادية. وموقفه الخاص بالمثالية المتعالية أو النقدية. الأشياء لا تعطى لنا من نفسها بل نحن نكونها كما تبدو لنا بفضل تكويننا الذاتي. فنحن إذن من ينظم الظواهر المختلفة المعطاة من قبل الحساسة، ونكون عالما موضوعيا يربط الظواهر حسب قوانين العقل التي يسميها كانط بالمقولات.

المثالية بعد كانط ستأخذ اتجاهين: الأول موجه من طرف هيغل في ألمانيا. ورونوفي وهاملين في فرنسا. والثاني موجه من طرف فيخته ولاشوليبورونشفيك.

إذا أردنا أن نحدد المثالية فمن الخطأ تعريفها كما تفعل الكثير من الكتب على أنها تنفي واقعية العالم الخارجي. نجد هنا نظرة ضيقة لا تصلح إلا على مثالية جزئية كتلك التي لدى باركلي. المثالية بعد كانط مطلقة، بمعنى التي لا تعني فقط بالعالم ولكن أيضا بالإنسان والروح والله. إنها نظرية في الكائن وإذن ميتافيزيقا أو أنتولوجيا كاملة. والمثالية لا تنفي أبدا، واقعية العالم. ما تنفيه هو أن العالم يوجد في ذاته، بمعنى خارج كل معرفة أو كل تصور. ولكن بعيدا عن نفي واقعيته فإنها تقيمه على العكس، على نشاط الفكر. إنها تنفي حتى وجود الروح والله في ذاته، وتحددها كوعي أو بأفعال أو وظائف أو قوانين المعرفة.

4- الواقعية: على النقيض من اللاأدرية الواقعية تدعم القول ببلوغ الحقيقة. إنها تضع مكانا للشك في الحياة العقلية، ولكنها تعتبر الشك عالميا كموت للذكاء. إنها لا تجهل إمكانية الخطأ، ولا تردد الأخطاء، ولكنها تعتبر الخطأ كعرض أو شذوذ. باختصار إنها تتبنى أنه لدينا يقينيات مشروعة. إنها إذن موقف دوغمائي، زيادة على ذلك الواقعية تتعارض مع التجريبية والعقلانية. بأية وسيلة نعرف الحقيقة ؟ هل بالتجربة وحدها ؟ لا، هل بالعقل وحده ؟ لا أيضا. ولكن بالتجربة والعقل معا. أما فيما يتعلق بمأخذ المعرفة، الواقعية تتعارض مع المثالية. إنها تدعم أن الفكر البشري يمكن أن يعرف الكائن في ذاته، وأن الحقيقة تكمن تحديدا في تطابق الفكر مع ما هو كائن.

في الواقعية نجد اتجاهين أساسيين: أحدهما ينحدر عن أفلاطون موجه بالقديس أوغسطين والقديس بونفوتورا وصل إلى ديكارت، وإلى ماليرانش وإلى أنطولوجي القرن 19. الاتجاه الآخر ينحدر عن أرسطو وبلغ أوجه عند توما الاكويني، وظل حيا خلال قرون بواسطة المدرسة التوماوية.

المحاضرة الثالثة

اتجاهات إبستمولوجية معاصرة

1-الإبستمولوجيا الوضعية عند أوغست كونت

2-النزعة الإصطلاحية في الإبستمولوجيا: هنري بوانكاري

3-إميل بوترو ومذهب الاحتمال

4-العلم يتحرك: كارل بوبر

5-ألكسندر كويري: فهم تاريخ العلوم بواسطة تاريخ الأفكار

6-طوماس كون: ثورة هيستوريوغرافية لتاريخ العلم

7-النموذج التطوري للتغير المفهومي لستيفان تولمان

8-لودفيك فليك وتكون الواقعية العلمية

9-برونشفيك والمثالية النقدية

10-باشلاروالإبستمولوجيا التاريخية أو العقلانية المطبقة

11-جان بياجيوالإبستمولوجيا التكوينية

1-الإبستمولوجيا الوضعية عند أوغست كونت :

أثار كونت في كتابه " دروس في الفلسفة الوضعية " عددا من المشكلات المتعلقة بالإبستمولوجيا، والتي يمكن بفضلها أن نعتبره أقوى م مهد للإبستمولوجيا في صورتها المعاصرة، فلديه نجد تحديدا لمعنى العلم هذا المعنى السائد منذ ذلك الوقت إلى اليوم. كما نجد لديه تحديدا لعلاقة الفلسفة بالعلم من خلالها يمكن تحديد مهمة

الفيلسوف عندما يكون موضوع تفكيره هو العلوم في تطورها ومناهجها ونتائجها. كما أن كونت قدم في كتابه المذكور تصنيفا للعلوم يعتبر متقدما على ما عداه من تصنيفات لكونه يقوم على مبادئ مستقاة من دراسة تاريخ العلوم.

ولذلك فإن الإبستمولوجيا التي يقدمها كونت كان لها تأثير كبير على فلاسفة العلم المعاصرين له. وقد نشأت الإبستمولوجيا الوضعية في ظل مناخ تاريخي ومعرفي وإيديولوجي معين يمثل شروطها التي من خلالها نتبين الأهداف التي انتدبت نفسها إليها.

المناخ التاريخي والإيديولوجي للفلسفة الوضعية هو مناخ فرنسا القرن التاسع عشر، وكان هذا الزمن هو زمن الاضطرابات المجتمعية والسياسية التي أعقبت الثورة الفرنسية التي لم تحقق أهدافها كاملة، والصراع المجتمعي تمثل في الصراع بين القوى المحافظة والقوى الثورية الأولى تنادي بالنظام والثانية تنادي بالتقدم، ولذلك رأى كونت أن كلا القوتين المتصارعتين كانتا عاجزتين عن تجاوز حالة الفوضى السياسية التي كانت تسود المجتمع الفرنسي. لقد كان يلزم لدفع تلك الفوضى السياسية أن يوجد تآلف بين فكري النظام والتقدم. أما على الصعيد المعرفي فإن القرن التاسع عشر قد شهد درجة كبيرة من تطور العلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية، فضلا عن بدايات النجاح بالنسبة لعلوم الحياة. غير أن ضرورة علم الاجتماع لم تكن ضرورة معرفية فحسب، بل كانت مطلبا إيديولوجيا فكونت كان يرى أن الحل الوسط القادر على تجاوز تناقضات القوى المحافظة والقوى الثورية على السواء أي على التأليف بصورة إيجابية بين فكري النظام والتقدم. هو إقامة معرفة علمية بظواهر المجتمع بإقامة علم يتعلق بالاجتماع الإنساني.

الفلسفة الوضعية والإبستمولوجيا:

أولا يجب أن نحدد مفهوم العلم عند كونت. فالعلم عنده هو الذي بلغ مرحلة الوضعية بعد تجاوز المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية، وترك البحث في العلل الميتافيزيقية والغيبية وأصبح يهتم بالظواهر والعلاقات الثابتة لتعاقبها أو تماثلها.

وفي هذا الصدد من المهم قول شيء عن قانون الحالات الثلاث. يقول كونت عندما ندرس التطور العام للتفكير الإنساني في مختلف مجالات فاعليته، منذ انطلاسته الأولى الأكثر بساطة إلى غاية اليوم، أعتقد أنني اكتشفت قانونا أساسيا، أفسر به هذا التطور. هذا القانون يقوم على أن كل تصوراتنا الرئيسة، وكل فرع من معارفنا، يمر بالتتابع بثلاث حالات نظرية مختلفة. الحالة اللاهوتية أو الانفعالية، الحالة الميتافيزيقية أو المجردة، الحالة

العلمية أو الوضعية بعبارات أخرى، الفكر البشري بطبيعته يستعمل بالتتابع في كل واحد من أبحاثه ثلاثة مناهج من التفلسف، تختلف في خصائصها وحتى تكون متناقضة جذريا. أولا المنهج اللاهوتي، ثانيا المنهج الميتافيزيقي، وأخيرا المنهج الوضعي. فهنا ثلاث فلسفات أو ثلاث أنساق عامة من التصورات حول مجموع الظواهر، الحالة اللاهوتية هي نقطة الانطلاق للفكر، والحالة الثالثة هي الحالة الثابتة والنهائية، أما الحالة الثانية فهي مرحلة انتقالية من الأولى إلى الثانية.

في الحالة اللاهوتية يبحث الفكر عن أسباب الظواهر وهذه الحالة تنقسم إلى مراحل: الفيتشية تقوم على منح لكل الأجسام الخارجية حياة مماثلة لحياتنا ولكن دائما تقريبا أكثر طاقة. عبادة الكواكب تميز الدرجة العليا من هذه المرحلة اللاهوتية. المرحلة الثانية تتمثل في تعدد الآلهة والمرحلة الثالثة التوحيد.

أما الحالة الميتافيزيقية بدلا من تفسير الظواهر كما في الحالة السابقة بواسطة فاعلين فوق طبيعيين يلجأ الإنسان إلى تفسيرها بواسطة جواهر أو تجريدات. وأخيرا الحالة الوضعية: تفسير الظواهر بالقوانين لا بالأسباب الأولى أو الغائية. هذه الحالة تتميز باستبدال الخيال بالملاحظة. وهو ما يشكل الفكر العلمي بالمعنى الدقيق للكلمة.

وتتميز هذه الحالة بنسبية المفاهيم التي كانت مطلقة في الحالتين الأولى والثانية. فكل دراسة للطبيعة الحميمة للكائنات ولأسبابها الأولى والغائية يجب أن تكون مطلقة بينما أن كل بحث عن القوانين وحدها للظواهر يكون نسبيا باعتبار أنه يفترض عملية متواصلة للتأمل المطلق بتحسين مندرج للملاحظة من غير أن يتم التوصل إلى الحقيقة التامة³¹.

وعندما نبلغ المرحلة الوضعية فإننا نكون أمام ضرورة تقسيم العلوم وتخصص كل مفكر أو عالم في ميدان واحد إذ إدراك جميع الميادين كما كان سابقا لم يعد ممكنا مع تقدم المعارف الإنسانية. وهذا التخصص من شأن أن يطور العلوم. ولكن لهذا التخصص جانب سلبي هو الإيغال الذي يتميز به مفكر أو مجموعة مفكرين في دراسة ميدان واحد من ميادين المعرفة العلمية يجعلهم يجهلون الميادين الأخرى ومن أجل تلافي هذه النقطة السلبية يكون بواسطة إتمام عمل التقسيم، ويكفي لذلك أن نجعل دراسة العموميات العلمية اختصاصا آخر، يتكفل به فئة من العلماء مهمتهم أن يربطوا باستمرار كل اكتشاف جزئي جديد بالنسق العام. وهكذا يمكن القول أن

³¹ Auguste comte , philosophie des sciences , PUF , 1974 .

الفيلسوف الوضعي كما يتمثل في تصور كونت هو الإستيمولوجي وأن الشروط التي يضعها كونت أمام الإستيمولوجي من أجل تحقيق أهدافه تقترب من الشروط التي يضعها عدد من فلاسفة العلم المعاصرين.

إن الفلسفة الوضعية التي يتصورها كونت هي التي تقوم بالتنسيق بين الميادين المعرفية المختلفة بربط كل اكتشاف علمي جزئي بالنسق العام للمعارف العلمية. وهكذا تأتي الفلسفة الوضعية كاختصاص متمم للاختصاصات الأخرى التي فرضها تطور المعارف الإنسانية. إن الفلسفة الوضعية إذن ليست شيئاً غريباً عن الاختصاص العلمي بل هي بعض منه. ولكن الفلسفة الوضعية التي يكون موضوعها العموميات العلمية يجب أن يضطلع بها العلماء وليس الفلاسفة التقليديون.

هذا المعنى الذي يحدد به كونت الفلسفة الوضعية ويعين به مهمة الفيلسوف الوضعي وشروط إنجازها، يقترب من المعنى الذي يحدد به عدد من الإستيمولوجيين المعاصرين معنى الإستيمولوجيا. يلتقي المعنيان من حيث أن العمل الفلسفي فيهما لا يفرض على العمل العلمي أي قيم من خارجه، فهو ذاته منبثق منه. كما يلتقيان أيضاً في أن كونت يتصور أن الفيلسوف الوضعي ذو تكوين علمي. إلا أن الالتقاء لا يعني التطابق في كل الأحوال بين الإستيمولوجيا وبين الفلسفة الوضعية عند كونت، فهناك من الإستيمولوجيين المعاصرين من يعمل على تضيق مهمة فيلسوف العلم أكثر مما يفعله كونت. يحدّد مهمة الفيلسوف الوضعي في التنسيق بين النتائج العلمية. على أن هناك إستيمولوجيين كباشلار يجعل مهمة فيلسوف العلم هي تحليل نفسي للمعرفة العلمية، أو يقوم بتحليل المفاهيم العلمية لا من جهتها المنطقية فحسب من جهة كون هذه المفاهيم هي نتيجة لتكون وهذا ما دعا إليه بياجي.

أما تقسيم العلوم عند كونت فهو ليس مجرد تعداد لمعارف عصره وتقسيمها لها من حيث موضوعها، بل هو تصنيف للعلوم الوضعية أي لمجموع العلوم التي بلغت المرحلة الوضعية بوصفها المرحلة النهائية التي يبلغها الفكر البشري في تطوره في كل مجال من المجالات المختلفة للمعرفة وإن العلوم التي يصنفها كونت، فضلاً عن ذلك، هي العلوم النظرية المجردة وليست العلوم العملية التطبيقية.

تبعاً لهذه الشروط يذكر كونت العلوم التالية بالترتيب: الرياضيات، الفلك، الفيزياء، الكيمياء، علوم الحياة، وعلم الاجتماع.

بالنسبة لعلم الاجتماع فإن موضوعه الظواهر المجتمعية التي يجب أن تدرس بمثل ما تدرس العلوم الأخرى الظواهر الفلكية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية: إن الفيزياء الاجتماعية هي العلم الوضعي بالظواهر المجتمعية.

وقد وضع كونت علم الاجتماع في آخر الترتيب لأن الظواهر المجتمعية أكثر تعقيدا.

ويقسم كونت علم الاجتماع إلى قسمين: قسم يدرس الظواهر الاجتماعية من حيث حالة تأثيرها المتبادل، وهذا هو علم الاجتماع الإستاتيكي، وقسم يدرس تلك الظواهر من حيث ديناميتها وهذا هو علم الاجتماع الدينامي. وهذا التقسيم يستجيب لحاجة المجتمع إلى التأليف الإيجابي بين فكرتي النظام والتقدم. وعلم الاجتماع عند كونت يتضمن العلوم الإنسانية الأخرى مثل علم النفس والتاريخ واللسانيات. وهذه نقطة ينتقد فيها كونت وثمة انتقاد آخر يوجه إلى تصنيفه للعلوم، فهو تصنيف ثابت لا يبرز العلاقات بين هذه العلوم في تطورها.

2- النزعة الإصطلاحية في الإستيمولوجيا: هنري بوانكاري: ما هي الإستيمولوجيا الإصطلاحية؟

يمكن القول أن النزعة الإصطلاحية في الإستيمولوجيا المعاصرة من بين النزعات الفلسفية المناهضة للتجريبية ويظهر موقفها هذا في ناحيتين أساسيتين: أولا في ارجاعها قيمة القوانين العلمية وقيمة العلم بالتالي إلى عامل الإصطلاح بالدرجة الأولى لا إلى عامل التجربة، وثانيا في القيمة التي تتحدد بها هذه النزعة وظيفية الفرضية في العلم التجريبي. هذه المناهضة للتجريبية لا تكون بمعنى الرجوع إلى فلسفة ذات نزعة قبلية، فليس هنالك أبدا إنكار للدور الذي يلعبه التحريب في العلم، بل إنها تؤدي إلى نوع من الفلسفة النقدية التي قد ترجع إلى الفيلسوف كانط.

الفكرة الأساسية التي تعبر عنها النزعة الإصطلاحية يمكن صياغتها في الصورة التالية: إن بعض الإثباتات العلمية التي نعتبرها خطأ كما لو كانت وصفا للعالم يتأسس على التسجيل وعلى التعميم بناء على تجارب، ليست في الواقع سوى نتائج مؤسسة بصورة اصطناعية. والإعتراف بهذه القضايا العلمية لا يرجع إلا لاعتبارات اليسر والملاءمة وليس إلى التجربة.

لقد عبر عن هذه الفكرة الإصطلاحية في النظر إلى قيمة العلم جملة من الفلاسفة في فرنسا بصفة خاصة من بينهم العالم الرياضي والفيزيائي هنري بوانكاري وإدوارد لورواو وبيردوهيم. وسنقتصر على هنري بوانكاري.

الهندسات الالاقليدية والصفة الإصطلاحية لعلم الهندسة: يثير بوانكاري هذه المسألة بصدد علم رياضي هو الهندسة. وقد ساعده قيام الهندسات الالاقليدية على طرح المسألة بهذه الصورة.

يرى بوانكاري إن كل نتيجة تقتضي مقدمات، إما أن تعتمد هي ذاتها على مقدمات أخرى وإما أن تكون واضحة بذاتها بدون حاجة إلى برهنة. وكما كان من غير الممكن المضي في البرهنة إلى غير نهاية، فإنه لا بد من أن

تكون هنالك بالنسبة لأي علم، ولعلم الهندسة بالتالي، بعض القضايا التي يعتمد عليها دون الرجوع إلى البرهنة على صحتها. والقضايا الخاصة بالهندسة من هذا النوع ثلاثة.

- 1) بين نقطتين لا يمكن أن يمر إلا خط مستقيم واحد.
- 2) الخط المستقيم هو أقصر مسافة من نقطة إلى أخرى.
- 3) لا يمكن من نقطة خارج مستقيم أن نرسم إلا مستقيما واحدا موازيا له.

هذه القضايا هي التي تعتبر مصادرات العلم الهندسي الذي هيمن لعدة قرون ويعرف الآن بالنسق الهندسي الإقليدي.

وقد حاول الرياضيون البرهنة على المصادرة الثالثة ولكنهم فشلوا إلى أن برهن عليها بالضد لوباتشفسكي وريمان وتوصلا إلى هندستين لإقليديتين تختلفان في نتائجهما عن نتائج هندسة إقليدس وأبرزها تتعلق بمجموع زوايا المثلث. فإذا كان مجموع زوايا المثلث في الهندسة الإقليدية يساوي زاويتين قائمتين فإنه أقل من زاويتين قائمتين في هندسة لوباتشفسكي، وأكثر من زاويتين قائمتين في هندسة ريمان. ولكن هل يمكن المفاضلة بين هذه الهندسات ؟ وهل تلعب التجربة دورا في هذه المفاضلة ؟

إن التجربة ليست هي المعيار الذي يمكن أن نحسم بفضله في الحكم على أي من هذه الأنساق الهندسية يكونه أصدق من الأنساق الأخرى.

فإذا أبعدا التجربة فهل يمكن القول أن المبادئ التي تقوم عليها تلك الأنساق قبلية ؟ والجواب هو أن تلك المبادئ ليست قبلية وإلا لما كان بالإمكان افتراض قضايا أخرى مخالفة لمبادئ إحدى الهندسات، فإن لم تكن هذه المبادئ إذن قبلية فهل هي حقائق تجريبية ؟ لو كان الأمر كذلك فإن علم الهندسة سيكون علما تقريبا لا علما دقيقا، وسيكون عرضة لتغيرات متعددة.

ويبقى حل واحد هو القول أنها اصطلاحيات، ودور التجربة هنا هو توجيه اختيارنا. ولكن ما هي الهندسة الأكثر ملاءمة للتجربة، إنها الهندسة الإقليدية لأنها أبسط ولأنها ملائمة للتجريب على الأجسام الصلبة. وهكذا فإن السؤال ما هي الهندسة الأصدق، سؤال لا معنى له.

الصفة الإصطلاحية للعلوم الفيزيائية:

النزعة الإصطلاحية عند بوانكاري لا تتعلق بالعلوم الرياضية فحسب، بل تتعلق بالعلوم الفيزيائية أيضا. ورغم أن بوانكاري لا يشك في دور التجربة في العلوم الفيزيائية عنها في العلوم الرياضية، فإنه ينتقد التجريبية في العلوم الفيزيائية كما انتقد التجريبية الرياضية. لأن التجريبية لا تستطيع تفسير دقة القوانين الفيزيائية. فموضوعية ودقة القوانين الفيزيائية لا ترجع كلية إلى التجربة، بل ترجع إلى الإصطلاح القائم على ملائمة تلك القوانين لتجارينا ويسرها.

وتبرز النزعة الإصطلاحية لدى بوانكاري في تصوره للزمان والمكان كإطارين تدرك ضمنهما الظواهر الفيزيائية، فهما إطاران لا تفرضهما التجربة بل نحن الذين نفرضهما على الطبيعة لملاءمتها. ومعنى ملائمتها هنا إنهما إطاران يتييس إدراك الأشياء ضمنهما.

- دور الفرضية في العلم:

يبين بوانكاري بأن التجربة غير كافية في العلم وأن الاكتفاء بها تجاهل تام للسمة الخاصة للعلم. إذ أن ما يهم في العلم ليس هو الوقائع مجردة، بل الوقائع منظمة، فبناء العلم هو كبناء منزل من أحجار. فالتراكم العشوائي للوقائع لا يكون علما كما أن المنزل ليس مجرد مجموعة أحجار. إن على العلم أن ينظم الوقائع أولا، وأن يتوقع ثانيا، وكلا الأمرين لا يأتي من التجربة. إن للفرضية دورا في العلم لأن التعميم يتوقف عليها. والفرضية ذات قيمة في العلم حتى ولو كانت خاطئة لأن الخطأ يدفعنا إلى التمهيص وطرح فرضيات أدق.³²

3-إميل بوترو ومذهب الاحتمال:

إميل بوترو متزوج بإحدى أخوات بوانكاري، يمثل أحد فلاسفة العلم الأكثر تأثيرا في فرنسا في نهاية القرن 19. عمله كرس للعلوم وعالج مواضيع كثيرة سنناقشها هنا.

رغم أنه عكس دي بواريموند وأرنست ماخ بوترو ينتمي إلى بيت الفلاسفة. لقد كان مشغولا جدا بعلوم عصره. يمكن أن يعد أحد آباء التقريب بين الفلسفة والعلوم الذي في القرن العشرين كان يجب أن يدشن في شكل خاص من الإيستيمولوجيا التاريخية. في أطروحته المعنونة *de la contingence des lois de la nature* (1874) نجد كل الموضوعات المناسبة لنقاشنا.

³² محمد وقيدي، ما هي الإيستيمولوجيا، مرجع سابق.

بالنسبة لبوترو، الاحتمال هو الكلمة المفتاح التي معها حاول أن يفتح ثغرة في الحتمية الخاصة بالميكانيك الكلاسيكية. حسبه، فإننا لا نحصل على تفسيرات حول العالم إلا بواسطة علوم تجريبية تقارب موضوعاتها بواسطة التجربة. كل تحقق تجريبي يؤول في النهاية، إلى التشديد على قيمة العنصر المقاس للظواهر بين حدود متقاربة قدر الإمكان، ومع ذلك لا نصل أبدا إلى بلوغ النقطة المحددة حيث تبدأ الظاهرة وتنتهي واقعا. بين الإثنين، يوجد فضاء للاحتمية، تجهله الحتمية. لسنا مع ذلك أهلا لكي نقوم بهذه الخطوة. في قلب العلم الدقيق ذاته، يوجد فضاء للاحتمية.

بوترو في دراسته الكبيرة الثانية المنصبة على مفهوم القانون الطبيعي، يعتقد أنه سيكون من غير الدقيق القول أن الميكانيك لها وحدها كل علم الواقع. ذلك أنه في الحالة الراهنة لمعارفنا، العلم ليس واحدا، ولكنه متعدد. العلم مدركا كحاضن لكل العلوم ليس سوى تجريد.

الاحتمال لا يعين فقط فضاء لعب للاحتمية، إنه يطبع أيضا شرط إمكانية للتطوير وللتاريخ. هذا يصدق أيضا على هذا النشاط الإنساني الذي هو التعبير عن خصوصيته، يعني النشاط العلمي والتطور التاريخي. بهذا البحث نفسه يصبح في النهاية التعبير الأرفع عن مبدأ الاحتمال.

مشكل الموضوعية يتحول في النهاية إلى واجب تاريخي. فليس أي جوهر لشيء ما يجب أن يستحق انتباهنا العظيم، ولكن قبل كل شيء تاريخ هذا الشيء وهذا أيضا صادق بشكل خاص بالنسبة للبحث العلمي باعتباره عملية دائمة من التصحيحات المحتملة. بوترو مع ذلك لا يذهب إلى حد احتواء الفلسفة ذاتها أيضا، باعتبارها تفكيراً حول العلم، حول هذه العملية. في نهاية المطاف، إنها تبقى مجردة باعتبارها فلسفة للعلوم.

يميز بوترو في نتيجة النشاط العلمي بين نوعين من القوانين: القوانين التي لها صلة بالرياضيات وتقتضي بناء قويا للمفاهيم، والأخرى التي هي مجاورة للاستقراء الخالص والبسيط.

4- العلم يتحرك: كارل بوبر:

دخل كارل بوبر في نهاية العشرينيات من القرن الماضي في حوار نقدي مع ممثلي دائرة فيينا وتحديدًا مورتزسليك، ديولفكارناب، أوتونورات وهيلبرت فيجل، عن هذا الحوار نتج الكتاب الأول المهم لبوبر: منطق الكشف العلمي (1935) اختار بوبر أن يكون شعاره لهذا الكتاب استشهاد المؤرخ لورد أكتون: " لا شيء أكثر ضرورة للإنسان من العلم من تاريخ العلم ومنطق كشفه ". منذ البداية يعرف بوبر منطق المعرفة كمنطق

للبحث. موضوعه يتكون بواسطة مناهج البحث ودينامية العلوم التجريبية، دينامية تولدها هذه المناهج. لقد لاحظ بوبر أنه حسب خطأ شائع جدا، منهج الكشف العلمي اعتبر استقرائيا أساسا. ولكن الاستقراء يطرح صعوبات كثيرة، ولهذا فقط طرح نظريته عن المنهج الاستنباطي المراقب. الأمر يتعلق عنده بتمييز العلم التجريبي بطريقة مناسبة. بالنسبة لبوبر التجربة في معنى الإحساس والإدراك هي أسلوب للذات العارفة. نفس المعاينة تنطبق على نزوة وقدرة التخيل الضروري لبناء فرضية. بالنسبة لبوبر كل فاعليات الذات العارفة هذه يرجع إلى ميدان علم النفس المعرفة، ويجب إبعاده بصرامة من ميدان منطق المعرفة. هذه الأخيرة تعرف حصريا كمنطق للبحث أو الكشف العلمي.

بوهر لا يرفض مفهوم التجربة، من أجل أن يبلغ هدفه فإنه يعرفها بطريقة جديدة كلياً. التجربة تصبح بالنسبة له مفهوماً إبستيمولوجياً خاصاً، منهجاً متميزاً، تقوم على عملية منظمة من الاختبارات. هذا المنهج هو عملية التزييف. في هذا السياق يصرح بوبر بعبارته المشهورة: "إن نسقا يشكل جزء من العلم التجريبي ينبغي أن يرفض بالتجربة". يلتقي بوبر مع باشلار في النقطة المتعلقة بالتزييف. باشلار أكد أن المعرفة في ميدان العلم هي تصحيح تاريخي لخطأ قديم. وأن التجربة هي التصحيح التاريخي للوهم المشترك الأولي. باشلار مع ذلك لم يعط لمفهومه عن التصحيح البنية الشكلية لتزييف بوبري. فكرته عن التصحيح لا تتطابق لا مع تحقيق استقرائي ولا مع تزييف استنباطي. إنها تقصد بالأحرى تحليل القوى التي تواجه التجربة وتوجهها الدائم. بشكل متأخر وضع بوبر منطقة للكشف أو الكشف العلمي ضمن منظور تطوري، بإعطائه خاصية ميكانيكية لتقدم المعرفة يستلهمها من بيولوجيا التطور. المشكل المركزي للإبستيمولوجيا كان دائما وسيظل هو مشكل نمو المعرفة. والطريقة الممتازة لدراسة هذه الأخيرة هي دراسة نمو المعرفة العلمية. نظرية المعرفة هي إذن في النهاية نظرية للتقدم والمعرفة. منطق الكشف العلمي البوبري يقوم على الإلغاء والانتخاب، بكلمة على بيولوجيا الكشف.

5- ألكسندر كويري: فهم تاريخ العلوم بواسطة تاريخ الأفكار:

ألكسندر كويري Alexander Koyré درس الرياضيات والفلسفة أولا بغوتنغن مع آخرين أمثال دفيد هيلبرت وادموند هوسرل. تحت تأثير إميل مايرسون تحول نحو تاريخ العلوم.

دراساته التحليلية سنة 1939 المطبوعة بباريس تقدم تحليلاً جديداً كلياً لفترة جليلي-نهاية القرن 16 وبداية القرن 17 - التي وضعها بأنها مرحلة ثورة علمية. رحل كويري إلى الولايات المتحدة حيث سيؤثر في جيل

كامل من مؤرخي العلوم من بينهم طوماس كونوبارنار كوهين. في الولايات المتحدة كتب " من عالم مغلق إلى كون مفتوح " (1957).

ضمن تركيب واسع من التاريخ ومن فلسفة العلوم – الذي يتبنى أساسا منظورا لتاريخ الأفكار- كويري حاول توضيح ما أسماه: الترسيمات البنيوية للتصور القديم والحديث للعالم. إنه لا يطابقهما. لا يتحول من علم للتأمل إلى علم للتدخل، ولا – كما يفعل هيدجر- إلى إدخال التقنية والآلات، ولا أيضا إلى المرور من رؤية إلى العام تقوم على الشيولوجيا إلى رؤية للعالم آلية، ولا أخيرا بناء التعالي بواسطة الملازمة. بالنسبة لكويري كان بالأحرى التحول الجذري لرؤية العالم هو الذي يكون جوهر هذه التحولات: هدم كون مغلق موروث عن التقدم والهندسة المرافقة التي تعني فتح فضاء في اتجاه كون إمتداده غير متناه.

هذه الطريقة في مقارنة تاريخ العلوم تقوم على تاريخ للأفكار، تهتم قبل كل شيء بتصورات العالم وبالمسلّمات الأساسية التي ارتبطت به. مميزة لسنوات الخمسينيات والستينيات، هذه المقاربة كانت إلى حد ما ضد تجريبية. كويري كان يعتقد أن العمل العلمي هو قبل كل شيء عمل نظري.

6-طوماس كون: ثورة هيستوريوغرافية لتاريخ العلم:

طوماس كون Thomas Kuhn يمثل أحد مؤرخي العلوم من جيل مل بعد الحرب الذين أعادوا بقوة وطوروا فكرة قطعة في الفكر العلمي لكويري. كون كان قد درس الفيزياء بجامعة هارفارد قبل أن يتحول نحو تاريخ الفيزياء. الفصل الأول من كتابه " بنية الثورات العلمية " 1962 الذي كان صاحب التأثير الكبير من بين كل كتبه يبدأ بملاحظة وتحد. حسب كون إذا لم تتحدد بتكرار الطرقات وتغيير الكرونولوجياتاستويوغرافياالعلوم يمكن أن تغير الصورة النمطية الحالية للعلوم. إلى غاية الحاضر، حسية، هذه الصورة قامت على وصف النجاحات العلمية المبنية كما نجدها في الكتب. بالنسبة لكون مثل هذه الصورة كانت خاطئة أساسا. لقد أرجع مسؤولية الصور التقليدية للعلوم قبل كل شيء إلى الوصف الذي قامت به الكتب: العمليون الممارسون بما في ذلك الذين يكتبون الكتب، لا يأخذون عموما الوقت للتفكير في تاريخ مهنتهم، وباجتماعيتهم الأكاديمية كما بتجربتهم للكتابة، لم يكونوا على كل حال عموما في وضع يسمح لهم بفعل ذلك.

هذه الدائرة هي التي نذر كون نفسه كمهمة لتحطيمها وبهذا المعنى يمكن أن يقارن بفليك الذي كانت له حجة مماثلة عن صورتنا التقليدية للعلوم. الرافعة المنهجية التي يجب أن توضع في مكانها من أجل فتح الدائرة هي

التوقف عن اعتبار أن العلم يتطور في شكل تراكم إلى حد ما مستمد من النتائج. العلم لا يتطور بتراكم الاكتشافات والاختراعات الفردية.

يمكن القول مع كون وضد بوبر أن العلم ليس بالتحديد تتابعا مستمرا من التزييفات، حتى ولو كانت هذه الأخيرة تعني فرضيات حذرة لا تتابع بالضرورة. حسب كون، إلى غاية الآن، الأسئلة السيئة هي التي طرحت. إن ثورة كانت ضرورية بنفس الطريقة التي طرحت بها فرضيات منهجية أساسية لتاريخ العلوم. النتيجة لكل هذه الشكوك والصعوبات هي ثورة هيستوريوغرافية في دراسة العلم، رغم أن هذه الثورة لا زالت في بدايتها. من بين المؤرخين للعلوم الذين حضرت أعمالهم لهذا النوع من الثورة داخل الهيستوريوغرافيا وإمكانية صورة جديدة للعلم، الذين يذكرهم كون في المحل الأول نجد ألكسندر كويري.

بنية الثورات العلمية ترسم الخطوط الكبرى لهذه الهيستوريوغرافيا الجديدة.

ما هي الثورات العلمية، وما هي وظيفتها في التطور العلمي ؟

الثورات العلمية تؤلف سلسلة الأحداث النظرية اللاتراكمية التي يحل فيها، كليا أو جزئيا، برادجم جديد محل برادجم أقدم منه، ولا يكون متسقا معه. إن تغيير برادجم يعد ثورة.³³

الثورة العلمية شبيهة بالثورة السياسية، فهذه الأخيرة تبدأ بتزايد شعور الناس، الذي يكون غالبا محصورا في قسم من المجتمع السياسي، بأن المؤسسات القائمة توقفت عن الحل الكافي لمشكلات بيئية كانت قد أوجدتها جزئيا وبطريقة مماثلة تكون الثورات العلمية التي تبدأ بنشوء شعور متزايد، يكون وهو غالبا وما يكون مقتصر على فئة ضيقة من المتحد العلمي، بأن مؤسسات قائمة توقفت عن العمل بما فيه الكفاية في الكشف عن ناحية من نواحي الطبيعة سبق لذلك البرادجم ذاته أن أدى إليها. وفي كلا التطور السياسي والعلمي كان الشعور يتعطل العمل المؤدي إلى أزمة شرطا ضروريا لظهور ثورة. الثورات العلمية لا تبدو ثورية إلا عند أولئك الذين تأثرت براديجماتهم، فيمكن أن تبدو وكأنها مراحل عادية في العملية التطورية. فقد يقبل الفلكيون على سبيل المثال، الأشعة السينية كمجرد إضافة إلى المعرفة، وذلك لأن براديجماتهم لم تتأثر بوجود الإشعاع الجديد ولكن بالنسبة لعلماء مثل كلفن، وكروكسوروتغنغ الذين بحثوا في نظرية الإشعاع أو في أنابيب الأشعة المهبطية فإن ظهور الأشعة

³³ توماس س. كون، بنية الثورات العلمية، تر: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007.

السينية قد كان بالضرورة خروجاً عن براديجمخلق لبراديجم آخر. وذلك هو السبب في أن تلك الأشعة لم تكشف إلا عبر حدوث خطب ما في البحث العادي.

والبراديجم هو جملة منظومة المعتقدات، والقيم والتقنيات وما شابه، التي يشترك فيها أعضاء متحد مفترض. ومن جهة أخرى يدل على نوع واحد من عناصر تلك المنظومة، وهو الحلول المادية للأحجيات التي تقدر، إذا ما وظفت كبراديجمات أو أمثلة، أن تحل محل القواعد الواضحة كأساس لحل أحجيات العلم العادي الباقية وتاريخ العلم هو عبارة عن براديجمات متعاقبة يختلف واحدها عن الآخر اختلافا نوعيا إلى الحد الذي لا يمكن مقارنتها. وليس العلم كما خاله آخرون من مؤرخي العلوم وفلسفتها عملية تراكمية ممتدة لا يعترتها الانقطاع.

7- النموذج التطوري للتغير المفهومي لستيفان تولمان: في أعماله المتعلقة بفلسفة العلوم، ستيفان تولمان Stephen Toulman انشغل بالنموذج التطوري لتطور العلوم. تولمان درس الرياضيات، والفيزياء والفلسفة بكمبريدج حيث حضر دوكتوراه، وكان تحت تأثير فيتشجتاين في كتابه " تحقيق عن أهداف العلم ". تولمان مثل توماس كون يرجع النظرية البيولوجية بشكل صريح. في تفكيره حول مجرى العلوم، يؤكد تولمان واقعة أن العقلانية العلمية لا يمكن أن تفهم حسب نموذج حجة شكلية، أو بالمماثلة مع تخطيطية منطقية مركزية. إنه يبحث عن نماذج يمكن أن تساعد في إيجاد بديل. العلم ليس آلة حساب فكرية، إنه قسم من الحياة. كما أن كل محاولات التعريف تقوم على معيار ما، المحاولات من أجل محاكمة النظريات العلمية بواسطة قدرتها على التخمين بطريقة تبني معيارا للتقدم العلم بدت لتولمان غير كافية، ولا تلامس سوى سطح الأشياء. النماذج العقلية للاتصال لفترة ما، والتغيرات الطويلة الأمد في الأفكار على نظام طبيعي العاملة في البحث العلمي تشكل اتصالا أكثر تعقيدا، والتي في نهاية المطاف، لا تجعل الفهم ممكنا إلا بتحليل تاريخي واسع في نفس الوقت لبنيته وديناميته.

تولمان يرى العلم كمجموعة من الأفكار والتقنيات، حيث المكونات والأهداف تختلف باستمرار في داخل بنية فكرية واجتماعية متحركة.

فلسفة تاريخية للعلوم لا يجب أن تكون معيارية ولا حاضرة. العمل الذي ينتظره مؤرخ وفيلسوف العلوم، إذا أراد أن يكونا فعالين وواقعيين يجد بالنسبة لتومان مقابلة في البيولوجيا الداروينية. مع ذلك هذه المقابلة لا يجب أن تختزل في مبدأ مجرد من التنوع والانتخاب، يجب بالأحرى أن تعتبر ضمن منظور أيكولوجيا تاريخية معقدة³⁴.

8-لودفيك فليك وتكون الواقعية العلمية:

متخصص في المناعة صاغ لودفيك فليك LudwickFleck تفكيره المبتكر في نهاية سنوات العشرينيات وبداية الثلاثينيات، كتابه الأكثر أهمية: " تكون وتطور الواقعية العلمية" (1935). بعد الحرب العالمية الثانية واصل فليك أعماله في المناعة بأكاديمية العلوم ببولونيا. بعد خمسين سنة فقط أن حظيت كتبه باستقبال واسع.

فليك صاغ العناصر الأساسية لمفهوم العلم في مقال بعنوان: Au Suget de la crise de la réalité طبع في عام 1930 في دورية ألمانية، هذا المقال عالج ما أسماه كيرت ريزلر، حسب منظورين ما رآه على أنه أزمة من جهة حسية التطور العلمي الراهن أدى إلى تخفيف مفهوم القانون الطبيعي إلى كمية ثابتة، ومن جهة أخرى كان قد صار واضحا أن العلوم الفردية، بدلا من التقدم نحو علم موحد، كانت تتجه نحو الشعب.

فليك أخذ الكلمة المفتاحية " أزمة " من أجل الدفاع عن نظرية في المعرفة متحولة أساسا. المتغيرات المنطقية الخالصة لهذه النظرية حسبته تكشف عن لا محدوديتها. هكذا يبدأ مقاله بالطريقة التالية: " إذا كنا ندرس مصادر المعرفة، فإننا نرتكب غالبا خطأ تقديمها بطريقة سهلة جدا " ³⁵ فليك ميز ثلاثة عوامل أو بدقة أكبر ثلاثة أنظمة من العوامل التي تكون ما أسماه " فيزيولوجيا المعرفة ". ثقل التقليد، وزن التربية، وأثر الإندراج ضمن نظام تعاقبي للفعل المعرفي. بالنظر إلى هذه الأنظمة الثلاثة من العوامل عن قرب تكشف أنها تشعب نحو نقطة واحدة، حسب ما يصوغه فليك ف " هذه الأنظمة هي لحظات اجتماعية، وهذا هو السبب في أن كل نظرية في المعرفة يجب أن تدخل في علاقة مع الاجتماعي، وعبر هذا الأخير، مع التاريخ الثقافي، بطريقة لا تصل فيها إلى تناقضات صريحة مع تاريخ المعرفة والتجربة اليومية لمن يدرسون ولمن يتعلمون ". من هنا، حسب فليك، ينتج أنه من غير المستحيل بناء نظرية للمعرفة تقوم على الفرد، بمعنى كعمل فردي لإنسان رمزي. ولكن بالأحرى ينبغي منذ البداية، إدراكها كبنية اجتماعية وثقافية فوق فردية. لا يمكن أن تختزل إلا علاقة أولية ذات/موضوع. " مهما يكن

³⁴Hans-Jorg Rheinberger , Introduction à la philosophie des sciences , La découverte , Paris .

³⁵Ibid .

المكان واللحظة اللتين تبدأ منهما، نحن دائما في الوسط تماما " في المقطع الذي تم ذكره فليك أشار إلى مصدرين إنطلاقا منهما يكون من الممكن العمل من أجل بناء نظرية جديدة للمعرفة. أحدهما هو تاريخ المعرفة، والآخر هو التجربة اليومية للباحث والمدرس.

مثل باشلار، فليك عمل أيضا بواسطة الصدمات الإبيستيمولوجية التي ولدتها الفيزياء الكوانتية، بشكل خاص بواسطة سؤال التفاعل بين الملاحظ وما يلاحظه .

مفهوما أسلوب التفكير والفكر الجمعي، يكونان نقاطا مرجعية مركزية في أعمال فليك المنصبة على نظرية المعرفة. هذان المفهومان يستحقان أن يفحصا بقليل من العناية. إنهما مرتبطان فيما بينهما ويقومان على اليقين الذي لدى فليك وهو أن العلم لا ينتج عن أفعال فردية ولكنه عملية تؤديها جماعات. في كتابه: " تكون وتطور واقعة علمية ". فليك ميز أسلوب الفكر كمفهوم يوصل إلى أن جميع الطرق تقود إلى نظرية المعرفة تكون وصفية ومثمرة. أسلوب الفكر لا يجب أن يعتبر كنسق منطقي، العنصر الأساس هو إمتلاكه لإدراك موجه. بهذا، يتميز فليك عما يعتبره كخطأ أساسي لنظريات المعرفة الوضعية والمنطقية - من مآخ إلى كارتاب. بمعنى قبول وجود ملاحظة غير مشروطة. الواقعة العلمية ليست نقطة إنطلاق للملاحظة، ولكن نتيجة تكون عادة في الإدراك.

أسلوب الفكر، الذي يلخص كمية الرؤية لجماعة من العلميين ليس مع ذلك ببساطة تكوين إتفاق ما. إنه يقوم على أسس مادية.

فليك يعرف مجمع الفكر بطريقة مكتملة لأسلوب الفكر. ويقدمه على أنه جماعة الأشخاص الذين يتبادلون الأفكار أو الذين يتفاعلون فكريا، والذي يعمل كاتجاه للتطور التاريخي لميدان من الفكر، لحالة من المعرفة محددة ولحالة من الثقافة، بمعنى لأسلوب فكر خاص. بالنسبة لفليك، الفعل المعرفي هو علاقة ثلاثية: علاقة الفرد بصدد بناء معرفة، الموضوع الذي يجب معرفته، وحالة المعرفة أو خزان من المعارف. بالنسبة لفليك، الفعل المعرفي باعتباره عملية اجتماعية يقوم على خلق وترابط مثل تلك الحالات من المعرفة. شكل المعرفة هو في الوقت نفسه شكل من الثقافة. هكذا يرى فليك في المعرفة العلمية، النشاط الإنساني المشروط أكثر بالاجتماعي. بالنسبة له المعرفة في الحقيقة قلق اجتماعي. بالنسبة لفليك مركز الكاتب لا يبحث عنه في الباحث الفردي، ولكن في الجمعي، أي في العمل الجمعي.³⁶

³⁶Ibid .

9-برونشفيك والمثالية النقدية:

اهتم برونشفيك بالعلم في علاقته بالفلسفة وقدم نظرية جديدة في نقد العلم.

إذا كان فلاسفة العلم السابقون يركزون على الواقع التجريبي في الحكم على صدق النظريات العلمية، ويعتمدون على التجربة، والتجربة فقط، نجد برونشفيك ومعه باشار يتجاوزان الفكر التجريبي لينتقلا منه إلى الجانب العقلي الرياضي في الحكم على صدق هذه النظريات وهما يؤكدان بذلك على قصور الفكر التجريبي في هذا المجال منطلقين من مبدأ مؤداه أن الفكر النظري العقلي يجب أن يأخذ وضعه جنبا إلى جنب مع الفكر التجريبي. ومن هنا يمكن إطلاق على فلسفة باشار اسم العقلانية العلمية نظرا لاحتوائها وتأكيداتها للجانب العقلي التجريبي في العلم كما يمكن إطلاق على فلسفة برانشفيك اسم المثالية النقدية لأنها مثالية مبنية على إبستيمولوجيا علمية. إن إبستيمولوجيا برونشفيك تعطي أهمية كبيرة لدور الرياضيات في الفكر العلمي، فمن حيث هي علم تساهم في الاكتشاف العلمي، وهناك في نظره تعارض بين الفكر العلمي المعاصر الذي يعتمد على الرياضيات وبين الفلسفة الواقعية التي تنطلق من الشيء في ذاته. إن الفارق بين ما تريده الفلسفة الواقعية وبين ما تريده الرياضيات هو أن الفيلسوف الواقعي يفكر انطلاقا من الجوهر. والعلم المعاصر يفكر انطلاقا من العلاقة. وبما أن الرياضيات علم يعبر عن العلاقة فإنها تأتي من حيث الأهمية بعد التجريب.

وقد كثرت المصطلحات التي أطلقت على مثالية برونشفيك: فهناك من ينعتها بالمثالية النقدية نظرا لأنها: أولا تفسح المجال واسعا لحجج الطبيعيات والرياضيات. وثانيا لأنها مثالية تكمل كانط وهي جلو تستمد أصلا من كانط. وثالثا لأنها مثالية نقدية مبنية على إبستيمولوجيا استطاعت أن ترتقي إلى مستوى العلوم التي نستعملها. وهناك من يطلقون عليها مثالية عقلية.

ويذهب السيد شعبان حسن إلى إطلاق تسمية المثالية العلمية على مثالية برونشفيك لأنها مثالية جديدة، مثالية وضعية تجريبية تلتمس في تاريخ الفكر الإنساني الطابع العقلي المطلق. (ومن هنا مثالياتها)، ومن ناحية أخرى هي عقلانية علمية لأنها تقوم على أساس من دراسة العلم وعلوم الرياضيات بصفة خاصة (ومن هنا علميتها).³⁷

³⁷ السيد شعبان حسن، برونشفيك وباشار بين الفلسفة والعلم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1993.

وفضل برونشفيك الرئيس أنه سعى لتجاوز الوضعية التجريبية من ناحية، والنزعة العقلية الميتافيزيقية بالمعنى الذي قصده هيجل، من ناحية أخرى، وإن كان كانط هو المصدر الأساس لمثاليته النقدية. ولكن السمة المميزة لمثالية برونشفيك التي تميزها عن سائر المثاليات الأخرى هي أنها صدرت عن حدس فلسفي تركز حول العلم والفلسفة على السواء. وإبستمولوجية برونشفيك نقدية، ففي كتابه "مراحل الفلسفة الرياضية" يوضح أنه سعى نحو تجاوز المذهب التجريبي من ناحية أخرى. ففي رأيه ليس ثمة بنية منطقية خالصة ولا بنية حسية خالصة، ويسمى كلاهما أصناما ينبغي تحطيمها. وقيم حقيقة المعرفة على أساس التجربة والعقل ويجعلهما في حالة تكيف معا.

10- باشلار والإبستمولوجيا التاريخية أو العقلانية المطبقة:

يقدم باشلار على أنه الممثل الكبير والمركزي لفلسفة العلوم في فرنسا، ولكن أيضا كوجه افتتاحي ومؤسس للإبستمولوجيا التاريخية سواء بسبب فائدته الثابتة بالنسبة للتاريخ الفعلي للعلوم، وبارادته العنيدة لتحليل الرهانات الإبستمية والفلسفية للثورات العلمية المعاصرة، أو أيضا لعمله الصبور لإعادة بناء مراحل تطور النظريات والمفاهيم والمناهج العلمية المتصلة بالقرن 19 و20.

إن الإبستمولوجيا الباشلارية تستلهم تاريخ العلوم الفعلي، يقول باشلار: "إذا طرحنا الآن مشكلة الجدة العلمية على المستوى النفسي بالمعنى الأدق، وجدنا أنه ليس في وسعنا إلا أن نرى كيف ينبغي أن يرتكس هذا الطابع الثوري في العلم المعاصر على بنية الفكر ارتكاسا عميقا. إن للفكر بنية متحولة منذ كان للمعرفة تاريخ. والواقع أن التاريخ الإنساني قد يكون بدءا سرمديا من حيث أهواؤه وأحكامه المبيتة وكل ما ينم عن اندفاعاته المباشرة: ولكن ثمة أفكار لا تعارض، إنها الأفكار التي صممت ووسعت وأكملت. إنها لا ترجع إلى رقعتها الضيقة أو المتأرجحة. بيد أن الفكر العلمي، بالدرجة الأولى، هو تصحيح معرفة، توسيع أطر المعرفة. إنه يحكم على ماضيه التاريخي بإدائه، وأن بنيته هي الوعي بأخطائه التاريخية. ثم إن العلماء يفكرون في الحقيقي، من الناحية العلمية، على أنه تصحيح تاريخي لخطأ طويل. ويفكرون في التجربة على أنها تصحيح وهم مشترك أولي. وأن حياة العلم الفكرية بأسرها تستند من الوجهة الجدلية إلى هذا الحساب التفاضلي للمعرفة. وتقوم في تخوم المجهول. وأن قوام الفكر ذاته أن يفهم المرء أنه لم يفهم. وما الأفكار (اللايكونية)، و(اللاأوقليدية)، و(اللاديكارية) سوى خلاصة هذه الأفانين من الجدل التاريخي التي تمثل في تصحيح خطأ، في توسيع شمول منظومة، في إتمام فكرة".³⁸

³⁸ باشلار، الفكر العلمي الجديد، تر: عادل العوا، موفم للنشر، الجزائر، 1990.

هكذا فإن الإبيستيمولوجيا التاريخية هي تصحيح لأخطاء ماضية وتجاوز للمعرفة العامة. يمكن أن نلاحظ ثلاثة أساليب أو ثلاثة أنواع من فلسفة العلوم، التي تعطي المكان لثلاثة أنماط من العلاقة الممكنة بين العلم والفلسفة.

(أ) - **الفلسفة الشكلية للعلوم:** وهي المهيمنة في العالم الثقافي الأنجلوساكسوني، تتميز أساسا بطبيعتها التحليلية والشكلية، بسبب الأولوية الممنوحة للتحليل المنطقي-اللساني للاستدلال وللمنهج فيما يتعلق بالمعرفة، وللتقاش حول صلاحية معايير التبرير العقلاني للنظريات والحجج العلمية، أو أيضا لتحليل اللغة المثالية للعلوم. في هذه المقاربة، التي تمنح أهمية كبرى لمسألة التبرير وأساس المعرفة سواء كانت ذات طبيعة علمية أو متأنية من الحس المشترك، وكذلك لتحديد بين العلم والميتافيزيقا أو بين العلم واللاعلم. يمكن أن نصنف في هذه المقاربة كتابا أمثال برتراند راسل، رودولف كارناب، أوتونورا، هانز رايشنيخ أو أيضا كارل بوبر.

(ب) - **فلسفة الطبيعة:** الأنثروبولوجيا الفلسفية تتميز أساسا بالانطلاق من معطيات مبنية ومبررة بواسطة العلوم الخاصة من أجل بناء فيما بعد، باتباع إجراء للتعميم ومسعى تأملي واضح، مفهوم كلي عن الكون، في اتفاق مع النماذج ومبادئ المنهج العلمي. ما يترجم في الغالب ببناء كوسمولوجيا، وتصور للعلم، والحياة، ومكان الإنسان في الكون، أو أيضا ظهور الفكر داخل الواقع المادي. من بين الكتاب المصنفين ضمن هذا الفرع من فلسفة العلوم نجد وايتهد.

(ت) - **الإبيستيمولوجيا التاريخية:** تاريخ وفلسفة العلوم المهيمنة في الثقافة والتقليد الفلسفي المسمى القارية. هذه الفلسفة تتحدد باهتمام مركزي بمشكل العلاقة بين الحقيقة العلمية وتاريخ العلوم، وللعمل الفعلي والممارسات الواقعية للعلماء، وكذلك الاهتمام بسؤال تقدم العلوم الموضوعية، وتاريخ الاكتشافات العلمية، بناء النظريات، تأسيس الوقائع الإبيستيمية أو أيضا الأهمية الاجتماعية للمعرفة العلمية. الفلاسفة الذين يصنفون ضمن هذا التيار نجد: أغست كونت، أوغستانكورنو، غاستونباشلار، ألكسندر كوبري، جورج كانغيلام، فرانسوا داغوني، وإيان هايكنغ.³⁹

إلى جانب التسمية السابقة هناك تسمية أخرى تطلق على فلسفة باشلار وهي العقلانية المطبقة، ويعنون باشلار بهذه التسمية أحد كتبه الأساسية، وثمة أوصاف أخرى يصف بها باشلار فلسفته من قبل أنها عقلانية

³⁹Julien Lamcy , L'épistémologie au risque de l'histoire: une lecture de Bachelard , <https://hal.archives-ouvertes.fr/>, 2018.

علمية أو عقلانية منفتحة، أو وسمها بأنها عقلانية جدلية، كما يميز باشلار فلسفته عن الفلسفات العقلانية الأخرى بأنها إبستمولوجيا لا ديكارتية، كما يميزها عن الفلسفات الواقعية والتجريبية والمادية الساذجة حين يدعوها بالمادية العقلانية.

إن هذه النعوت لا تشير في الواقع، إلا لموقف واحد هو هذا الذي سعى باشلار إلى بنائه لكي يجعل منه الفلسفة التي يستحقها العلم المعاصر. فالتناقض الذي لاحظته باشلار هو هذا الذي يوجد بين معرفة علمية عرفت ثورات معرفية متعددة أعادت النظر في كثير من مفاهيمها الأساسية، وبين فلسفات تفكر في المعرفة العلمية انطلاقاً من المفاهيم التقليدية، وهو ما جعل هذه الفلسفات جميعها عاجزة عن أن تمنح العلم المعاصر، منظوراً إليه من جهة الثورات المعرفية التي تحققت به، الفلسفة التي يستحقها. وضداً على هذه الفلسفات فإن باشلار كان يهدف إلى إقامة فلسفة مطابقة من حيث الخطاب الذي يصدر عنها لواقع العلم المعاصر. هذه الفلسفة هي ما يدعوها باشلار بالعقلانية المطبقة.

إن موقف باشلار الفلسفي هو موقف عقلائي بصفة أساسية، إنه يريد بناء فلسفة ذات محورين عقلائي وواقعي في الوقت ذاته، ولكنه يعلن في نفس الوقت أنه فلسفته عقلانية بصفة أساسية. لقد سعت فلسفة باشلار إلى أن تكون مطابقة للعلم المعاصر. وإحدى المميزات التي يتميز بها الفكر العلمي المعاصر. هذه المزاوجة التي يجمع بفضلها بين العمل التجريبي المستند إلى دقة الآلة والبرنامج العقلائي المعتمد على دقة العلوم الرياضية. فلم تعد العلوم الرياضية مجرد أداة لعلم جاهز قبلها، بل أصبحت الرياضيات تساهم في الاكتشاف العلمي ذاته إلى حد أن الفيزياء السائدة في عصرنا هي الفيزياء الرياضية يقول باشلار: " إن ما قد يفسح المجال للاعتقاد بأن الفكر العلمي يظل في الواقع هو عبر أعماق التصحيحات التي يحققها، إنما يرجع إلى أن الباحثين لا يقدرّون دور الرياضيات في الفكر العلمي حق قدره. فقد كرروا بلا كلل أن الرياضيات لغة، ووسيلة تعبير بسيطة، وألفوا اعتبارها أداة يتصرف بها عقل واع لذاته، عقل سيد على الأفكار المحضة المتخلية بوضوح سابق للرياضيات، وقد كان في غابر الفكر العلمي وأصله، عندما كانت الصور الحدسية الأولى قوة إيماء تعين على تشكل النظرية. مثال ذلك إذا قبلنا أن فكرة الجاذبية فكرة بسيطة واضحة، أمكن القول أن التعابير الرياضية عن قوانين الجاذبية إنما تدقق الأحوال الخاصة وترتبط بعض النتائج، كقانون المساحات، ولهذه النتائج أيضاً معنى واضح مباشر في الحدس الأول: ولكن الفكر العلمي يغدو، بنوع ما، أكثر انسجاماً في المذاهب الجديدة التي تبتعد عن الصور الساذجة.

فقد صار بعد اليوم كله حاضرا في جهده الرياضي وبتعبير أفضل، عدا الجهد الرياضي هو الذي يؤلف محور الاكتشاف، وهو وحده يتيح لنا أن نفكر في الظاهرة".⁴⁰

إن الفلسفة العقلانية لدى باشلار هي فلسفة مطبقة. وأول ما يميز هذه العقلانية المطبقة هو أنها سعت إلى أن تكون فلسفة تعرب عن النتائج العلمية، دون أن تكون صادرة على رأي فلسفي جاهز. إن الإستيمولوجيا، وهي المجال المعرفي الذي يجعل من مشكلات المعرفة العلمية موضوعا لتحليلاته، ليست بالنسبة لباشلار الانطلاق من موقف فلسفي جاهز قبل التعرف على النتائج المفصلة والجزئية للعلوم المختلفة، إن العقلانية المطبقة تريد أن تنطلق كنظرية، وهذا هدف لا يتحقق لها إلا إذا كانت فلسفة للعلوم تقدم في حينها بالنسبة للعمل العلمي لا قبل ذلك. وساعة فلسفة العلم لا تقوم، إلا حين الإنتهاء من إنجاز العمل العلمي. ذلك لأن مهمة فيلسوف العلم الأساسية هي إبراز القيم المعرفية للنظريات العلمية والاكتشافات العلمية الجديدة، وهذا أمر لا يتحقق إلا بالاطلاع على هذه القيم المعرفية كما هي في ذاتها، أي بالصورة التي تفرض بها ذاتها في سيورة تطور المعرفة العلمية. ومعنى هذا أن الفيلسوف العقلاني لا يسعى إلى أن يفرض على العلم قيما من خارجه.

ومما يميز العقلانية المطبقة الباشلارية أيضا، أنها تسعى إلى أن تنطبق. وهذا بخلاف العقلانيات المثالية السابقة التي كانت تنظر إلى الفكرة العقلانية بوصفها حقيقة مفارقة للواقع وتسمو عليه، مما جعلها تنظر إلى أي تطبيق للفكرة العقلانية كما لو كان مظهرها لفشل تلك الفكرة العقلانية أو لظهورها دون حقيقتها. إن الفكرة العقلانية في نظر الفلسفة العقلانية المطبقة تظل بدون قيمة خارج علاقتها الجدلية بالواقع. فهي تصدر عنه، ولكن لا قيمة لها أيضا إن لم تكن قابلة للانطباق عليه. إن السعي إلى التطبيق هو إحدى الخصائص الأساسية لعلم عصرنا.

ولكن إذا كانت العقلانية المطبقة تتميز عن العقلانيات المثالية بأخذها للفكرة من حيث هي برنامج عمل، فإن هذه العقلانية المطبقة تتميز في الوقت نفسه عن الفلسفات التجريبية من حيث إنها ترفض أن تنظر إلى الفكرة على أنها تلخيص للتجربة أو نسخة من الواقع. فبهذا الاعتبار لن تكون للفكرة العقلانية إلا قيمة سلبية، ولن نستطيع تفسير فعاليتها في العمل العلمي كما هو ملاحظ. إن العقلانية المطبقة عقلانية تؤمن بفعالية الفكرة من حيث هي أساس لتجارب، و" هذه العقلانية الفعالة تتعارض مع الفلسفة التجريبية التي تقدم الفكرة كما لو كانت تلخيصا للتجربة وذلك بالفصل بين التجربة وكل قبلات التهيء، كما أنها تتعارض أيضا مع الأفلاطونية

⁴⁰ غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديدة، مرجع سابق.

التي تعلمنا أن الأفكار تنحط عندما تطبق على الأشياء " .⁴¹ وهكذا فإن اعتبار الفكرة برنامجا للعمل يكون مميزا للعقلانية المطبقة عن العقلانية التقليدية التي نمذجها أفلاطون وعن الفلسفات التجريبية التي تجد تعبير واضحا عنها في فلسفة لوك وهيوم.

وتتميز العقلانية المطبقة أيضا، بكونها تخضع مبادئها للجدل. إن الفكرة العقلانية، هي برنامج للعمل. وهذا لا يعني أن هذا البرنامج للعمل يفرض ذاته على الواقع، بل إن علاقة الفكرة بالواقع جدلية. فهي توجه تجاربنا على الوقائع التي نلاحظها، غير أنها لا تكتسب قيمتها المعرفية الحقيقية إلا عندما تثبت تلك التجارب ذاتها صدقها. والعقلانية المطبقة، قادرة على أن تعيد النظر في مبادئها، وهكذا يكسبها خاصية جديدة هي التفتح. فالعقلانية الباشلارية متفتحة بالنسبة للعلم، من ناحية، وبالنسبة للأنساق الفلسفية من ناحية أخرى. مظهر تفتحها بالنسبة للعلم أنها تخضع مبادئها لجدل المعرفة العلمية. أما تفتحها بالنسبة للأنساق الفلسفية فمظهره أن الموقف العقلاني الجديد لا يرى داعيا للتردد في أن يأخذ من الفلسفات الأخرى بعض مفاهيمها ومقولاتها حين تكون هذه المقولات قادرة على أن تفهمنا اكتشافا علميا جديدا.

وثمة صفة أخرى تميز العقلانية المطبقة على أنها عقلانية جدلية. وهذه العقلانية تقول بالجدل في المعرفة العلمية على عدة مستويات.

فالجدل يعني أولا أن العقلانية المطبقة ليست أوتوماتيكية من استلهاها المنطق. إن الجدلية هي صفة الفلسفة التي تخضع مبادئها لسيروية التطور العلمي. والجدل من جهة أخرى، يعني عدة من أنواع التكامل القائمة داخل المعرفة العلمية، وفي العمل العلمي، ثم أخيرا في الفلسفة العقلانية التي تسعى إلى أن تكون مطابقة للحظة الراهنة من تطور المعرفة العلمية مع ما يميز هذه اللحظة من ثورات معرفية. وهكذا فإن هناك في تاريخ المعرفة العلمية جدلا مستمرا بين ما يدعوه باشلار بالعوائق الإبيستيمولوجية وهي ما يعبر به عن لحظات التوقف والتعطل في السيروية العلمية، وبين ما يدعوه، من جهة أخرى، بالقطيعات الإبيستيمولوجية وهي ما يعبر به عن لحظات الثورة المعرفية.

وهناك في العمل العلمي تكامل جدلي آخر بين التجريب الفيزيائي والعقلية الرياضية.

⁴¹G.Bacheland , La rationalisme appliqué , PUF , 1970 .

والميزة الأخيرة الأساسية للعقلانية المطبقة هي أنها ليست عقلانية واحدة مطلقة تنطبق في جميع ميادين المعرفة العلمية وفي كل مستويات المعرفة العلمية، بل إنها مجموعة من العقلانيات التي يخص كل منها مجالا من مجالات المعرفة. وبهذا الاعتبار فهي عقلانية جهوية.

واستنادا إلى العقلانية المطبقة تمت مراجعة كثير من المفاهيم كالعقل والواقع، والحقيقة والزمان ... فالحقيقة لم تعد مطلقة عند باشلار كما كانت تدعي ذلك الفلسفات التقليدية، بل أصبحت تقريبية. الحقيقة بهذا المعنى مرتبطة بتطور الفكر العلمي المنفتح باستمرار على نتائج جديدة. والقابل باستمرار وإعادة النظر في حقائقه. إن الحقيقة مرتبطة إذن بتطور وسائلنا ومناهجنا المعرفية، وهي لذلك حقيقة لها تاريخ.

وبالنسبة للزمان والمكان فإنهما إطاران قبيان ومفهومان مطلقان من منظور العقلانية المطبقة. والعقلانية المطبقة هي إستيمولوجيالاديكارية من حيث أن باشلار لا يقبل من فلسفة ديكرت فكرة يقين أول يكون من القوة بحيث يكون بمثابة نور للكشف عن يقينيات أخرى. كما أنه يعارض فكرة ديكرت القائلة بأن منهج البحث عن الحقيقة منهج واحد. مهما تعددت مستويات بحثنا، إذا رأينا أن العقلانية المطبقة تعني مجموعة من العقلانيات التي يخص كل منها ميدانا من ميادين المعرفة أو مستوى من مستوياتها. وهذا ما يعرف بالإستيمولوجيا الجهوية حيث تكون الجهة هنا هي علم من العلوم المعاصرة.⁴²

إن ما يميز فلسفة العلوم لدى باشلار هي الدعوة إلى موقف فلسفي جديد يأخذ بعين الاعتبار التطورات الحاصلة في الميادين العلمية، ولذلك فإن باشلار في فلسفته يصدر عن الثورة العلمية التي بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكان لها دور في إنتاج قيم ومفاهيم علمية فلسفية جديدة. ولذلك فإن فلسفة باشلار جاءت لاحتضان هذه القيم الجديدة من أجل بلورة فلسفة علمية مواكبة للتطورات والاكتشافات العلمية.

وقد نشأت فلسفة باشلار في إطار حوار سحالي مع نظريات ومواقف فلسفية استخدمت نتائج العلم من أجل تعزيز أنساق فلسفية بعينها.

ومن أمثلة التطورات العلمية ما حدث في الرياضيات من بروز هندسات لإقليدية والفيزياء، مع ظهور الفيزياء الكوانتية ونظرية النسبية.

⁴² محمد وقيدي، جرأة الموقف الفلسفي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998.

والتيارات الفلسفية التي حاورها باشلار وحاول تجاوزها تتمثل أولاً في الفلسفة الوضعية. التي تعتبر فلسفة قريبة من إبيستيمولوجيا باشلار لأنها واقعية. بمعنى أنها تقع في وسط بين المثالية والمادية وباشلار يرفض الوضعية، لأنها تؤدي إلى التجريبية. وهناك الاتجاهات الموضعات التي يقول إن التجربة ليست معياراً صادقاً للحكم بصدق نسق علمي أو صحة قانون علمي، وأن دور التجربة ينحصر على إرشادنا إلى النسق العلمي الأكثر ملاءمة.

وهذا الاتجاه يؤكد ثانياً على أن الأنساق والقوانين العلمية ما هي إلا مواضع.

ويشارك باشلار مع النزعة الموضعاتية في هذه النقطة وهي الاهتمام بمظهر الثورة العلمية المعاصرة في علم الهندسة أي بقيام الهندسات اللاإقليدية ولكن باشلار يختلف مع هذه النزعة من حيث أنها لم تستطع أن تفهم المعنى الحقيقي والدلالة الإبيستيمولوجية لقيام هذه الأنساق الهندسية الجديدة إلى جانب النسق الهندسي التقليدي. والموضعاتية تقود في نظر باشلار إلى المثالية. أما الاتجاهات العقلانية التي كانت تسود الفلسفة الفرنسية زمن باشلار فنجد ممثليها لدى برانشفيكومايرسون، وبرغسون.

فبرانشفيك يرى أن موضوع الفلسفة ليس هو الطبيعة بل الفكر ولذلك فهو يبحث في تاريخ العلوم وفي تاريخ الفلسفة عن المراحل التي تخطاها الفكر في فعاليته. وهنا يقترب برانشفيك من باشلار أي أن باشلار وبرانشفيك يلتقيان في المفهوم الدينامي للفكر ولكنهما يختلفان في كون برانشفيك يجعل مهمة الإبيستيمولوجيا هي البحث في تاريخ العلوم للتعرف على حقيقة الفكر بينما مهمتها لدى باشلار هي البحث عن أثر تطور المعارف على بنية الفكر.

أما فلسفة مايرسون فإنها تقدم ذاتها كفلسفة مناهضة للوضعية الكونتية. فهذه الأخيرة تتميز بالقصور من ناحيتين: الأولى قوله أن العلم الواقعي بخلاف التصور الوضعي له لا يقف عند حدوث البحث عن القوانين بل يطلب معرفة الشيء. والثانية تصريحه بأن هدف العلم لا ينحصر في التوقع بل يبحث فوق ذلك عن التفسير. ولكن باشلار يرفض موقف مايرسون ويبدو له مفهومه للشيء واقعة ساذجة لأن الميكروفيزياء بصفة خاصة تبين أن موضوع المعرفة العلمية ليس هو الشيء الجوهرية الذي كانت تقول به الفلسفات التقليدية. كما أن باشلار من جهة أخرى لا يقبل نظرة مايرسون للاستمرارية إلى تاريخ الفكر العلمي بصفة خاصة وإلى تاريخ الفكر بصفة عامة. فمايرسون يرى أن العقل الإنساني يظل هو ذاته عبر كل مراحل تاريخ الفكر. فالفكر العلمي استمرار للفكر العامي، والفكر العلمي المعاصر استمرار للفكر العلمي السابق له. وباشلار يرفض أن يكون الفكر العلمي استمراراً للفكر العامي من أوجه وأن يكون استمراراً للفكر العلمي القديم.

أما الاتجاه الفلسفي الثالث فيتمثل في فلسفة برغسون الروحانية. هذه الفلسفة تقيم تمييزاً بين المعرفة العلمية والمعرفة الميتافيزيقية من حيث الموضوع والمنهج. فمن حيث الموضوع المعرفة العلمية لا تبلغ إلا ما هو سببي في حين أنا الميتافيزيقا هي التي تصل إلى معرفة المطلق. ولذلك تكون المعرفة الميتافيزيقية هي العلم الوحيد الممكن من حيث أنها تبلغ معرفة المطلق. أما من حيث المنهج فالمعرفة علمية تكتفي بأن تحوم حول موضوعها بالنظر إليه من مختلف الجهات، في حين المعرفة الميتافيزيقية تنفذ إلى باطن موضوعها لتدرك ما هو جوهري فيه أي لتدرك حقيقته المطلقة. فالمعرفة العلمية تعتمد منهج التحليل والتركيب في حين أن المعرفة الميتافيزيقية تعتمد على الحدس. وهذا الاتجاه الروحاني يضع نفسه في تعارض مع المعرفة العلمية لأنه يجعل مهمة الفيلسوف حين التفكير فيها هي البحث عن حدودها. إن باشلار لا يقبل بالحدس كمنهج للمعرفة العلمية، لأنه باعترا فبرغسون نفسه لا يمكن التعبير عن المعرفة الحدسية باللغة الموضوعية. كما يرفض باشلار وضع حدود للمعرفة العلمية من خارج العلم نفسه.

المشروع الباشلاري:

المشروع الباشلاري يأتي كتجديد في الموقف الفلسفي لكي يستجيب للمرحلة الراهنة من تاريخ العلوم. ونقصد بالمشروع الباشلاري ما كتبه باشلار ليعبر به عن الصورة العامة للموقف الفلسفي الذي أراد بناءه وعن شروط قيام هذا الموقف الجديد. ويظهر هذا المشروع في الخطاب الباشلاري على مستويين:

المستوى الأول هو الذي يقدم لنا فيه باشلار تصوراً جديداً لفلسفة العلوم يقوم على نقد التصور الذي كان سائداً، وذلك بفضل إعادة النظر في المهام التي ينبغي أن ترجع إلى فلسفة العلوم وفي الشروط التي تلزم لإنجاز هذه المهام.

والمستوى الثاني هو الذي ينظر فيه باشلار إلى النظريات العلمية لا من حيث هي ثورة في ميدان العلوم، بل من حيث أنها تمثل دعوة إلى إقامة موقف إستيمولوجي جديد يبرز القيم المعرفية الجديدة التي جاءت بها تلك النظريات.

مهام فلسفة العلوم:

باشلار لا يريد لفلسفة العلم أن تكون تدخلاً فلسفياً في العلم. وهو بهذا يعارض كل الفلسفات التقليدية التي كانت سائدة. فهذه الفلسفات كانت تستغل العلم لتأكيد أنساقها الفلسفية.

فباشلار يريد أن يخاطبنا بخطاب إبستيمولوجي لا يتخذ صورة التدخل الفلسفي في القضايا العلمية. وإبداء هذه الإرادة أمر إيجابي. ذلك لأن فلسفة العلوم حين تكون تدخلا فلسفيا في العلم ستجعل من مهنتها نقل القيم الإيديولوجية إلى ميدان التفكير العلمي وهو الأمر الذي يعوق تقدم هذا الميدان. لن تكون فلسفة العلوم في هذه الحالة سوى واسطة نظرية بين الميدان العام للإيديولوجيا والميدان الخاص للعلم.

والأنساق الفلسفية تتميز بكونها مغلقة لأن الفيلسوف يجعل من شروط بنائه لموقفه الفلسفي أن تكون الحلول التي يقدمها لمجموعة المشاكل التي يدرسها حولا متناسقة. أم التفكير العلمي فيتميز بفتحته. فليس هنالك بالنسبة للعلم حقيقة قطعية ونهائية. فالعلم يقبل أن يخضع مبادئه للمراجعة المستمرة .

ولكن ما هي مهمة الإبستيمولوجيا الباشلارية؟ إن باشلار لا يكتفي بالرفض للفلسفات التقليدية، بل يقدم تصورا بديلا، ويتضمن هذا التصور البديل مهمات أساسية ثلاثة لفلسفة العلوم. فعلى الإبستيمولوجيا أن تعمل أولا على إبراز القيم الإبستيمولوجية، وثانيا أن تبحث عن أثر المعارف العلمية في بنية الفكر، وعليها ثالثا أن تقوم بتحليل نفسي للمعرفة الموضوعية. وبالنسبة لهذه المهمة الثالثة فإن باشلار يعتقد أن لدى الباحث العلمي مكبوتات عقلية على الإبستيمولوجي أن يبحث في أثرها على العقل العلمي لهذا الباحث.

التصور الباشلاري لتاريخ العلوم:

ثمة ثلاثة مفاهيم أساسية تكون في مجموعها تصور باشلار عن تاريخ العلوم: وهذه المفاهيم هي:

1) مفهوم العائق الإبستيمولوجي الذي يعبر به باشلار عن كل مظاهر التعطل أو التوقف أو النكوص التي قد تحدث في سير تاريخ العلم.

2) مفهوم القطيعة الإبستيمولوجية وهو المفهوم الذي يعبر به باشلار عن الطفرات الكيفية التي تحدث في تاريخ العلوم، وعن مظاهر الثورة التي قد تتحقق في هذا التاريخ بفضل قيام بعض النظريات العلمية.

3) مفهوم الجدل وهو الذي يعبر به باشلار عن العلاقة الجدلية التي تقوم في تاريخ العلوم بصيغة عامة بين القطيعات والعوائق، ثم عن العلاقة الجدلية التي تقوم داخل العمل العلمي بين النظرية الرياضية والتجريب الفيزيائي والجدل بين العقلانية والتجريبية والجدل بين ما هو قبلي وما هو بعدي ...

مفهوم العائق الإبستيمولوجي:

يرى باشلار أن العائق الإبستمولوجي يوجد في صميم عملية المعرفة ذاتها، إنه ليس نتيجة لا للشروط الخارجية لعملية المعرفة، ولا للحواس والفكر كوسيلتين ذاتيتين للمعرفة عند الإنسان. إن العوائق الإبستمولوجية تبرز في الشروط النفسية للمعرفة تبعا لضرورة وظيفية، بمجرد ما تقوم علاقة بين الذات والموضوع. هكذا فإن المعرفة العلمية تنتج بذاتها عوائقها الإبستمولوجية. يقول باشلار: " عندما نبحث عن الشروط النفسانية لتقدم العلم، سرعان ما نتوصل إلى هذا الإقتناع بأنه ينبغي طرح مسألة المعرفة العلمية بعبارات العقبات. وأن المطلوب ليس اعتبار عقبات خارجة من تركيب الظواهر وزواها، ولا إدانة ضعف الحواس والعقل البشري. ففي صميم فعل المعرفة بالذات تظهر التباطؤات والاضطرابات بنوع من الضرورة الوظيفية. وبذلك سنبين أسباب الجمود وحتى أسباب النكوص. وكذلك سنكتشف الأسباب الركودية التي سنسميها عقبات معلومية".⁴³

وصور العوائق الإبستمولوجية متعددة. الصورة الأولى هي ما يدعوه باشلار بالتجربة الأولى. لا يشك باشلار في الدور الإيجابي للتجربة في عملية المعرفة، ولكنه يرى أن الوقوف عند التجربة الأولى المتمثلة في الإتصال الأول بالموضوع عائقا معرفيا للموضوعية، فكل معرفة علمية تأتي في نظر باشلار ضدا على التجربة الأولى وتجاوزا لها يقول باشلار: " تكون العقبة الأولى أمام تكوين الفكر العلمي هي عقبة الاختبار الأول، اختبار الموضوع قبل النقد وفوق النقد الذي يعتبر بالضرورة عنصرا من عناصر القول العلمي " ⁴⁴ وصورة العائق هذا تبين لنا الفرق بين المعرفة العامة والمعرفة العلمية. فالمعرفة العامة تجعل المسافة قصيرة بين الواقع والفكر، أما المعرفة العلمية فإنها تفصل بينهما بالرجوع المستمر إلى التركيب العقلي، أي بالمحاولة المستمرة لإضفاء العقلانية على التجربة. والمثال البسيط الذي يمكن أن نقدمه عن التجربة الأولى كعائق إبستمولوجي هو الآتي حين ننظر لأول وهلة إلى جسم متحرك في الماء توقف عن الحركة، يخطر ببالنا أن الجسم هو الذي يقاوم الماء، وهذا خطأ تقابله حقيقة تأتي نتيجة لعقلنة التجربة الأولى وهدم المعرفة الناتجة عنها وهي أن الماء هو الذي يقاوم الجسم.

والصورة الثانية للعائق الإبستمولوجي هي التعميم ولا شك أن للتعميم دورا في المعرفة العلمية. وهذا لأن التعميم ينقل الفكر من تبدد الوقائع إلى وحدة القوانين التي تفسرها. غير أن التقييم لا يكون كذلك في كل الأحوال، فقد يكون تعميما متسرا وسهلا وهذه هي الحالة التي يكون فيها عائقا إبستمولوجيا يلعب في التفكير العلمي دورا معاكسا لدوره الدينامي المؤلف.

⁴³ غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بدون سنة، ص

إن التعميم يكون عائقا عندما يكون استجابة لمتعة عقلية فيكون متسرعاً وسهلاً ويعوق بلوغ حقيقة الظواهر. وكمثال على التعميم المتسرع يقدم لنا باشلار المثال الذي يستند إليه أساتذة الفلسفة لكي يبينوا كيف يؤدي استقرار الوقائع الجزئية إلى القوانين العلمية العامة. إنهم يصفون بسرعة سقوط أجسام متنوعة لكي يستخلصوا أن كل الأجسام تسقط. وهناك في هذا الاستنتاج بحث سريعاً عما هو عام، هناك مسافة قصيرة بين الواقعة الجزئية والقانون العام. إن الفيزياء انطلاقاً من التجارب الدقيقة على سقوط الأجسام لا تصل إلى ذلك التعميم بل إلى آخر أكثر غنى منه هو: كل الأجسام تسقط في الفراغ بنفس السرعة. إن التعميم الأول قد يغري ببساطته، أما الثاني فإنه أكثر دينامية بالنسبة للفكر العلمي في تقديمه في فهم الظواهر.

ثمة عائق إبستمولوجي يسميه باشلار بالعائق الجوهرى وطرقه في إبعاد الفكر عن الموضوعية هو أنه يدفع به إلى البحث في الظواهر عما هو خفي فيها باعتبار جوهرها. يقول باشلار: "إن العقبة الجوهرانية، شيمة العقبات المعرفية كافة، هي عقبة متعددة الأشكال فهي مكونة من تجمع الحدسيات الأشد تشتتاً وتعارضاً. فالعقل القبعلمي، يصاب، بنزعة شبه طبيعية، كل المعارف على موضوع يكون له الدور وحده، بدون الاهتمام بمراتب الأدوار التجريبية، إنه يضيف إلى الجوهر مباشرة شتى الصفات، الصفة السطحية والصفة العميقة في آن واحد، وكذلك الصفة الظاهرة والصفة الباطنة".⁴⁵

وثمة عائق آخر يدعوه باشلار بالعائق الإحيائي. ويتمثل هذا العائق بصفة خاصة في امتداد معارف بيولوجية أو فيزيولوجية إلى غير ميدها، لكي تفسر في ضوءها ظواهر أخرى كالظواهر الفيزيائية والكيميائية.

هكذا يقدم لنا باشلار صوراً عديدة للعائق الإبستمولوجي الذي يلعب دوراً دينامياً في الفكر العلمي وإليه يعود النكوص والتعطّل في تقدم هذا الفكر. وبفضل هذا المفهوم يتجاوز باشلار النظريات الاستمرارية في تاريخ العلوم التي ترى أن الفكر العلمي ينتقل من المسائل الأقل تعقيداً إلى المشاكل الأكثر تعقيداً دون أن يجد أي نوع من العوائق التي تمنع أحياناً هذا التقدم أو تجعله بطيئاً أو توقفه عند مرحلة من تطوره...

ولكن إذا كانت المعرفة العلمية تنتج عوائقها بذاتها، فإن هناك عوائق أخرى تنتج بشروط خارجية كالشروط المجتمعية والتاريخية والمعرفة العامة التي تتحقق ضمنها تلك المعرفة.

⁴⁵ المرجع نفسه.

بالنسبة للشروط الخارجية والتي تقود إلى العلاقات بين المعارف العلمية يمكن القول أن تطور بعض العلوم يعتبر شرطا لتطور البعض الآخر. وليس هنالك في هذه الحالة عوائق إبستمولوجية تنقلها حالة بعض العلوم من التطور. إلى أخرى بواسطة امتداد المفاهيم.

أما ما يكون عوائق نتيجة علاقة المعرفة العلمية بأنماط معرفية أخرى فيمكن البرهنة عليها بالفلسفة فيمكن القول بهذا الصدد بأن الفلسفة في تاريخ علاقتها بالعلوم قد قدمت كثيرا من الأفكار والنظريات العامة التي يمكن أن نعتبرها عوائق إبستمولوجية أما بالنسبة لتطور المعرفة العلمية بصفة عامة أو بالنسبة لتطور هذا العلم الخاص أو ذاك. هناك كثير من الأمثلة على هذا الأمر، ويمكن أن نقدم مثالا بتمييز أفلاطون بين معرفة حقيقية بوجود حقيقي هو المثال ومعرفة غير حقيقية بوجود غير حقيقي. هو وجود الأشياء المحسوسة التي يعتبرها أفلاطون صورا للمثل. وهذا التقييم الأفلاطوني يعتبر عائقا.

والفلسفة ليست في نهاية التحليل إلا واحدا من عناصر الإيديولوجيا، إنها أقوى العناصر تجريدا وهي لذلك النموذج الأمثل الذي يمكن للعوامل المجتمعية أن تؤثر من خلاله على تطور الميادين المعرفية.

إن المجتمع لا يؤثر في تطور العلوم من الناحية المعرفية إلا بصورة غير مباشرة. فتأثيره يقف عند حدود منح إمكانية التطور ولكنه لا يعطي مضمون هذا التطور، ولا بد للممارسة هذا التأثير من وسيط معرفي. وهذا الوسيط هو الإيديولوجيا بصفة عامة. ولكن كيف تكون الإيديولوجيا مصدرا لعوائق إبستمولوجية ؟ لا يشك محمد وفيدي أننا حين نتابع تطور العلوم في علاقته بالإيديولوجيا نستطيع أن نكتشف بعض الصور. وتاريخ العلم عند بداية نشأته في القرن السادس عشر مليء بأمثلة كانت فيها الإيديولوجيا العامة السائدة، عائقا عن فهم موضوعي للظواهر المدروسة. ونجد هذه الأمثلة عندما نتابع الكيفية التي كان على العلماء أن يصلوا بها عن بعض الحقائق العلمية الجديدة (كدوران الأرض مثلا) حيث كان عليهم في الوقت ذاته أن يقدموا حقيقة معرفية وأن يتجاوزوا الإيديولوجيا العامة القائمة. لذلك فقد كانت لمثل هذه الحقائق قيمة علمية من حيث الوقائع التي ترجع إليها، وقوة إبستمولوجية من حيث إنها تناهض أفكارا لها قيمتها ضمن الإيديولوجيا القائمة.⁴⁶

هناك صورة أخرى لهذا تتمثل في كون الإيديولوجيا قد تعطي تعميمات زائفة يمكن أن تماثلها بما دعاه باشلار بالتعميم المنفعي، فالتعميم الإيديولوجي لا يقوم على ارتباط موضوعي بالوقائع، ولكنه تعميم يهدف إلى

⁴⁶ محمد وفيدي، فلسفة عن غاستون باشلار، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1984.

عدم الدقة بكيفية لاواعية. لذلك نرى التعميم الإيديولوجي يغفل العناصر التي لا تلائم طبيعة التفسير المادي الذي يريد أن يقدمه. والمجال الذي يمكن أن نجد فيه أمثلة عن هذا العائق بهذه الصورة هو العلوم الإنسانية.

مفهوم القطيعة الإستمولوجية:

إن تاريخ العلوم في نظر باشلار ليس انتقالا ميكانيكيا من مستوى من طرح المشكلات وحلها إلى مستوى أعلى، ولا انتقالا من المشكل الأبسط إلى الأعقد. تاريخ العلوم ليس من البساطة إلى الحد الذي تتصوره كل نظرية استمرارية له. فكل نظرية استمرارية تجد نفسها خارج التاريخ الفعلي للعلوم الذي يكشف عن التعطلات والنكوص من جهة، ومن جهة أخرى يعرف فترات انتقال كيفية. فإذا كان المظهر الأول يشير إلى العوائق فإن المظهر الثاني يشير إلى القطيعات الإستمولوجية.

والقطيعة عند باشلار تفهم بمعنيين: قطيعة بين المعرفة العلمية والمعرفة العامة، وقطيعة بين الفكر العلمي الجديد والقديم. فبالمعنى الأول يرى، الاستمراريون أن المعرفة العلمية تعود إلى أصول بعيدة وتتمثل في المعرفة العامة ولذلك فالمعرفة العلمية ما هي إلا استمرار وتطوير للمعرفة العامة.

وكأمثلة عن القطيعة بهذا المعنى الأول يمكن الإشارة إلى مثالين الأول يتعلق بالفرق بين المصباح الكهربائي والمصباح العادي. فلو كان هناك استمرار من المعرفة العامة إلى المعرفة العلمية المعاصرة لأمكن فهم المصباح الكهربائي انطلاقا من المصباح العادي. غير أن الأمر ليس على هذا النحو. فليست هناك علاقة تكوينية بين المصباحين إذ أن الشيء الوحيد الذي يسمح بالمماثلة بينهما كونهما معا يضيئان عند سقوط الظلام. ومعنى هذا أن الوحدة في الهدف لا في صورة التركيب. إن التفكير في المصباح الكهربائي، من حيث كونه نتيجة لعمل التقنية العلمية، لا يمكن أن يتم انطلاقا من التفكير في المصباح العادي. إن المصباح الكهربائي هو وليد فعالية عقلية تقنية.

والمثال الثاني يتعلق بالانتقال من التصوير غير الملون إلى التصوير الملون. فليس التصوير الملون استمرارا لمعطى ما في التجربة العامة. ذلك لأنه لا يمكن أن يفهم مثلا من وجهة نظر من يمارس صناعة التلوين أو الصياغة. إنه نتيجة لتركيب علمي عقلائي وتقني معقد، وليس نتيجة لتطوير في فكرة التصوير غير الملون.

أما القطيعة على مستوى الفكر العلمي ذاته، فهناك نظريات جديدة تحقق قفزة في مسار الفكر العلمي، وتبدو بدون مثيل سابق، ولا يمكن فهمها كاستمرار أو كتطوير للعلم السابق عليها. وقد رأى باشلار في النظريات العلمية المعاصرة هذا الفكر العلمي الجديد.

والنظريات التي مثلت في عين باشلار هذه الثورة والتي قام على أساس منها فكر علمي جديد هي ما سلف لنا الحديث عنها، ويتعلق الأمر بالهندسات الإقليدية في العلوم الرياضية، والميكانيكا النسبية وميكانيكا الكوانتا في العلوم الفيزيائية. يقول باشلار " ونحن نعتقد أننا نضل إذا حسبنا أن مذهب نيوتن اقتراب أو صورة أولية لمذهب أينشتاين لأن إرهاف النسبية لا ينبثق أبدا عن تطبيق المبادئ النيوتونية بارهاف. ولذا لا يصح القول بدقة أن العالم النيوتوني يضم سلفا عالم أينشتاين في خطوطه الكبرى.

ولكن عندما نكون قد بلغنا دفعة واحدة الفكر النسبي، نستطيع أن نجد إذ ذاك في الحسابات الفلكية (النسبية) عن طريق بعض ضروب البتر والإسقاط - النتائج العديدة التي يقدمها علم الفلك النيوتوني. وعلى هذا فليس ثمة انتقال موصول بين مذهب نيوتن ومذهب أينشتاين. ونحن لا نمضي من الأول إلى الآخر بتكتيل المعرفة ومضاعفة العناية بالمقاييس وبتصحيح المبادئ تصحيحا طفيفا، بل إن الأمر يقتضي، على العكس، بذل جهد تجديد كامل. ولذا فإن انتقالنا من الفكر المدرسي التقليدي إلى الفكر النسبي يتم عن طريق استقراء متعال لا عن طريق استقراء موسع. وطبيعي أن في وسعنا، بعد هذا الاستقراء، أن نحصل بالاختزال والتبسيط، على العلم النيوتوني. وهكذا يمكن القول أخيرا أن علم الفلك عند نيوتن حال خاصة من علم الفلك الكلي عند أينشتاين. كما أن هندسة إقليدس هي حال خاصة من هندسة لوباتشفسكي الكلية ".⁴⁷

ومن هذا النص نتبين مظاهر القطيعة الإستراتيجية فأول مظهر هو أنه إذا كان هنالك نفي للسابق بفضل اللاحق، فإن هذا النفي يكون جدليا بحيث لا يعني الانفصال أو الترك المطلق بل يعني الإحتواء. والمظهر الثاني أن نظريات الفكر العلمي المعاصر تقوم على مراجعة لمفاهيم العلم الكلاسيكي حتى تلك التي كانت تبدو ضمن هذا العلم مبادئ أولية.

وهكذا فإن الهندسات الإقليدية لا تقوم على مصادرات جديدة فحسب، بل على مراجعة لمفهوم المكان ومفهوم الخط حيث تقدم لنا مفهومي المكان وللخط أكثر شمولاً. فالمكان بالنسبة للهندسات الإقليدية ليس المكان المسطح ذا الأبعاد الثلاثة، بل هو إما المكان المحدود به أو الفراغ. والخط ليس بالضرورة الخط المستقيم.

⁴⁷ غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديد، مرجع سابق.

وفي العلم الفيزيائي فإن نظرية النسبية ونظرية الكوانتا تقوم بمراجعة المفاهيم الأساسية في العلم الكلاسيكي كمفهوم الزمان والمكان. ونظرية الكوانتا أثبتت أن للظواهر الضوئية طبيعة مزدوجة فهي جسيمية وموجية. وإذا كانت الفيزياء الكلاسيكية تقوم على مبدأ الحتمية كما جرى صياغته عند لابلاس بصورته المطلقة، فإن الفيزياء المعاصرة قامت بمراجعة هذا المبدأ وطرحته بدلا منه الاحتمية كما تم صياغتها لدى هيزنبرغ فيما عرف بعلائق الارتباب.

" وهكذا فالقطيعة الإبتيمولوجية إذن مراجعة للمفاهيم العلمية في الفكر العلمي السابق لها. ولكن هذه المراجعة لا تعني انفصالا بل تعني إنتقالا جدليا إلى مفاهيم أشمل.

فالمفاهيم القديمة ضمن القطيعة الإبتيمولوجية لا يتم تركها بصفة مطلقة، ولكن تتم مراجعتها بالكيفية التي تبين حدود صدقها من جهة وتحتويها من جهة أخرى. ولكن هذه المراجعة لا تتم بصورة تجريدية، بل هناك دائما تعيين للظروف التجريبية التي تسمح لنا بأن نعيد النظر في أي مفهوم ⁴⁸.

والمظهر الثالث للقطيعة الإبتيمولوجية هو أن القطيعة تعني الانتقال إلى فكر علمي أكثر تفتحا. فقد كان الفكر العلمي في الهندسة قبل قيام الهندسات الإقليدية أمام نسق واحد للعقلانية، ولكنه أصبح بفضل قيامها أمام أنساق ثلاثة للعقلانية.

مفهوم الجدل:

إذا كانت المعرفة العلمية تعرف العوائق والقطيعات الإبتيمولوجية فهي تعرف أيضا أنواعا من العلاقات الجدلية الخاصة بها وهي التي يعبر باشلار عنها بمفهومه للجدل.

ومنذ البداية يميز باشلار مفهومه للجدل عن المفهوم الذي تأخذ به الفلسفة التقليدية. وليس معنى هذا أن باشلار يرفض رفضا مطلقا مفهوم الجدل كما جاء عند الفلاسفة، بل إننا نجد لديه بعضا من معالم ذلك المفهوم.

ولما كان باشلار يرفض مفهوم الجدل قبليا لدى الفلاسفة ويرتكز على تاريخ الفكر العلمي ذاته فإن أول درس يستفيد به باشلار من تاريخ الفيزياء المعاصرة هو أن الجدل في العلم يعني التكامل. فالفيزياء المعاصرة مع نيلز بوهر أخذت بمفهوم متكامل بين الطبيعة الجسيمية والموجية للضوء. وهكذا يختلف مبدأ التكامل الذي أعلن عنه بوهر عن مفهوم الجدل الفلسفي عند هيغل الذي يقوم على التناقض والتعارض بين القضية ونقيضها.

⁴⁸ محمد وقيدي، فلسفة المعرفة عند غاستون باشلار، مرجع سابق.

وهكذا ترى إذن أن مفهوم الجدل من حيث هو علاقة تكامل قد كان مفهوما معروفا في الخطاب العلمي الذي عاصره باشلار، ونرى أيضا أن ما أراده باشلار هو أن يعبر فلسفيا عن هذا المبدأ وأن ينقل إلى الفلسفة هذا المفهوم. لذلك نجد يستفيد من هذا الدرس للتحدث عن عدد من أنواع الجدل في الفكر العلمي المعاصر: التكامل بين الإتجاه العقلي والإتجاه التجريبي، التكامل بين القبلي والبعدي، التكامل بين المحسوس والمجرد، التكامل بين العالم الرياضي والعالم التجريبي.

فأولا هناك تكامل بين العقلانية والتجريبية. وهذا معناه أن الفكر العلمي يختلف عن الميتافيزيقا من حيث أن هذين الموقفين يوجدان متضادين. إن الفكر العلمي يحتاج إلى موقف يتكامل فيه الإتجاهان العقلاني والتجريبي لأن الإكتشافات العلمية يمكن أن تفهم ضمن تكامل هذين الإتجاهين لا ضمن تضادهما. إن الفلسفة العلمية تريد أن تكون فيها العقلانية قابلة للتطبيق، وأن التجريبية العلمية تسعى لأن تكون مفهومة. وثانيا هناك تكامل جدلي آخر بين ما هو قبلي وما هو بعدي. فلقد ظلت الفلسفات التقليدية تتأرجح بين فلسفات مثالية تريد ألا ترى في عملية المعرفة إلا عملية يتم فيها كل شيء بصورة قبلية حيث يكون الفكر مصدر كل المعارف، وبين فلسفات تعتبر أن المعرفة بعديّة مصدرها التجربة. أما باشلار فيرى أن القبلي والبعدي متكاملان. لأنه ليس هنالك مقولات ثابتة لا يؤثر فيها التقدم المكتسب عن تجارب. إن العلم المعاصر يقدم لنا صورة حوار بين ما هو قبلي وما هو بعدي، وحوار بين العقل والواقع. فالعقل يدرك التجارب الجديدة من خلال ما لديه من مقولات، ولكن هذه المقولات ليست من جهة أخرى مقولات ثابتة نهائية، بل إن مقولات الفكر تتأثر بدورها بالتجربة.

وهناك جدل آخر بين المحسوس والمعقول: فالمحسوس بالنسبة للعلوم المعاصرة لم يكن هو الموضوع الذي يعطانا في تجربة أولى مباشرة. إن الموضوع قد أصبح نتيجة لتجارب علمية معقدة، ونتيجة لعمل علمي تتدخل فيه الآلات، لا من أجل تدقيق الملاحظة بل من أجل جعل الملاحظة ممكنة. كما أن الموضوع العلمي صارت تتدخل فيه الرياضيات بصورة قوية .

أما المظهر الأخير للجدل من حيث هو تكامل فهو الجدل بين عمل العالم الفيزيائي وبين العالم الرياضي. هذا التكامل الجدلي بين العالمين قال به كونزيت أيضا الذي يرى أنه لم يعد من المشروع أن نضع العلوم الرياضية في تعارض مع العلوم الفيزيائية، كما لو كانت العلوم الأولى التي تعتمد الاستنباط تمثل نوعا من حقيقة ثابتة ومطلقة، وكما لو أن العلوم الثانية التي تعتمد التجربة هي وحدها التي تخضع للتطور.

وباشلار يؤكد ما يراه كونزيت. فهناك في نظره حوار بين العالم الرياضي والعالم الفيزيائي لا يستطيع الفيلسوف التقليدي أن يفهمه، إذا ما حاول ذلك انطلاقاً من المفهوم الفلسفي للحد. إن العلاقة بين الرياضيات والعلوم الفيزيائية ليست في كون الأول مجرد لغة بالنسبة للثانية، إن الرياضيات هي أكثر من لغة، إنها منهج للكشف العلمي.

الإبستمولوجيا اللاديكارتية:

الإبستمولوجيا الباشلارية تقدم تصوراً خاصاً لتاريخ العلوم في ضوء مفهومه عن العوائق والقطيعات الإبستمولوجية. ولذلك باشلار سيقدم لنا تصوره لكثير من المفاهيم الفلسفية، التي تمثل القيم الإبستمولوجية التي جعل باشلار مهمة إبرازها من المهام الأساسية لفلسفة العلوم. أولى هذه المفاهيم مفهوم العقل. فباشلار يعارض الفلسفات التي تقول بعقل يتميز بثبات البنية من جهة، ومن جهة أخرى تضع حدوداً لهذا العقل. إن العقل في نظر باشلار يتأثر في بنيته بتطور الأفكار العلمية. إن باشلار يقدم مفهوماً جديلاً للعقل، يوجد في علاقة جدلية مع المعارف التي ينتجها، إن العقل ينتج المعارف ولكنه يخضع لتأثير هذه المعارف على بنيته. العقل إذن ليس بنية ثابتة، بل بنية لها تاريخ وتاريخها هو تطور معارفها.

هناك في مفهوم العقل كما يأخذ به باشلار تجاوز آخر للفلسفات التقليدية يتمثل في رفض باشلار لما يدعوه بالحدود الإبستمولوجية. فهذه الفلسفة تضع حدوداً لقدرة العقل على المعرفة تتمثل في فلسفة كانط حين تقدم لنا الشيء في ذاته كحد للمعرفة الإنسانية، وفلسفة برغسون التي تقول بالحدس. وسيستفيد باشلار من الاكتشافات العلمية في ميدان الفيزياء ليدعم وجهة نظره في رفض الحدود للمعرفة العلمية. فهو مثلاً يرى أن نواة الذرة شيء في ذاته بالنسبة لعلوم القرون السابقة، ولكنها موضوع علمي بالنسبة للفيزياء المعاصرة. إن الحدود التي يتصورها باشلار للعلم لا تأتي من خارج العلم بل من داخله. فالعلم هو الذي يضع حدوده الخاصة، وعندما يكون قد حدد بوضوح هذه الحدود فإنه يكون قد تجاوزها، إن الحدود بالنسبة للعلم تعني برنامج عمل أكثر مما تعني الاستحالة ويقدم لنا العلم المعاصر أمثلة عن المشاكل التي انتقل فيها العلم من مستوى الوضع السيء حيث كانت تبدو غير قابلة للحل إلى مستوى الوضع الموضوعي الذي تبدو فيه قابلة للحل.

وهكذا فإن مفهوم الحدود بالنسبة للمعرفة العلمية لا يرسم في نظر باشلار إلا توقفاً لحظياً لهذه المعرفة، وأنه لا يمكن أن نرسم بصورة موضوعية هذه الحدود. إن الحدود بتعبير أفضل تعني برنامج عمل أكثر مما تعني عوائق مطلقة.

مفهوم الواقع: ينتقد باشلار بهذا الصدد الفلسفات المثالية التي تجعل من الذات مركز المعرفة، وتعتبر أن المعرفة تكون تامة بفضل المقولات القبلية التي تكون الذات حائزة لها قبل أي اتصال بالواقع. كما تعتبر أن النجاح في عملية المعرفة يبدأ عندما تنطبق المقولات القبلية على الواقع أو عندما يندرج الواقع في تلك المقولات. كما ينتقد الفلسفات التجريبية وتحديدًا الواقعية الساذجة التي تأخذ بمفهوم للواقع لا يطابق ما جاءت به الثورة العلمية المعاصرة.

وهناك صفة أخرى يطلقها باشلار على الفلسفة التي يعارضها بصدد مفهوم الواقع وهي البراغماتية. فهذه الفلسفة لا تأخذ من الواقع إلا بجانب منه، إنها لا تقدم الواقع كميدان للعمل والفهم معاً، لتكوين معرفة، في حين أن العلم النظري أكثر إلحاحاً لأنه يطلب الفهم.

إن الواقع الذي يدرسه العلم المعاصر في نظر باشلار واقع يتصف بالاصطناع. إن الواقع في الميكروفيزياء وفي الكيمياء المعاصرين ليس هو الواقع الطبيعي المعطى، ولكنه الواقع الذي يكون نتيجة لعمل تقني. ويعطي باشلار معنى البناء لصفة الاصطناع. والبناء يكون بواسطة التقنية.

والمظهر الثاني لمفهوم الواقع هو أن موضوع المعرفة العلمية المعاصرة قد أصبح موضوعاً مزدوج الصفة إنه محسوس ومجرد، معطى ونتيجة، شيء وشيء في ذاته، شيء ولا شيء، ومظهر الجدة الثالث في مفهوم الواقع ضمن المعرفة العلمية المعاصرة هو العلاقة بين الموضوع والمنهج.

لقد كان الفلاسفة يتحدثون عن الواقع بوصفه مستقلاً تماماً عن المناهج المستخدمة للملاحظة. كانوا يرون أن دور المنهج بالنسبة للواقع المدروس ينحصر في كونه دوراً معرفياً ولا يمكن أن ينسب إليه بالتالي أي تأثير على هذا الواقع.

غير أن الأمر في العمل العلمي في الميكروفيزياء المعاصرة يختلف عن ذلك في نظر باشلار "فليس هنالك في الميكروفيزياء منهج للملاحظات بدون تأثير لطرق المنهج على الموضوع الملاحظ. هناك تداخل جوهري بين الموضوع والمنهج".⁴⁹

والمثال الذي يقدمه لنا باشلار على هذه الظاهرة هو تعيين موقع الإلكترون. فلبلوغ ذلك يكون علينا أن نشع على الإلكترون بالفوتون. ولكن التقاء الإلكترون بالفوتون يزيد من سرعة الإلكترون ويجعل أمر معرفة موقعه

⁴⁹ محمد وقيدى، نظرية المعرفة عن غاستون باشلار.

صعبا. ولذلك فإن صعوبة ضبط موقع وسرعة الإلكترون تأتي من التداخل بين مناهج البحث وبين الموضوع الذي تسعى هذه المناهج إلى تقديم معرفة عنه.

هناك مظهر رابع لتثوير العلم المعاصر لمفهوم الواقع هو دور الرياضيات في فهم الواقع. وقد سبق أن بينا دور الرياضيات عند باشلار في الفكر العلمي. إن دور الرياضيات هو الاكتشاف وليس التعبير عن هذا الاكتشاف فقط.

هناك أخيرا مظهر خامس لتثوير مفهوم الواقع، يتمثل في الحديث الباشلاري عن الاحتمية. فلقد أبانت الميكروفيزياء أن ظواهر هذا العالم لا تخضع للتحتمية وهذا ما بينه هيزنبرغ فيما عبر عنه بعلائق الإرتياب.

مفهوم المكان:

يرفض باشلار بصدد مفهوم المكان موقف الفيلسوف الواقعي الذي يعطي الأولوية في طبيعة الأشياء لخصائصها الهندسية على خصائصها الدينامية.

والمكان الذي يقول به الفيلسوف هو المكان المسطح ذو الأبعاد الثلاثة الذي كانت تقوم عليه الهندسة الإقليدية وهو المكان الذي تحدث عنه كانط على أنه صورة قبلية توجد في الفهم سابقة على أية تجربة، بل والصورة التي تنظم فيها إلى جانب صورة الزمان كل تجربة حسية ممكنة.

ولما قامت الهندسات الإقليدية فإنها أحدثت قطيعة مع الهندسة الإقليدية، وبدلا من مكان واحد قالت هذه الهندسات بصور متعددة للمكان. المكان الريماني والمكان الذي قال به لوباتشفسكي.

والمكان في نظر باشلار ليس هو المكان الذي يعطانا في التجربة الأولى، بل هو المكان الذي يتم بناؤه.

مفهوم الزمان:

يرفض باشلار الفلسفات التي تقول بالزمان المطلق وبأنه مقولة قبلية يحوزها الفكر في استقلال عن الإتصال بكل تجربة، بل وكإطار لإدراك معطيات التجربة في تعاقبها وتآنيها. وكذلك الفلسفات التي تقول بأن الزمان متصل. ويعتمد باشلار على الثورة الذي أحدثتها النظرية النسبية في الفيزياء، فهذه النظرية تبين لنا أن لا مكان للقول بالزمان المطلق لأن الزمان يختلف من نظام مرجعي إلى آخر، تبعا لكون هذا النظام المرجعي يتحرك بسرعة

دنيا أو بسرعة تصل أو تقترب من السرعة القصوى التي هي سرعة الضوء كما تبين تلك النظرية أن التآني المطلق بين حادثين لم يعد ممكنا ومقبولا ضمن التجارب الدقيقة للفيزياء المعاصرة.

أما بصدد إتصال الزمن فباشلار يرفض موقف برغسون الذي يرى أن الديمومة لا تتجزأ ولا يحدث فيها الانقطاع. فالديمومة تدرك في وحدتها التي لا تقبل الانقسام. ويعتمد باشلار من حيث الدلائل العلمية على مفهوم العلية الفيزيائية. فهي تدل في نظره على أن صفة الزمان في الانفصال. ذلك لأننا لكي نتحدث عن العلمية لا بد من تعيين العلة كظاهرة منفصلة عن ظاهرة أخرى تكون معلولا.

مفهوم الحقيقة:

تجاوز باشلار الفلسفات التقليدية العقلانية والواقعية في مفهومها للحقيقة. إن باشلار يقصد الحقيقة العلمية، ولكن هذا لا يعني أنه يقبل بوجود حقيقة فلسفية متعارضة أو متناقضة لهذه الحقيقة العلمية. وأول ما يعارض به باشلار تلك الفلسفات هو قوله بحقيقة غير مطلقة. إن الحقيقة عنده نسبية وذلك على مستويين: في المستوى الأول تكون الحقيقة نسبية لأنها مظهر لتقدم العلم، فإن تاريخ العلم يبين لنا أنه ليست هناك حقيقة تظل ثابتة وتكون نهائية. إنها تظل حقيقة طالما كانت الوقائع التجريبية أساسا لكونها كذلك.

وفي المستوى الثاني تكون الحقيقة نسبية لأن العلم المعاصر يعلمنا في نظر باشلار أن المعرفة بالواقع، وخاصة عندما يتعلق الأمر بدراسة الجسيمات الصغيرة لا تكون إلا معرفة تقريبية.

ويرفض باشلار الفلسفات الكلاسيكية في مفهومها للحقيقة عندما تضع لها حدودا. وكما رأينا فإن باشلار يرفض كل قول بحدود إبستمولوجية للمعرفة العلمية.

11-جان بياجي والإبستمولوجيا التكوينية:

إعطاء لمحة عن نظرية المعرفة التي أقامها جان بياجي ليس عملا سهلا، الأعمال التي كان هو صاحبها (وحده أو مع آخرين) المجموعة تحت ميدان الإبستمولوجيا التكوينية امتدت على فترة تقارب الثلاثة والعشرين (23) عاما. إنها تبدأ من سنة 1957 إلى 1980 وهي سنة موت بياجي وتتضمن ليس أقل من إثنتين وثلاثين كتابا.

مفهوم الإبستمولوجيا الذي يقود عمل بياجي هو مفهوم فلسفة للمعرفة مزدوجة بواسطة عمل تجريبي: علم النمو-البحث السيكولوجي عن أسلوب تطور الذكاء لدى الأطفال — يمثل الوجه التجريبي لهذه الفلسفة التي

لا تريد أن تكون تأملية فقط. الواقع يشير بياحي، هو أن الإستيمولوجيا تلجأ دوماً إلى ترسيمات لتطور الملكات العقلية — كما هو الحال، يقول لنا بياحي، بالنسبة للتجريبية المنطقية وبالنسبة لنظرية المعرفة لدى كانط — بينما هذه الترسيمات لم يتم التثبت عنها بأي دراسة علمية قادرة على أن تثبت الوجود الحقيقي لأي ملكة قبلها في تطور الملكيات الذهنية الإنسانية.

هكذا، يقول لنا الكاتب، إذا ومتى أرادت الإستيمولوجيا الإرتكاز على مثل هذه البناءات وهذه المعطيات، يجب أن تلجأ إلى الأبحاث التجريبية المطورة والجارية في ميدان علم النفس، وحده هذا العلم حسب بياحي يمكنه أن يقدم الوسائل والمعطيات التجريبية التي تحتاجها الإستيمولوجيا من أجل إرساء فرضياتها.

علم نفس الذكاء سيكون بالنسبة لبياحي الفرع التجريبي من الفلسفة التي تهتم بتطوير نظرية المعرفة العلمية.

على ماذا تقوم الإستيمولوجيا التكوينية :

في شكلها المحدد أو الخاص، الإستيمولوجيا التكوينية هي دراسة الحالات المتتابعة لعلم ما بالنسبة لتطوره.

مفهومه هكذا الإستيمولوجيا التكوينية يمكن أن تتحدد في العلم الوضعي، سواء التجريبي أو النظري كضرورة للعلوم الوضعية بما هي علوماً.

إن كلمة تكويني هي نسبة إلى تكوين، وهو ما يتعلق بتكوين كائن أو ظاهرة أو نظام، والمنهج التكويني هو دراسة علم من العلوم عن طريق تبين تكوينه. أما التكوين عند بياحيه فيرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم البنية الذي يخضع بدوره لمبادئ التحول والتطور. فالتكوين هو انتقال من الحالة (أ) إلى الحالة (ب) التي ينبغي أن تكون أكثر تطوراً وثباتاً من الحالة (أ). أي أنه يشكل مجموعة نظم تحددها التحولات والتطورات الحاصلة خلال مرحلة الانتقال من (أ) إلى (ب) وعلى هذا الأساس بالذات يحصل تطور الطفل فتتم عملية التكوين والبناء بشكل متداخل ومستمر إلى أن ينتقل الطفل إلى حالة البنية المستقرة والثابتة.

والبنية عند بياحي نسق من التحولات، ومن حيث كونها نسقاً وليست مجرد تجميع لعناصر وخواصها، فإن هذه التحولات تتضمن قوانين. إن فكرة البنية عند بياحيه تشتمل ثلاثة أفكار رئيسية:

- 1) فكرة الكمال.
- 2) فكرة التحويل.
- 3) فكرة التنظيم الذاتي.

وتنقسم إبستمولوجيا بياجي التكوينية إلى فرعين: يبحث الأول في مبادئ العلوم، ويهدف إلى تقويمها بغية تفسير التطور الفكري للإنسان إلى وضع رؤيا مستقبلية لهذا التطور. ويسمى هذا الفرع علم تاريخ المعرفة. وفي هذا المجال يعتبر غاستون باشلار بمؤلفاته المتعددة سيدا مطلقا في القرن العشرين. أما الفرع الثاني فإنه يبحث في تطور المعارف عند الإنسان الفرد منذ الولادة وحتى بلوغه سن الرشد ويهدف إلى أمرين:

الأول: تفسير الظواهر المعرفية: فإذا استخدم منهج العلوم التجريبية اندرج تحت عنوان علم النفس المعرفي. وإذا استخدم نتائج التشريح الدماغي والعصبي فإنه يسمى عندئذ علم نفس الأعصاب.

والثاني، تحليل كيفية توصيل الطفل إلى المعرفة، وتفسير عملية التطور الفكري ويسمى في هذه الحالة الإبستمولوجيا التكوينية.

تسعى الإبستمولوجيا التكوينية إلى توضيح المعرفة والمعرفة العلمية بصفة خاصة وذلك استنادا إلى تاريخها، وإلى تكوينها الاجتماعي وإلى الأصول السيكولوجية للأفكار والعمليات التي تعتمد عليها بصفة خاصة. ويقول بياجي، " ولقد استندنا في رسم الجزء الأكبر من تلك الأفكار والعمليات إلى الحس المشترك، وعليه فإن هذه الأصول يمكن أن تلقي الضوء على مغزاها كمعرفة ذات مستوى أعلى. كما تأخذ الإبستمولوجيا التكوينية في اعتبارها أيضا، وبقدر المستطاع، الصياغة المنطقية التي تنطبق على بنيات الفكر المتوازنة وعلى حالات معينة من التحولات التي ينتقل فيها الفكر - في مجرى تطوره - من مستوى لآخر ".⁵⁰

والإبستمولوجيا التكوينية تقف على النقيض من الإبستمولوجيا التقليدية التي تنظر إلى المعرفة كما هي في اللحظة الراهنة، فهي تحلل المعرفة استنادا إلى غايتها الخاصة، ومن خلال إطارها الخاص، دونما اعتبار إلى كيفية تطورها. أما تتبع تطور الأفكار أو تطور العمليات فرمما يكون هذا من شأن المؤرخين أو علماء النفس وليس من شأن الإبستمولوجيين بشكل مباشر.

إن الفكر العلمي ليس لحظيا وليس حالة إستاتيكية سكونية إنما هو عملية وتحدد أكثر، عملية بنيان وإعادة تشييد مستمدين. ويضيف جان بياجي: " إننا لا نستطيع أن نقول من جهة أن ثمة تاريخ للتفكير العلمي، وأن مادة الفكر العلمي من جهة أخرى لا تزال كما هي عليه إلى اليوم. بل إن هناك ببساطة تحولا

⁵⁰ جان بياجيه، الإبستمولوجيا التكوينية، تر: السيد نقادي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1991.

مستمرًا وإعادة تنظيم مستمر. وأن هذه الحقيقة فيما يبدو لي تتضمن أن العوامل التاريخية والسيكولوجية التي تدخل كعناصر في هذه التغيرات إنما تكون ذات أهمية بالغة في محاولتنا لفهم طبيعة المعرفة العلمية".⁵¹

المحاضرة الرابعة

العلوم الإنسانية بين الاعتراض على قيامها والاعتراف بصعوبتها

1- الاعتراضات على قيام العلوم الاجتماعية وتجاوز هذه الاعتراضات

2- الموضوعية في العلوم الإنسانية

.....

1- الاعتراضات على قيام العلوم الاجتماعية وتجاوز هذه الاعتراضات

ثمة اعتراضات فلسفية وحتى من داخل العلوم الإنسانية على علمية هذه العلوم. وقد تناولت تلك الاعتراضات موضوع ومنهج العلوم الإنسانية.

من حيث الموضوع تهدف كل الاعتراضات الموجهة إلى طبيعة موضوع العلوم الإنسانية إلى أن تبين أن هذا الموضوع متعال على المعرفة العلمية، وهذا لطبيعة هذا الموضوع من جهة، ولقصور الوسائل المستخدمة لبلوغ حقيقته من جهة ثانية.

إن التساؤل العام حول الموضوع يمكن أن يتخذ الصيغة التالية: إن لم يكن الموضوع في العلوم الإنسانية هو من نفس طبيعة الموضوع في العلوم الفيزيائية، فمن الواضح أن يصبح من الضروري التساؤل عما تعنيه العلمية بالنسبة للعلوم الإنسانية؟

إن أولى الخصائص في نظر المعارضين هي أن الموضوع المدروس ينبغي أن يكون مطابقًا للموضوعات المتماثلة معه، بحيث يمكن أن نستعيض عن موضوعها بموضوع آخر مثيل له. ويمكن أن نأخذ مثالا من العلوم

⁵¹ المرجع نفسه.

الفيزيائية، ففي مسألة سقوط الأجسام كل الأجسام المادية متماثلة. فقطعة الرصاص والإنسان رغم اختلافهما فإنهما من حيث كونهما جسمين يخضعان لنفس قانون السقوط. فالعلوم الفيزيائية تستعيز عن أي واحد منهما بالآخر. إن هذه العلوم إذن تفرض وجود المطابقة في الواقع بين الأجسام المادية التي تتوفر على خصائص مادية متماثلة.

ولكن هذه الخاصية تبدو غير متوفرة في العلوم الإنسانية. فالواقع الملاحظ في أي علم من هذه العلوم لا يمكن أن نستعيز عنه بغيره. إن الواقع يقدم لها في كليته وفي فرادته. فمثلا في التاريخ لا يمكن أن نستعيز بحادث تاريخي بآخر. وهذا يصدق على موضوعات العلوم الأخرى .

والاعتراض الثاني بصدد الموضوع في العلوم الإنسانية يتمثل في القول بأن حقيقة أحوال الإنسان والظواهر التي تصدر عنه تكون متصفة بصفة الإطلاق في حين أن المناهج العلمية لا يمكن أن تصل إلا إلى حقيقة ما هو نسبي. ونجد هذا الاعتراض لدى برغسون بصدد علم إنساني معين هو علم النفس. فبرغسون يعتبر أن الديمومة هي الحقيقة المطلقة. والديمومة جريان دائم ومتصل من الظواهر النفسية وعلم النفس حين يدرس هذه الأخيرة يحاول أن يقتطع من هذا التيار الذي لا يتوقف حالة نفسية معينة يفترض فيها الثبات، وهو بذلك لن يصل إلى حقيقتها مهما تكن قوة الطرق المنهجية التي قد يستخدمها.

والاعتراض على العلوم الإنسانية يتمثل في القول بفرادة الأحداث التي تدرسها وبجديتها المطلقة. هكذا فإنه من غير الممكن تكرار الحوادث الإنسانية. وحسب برغسون فإن حوادث الديمومة تتميز بالجددة والفرادة ولا يمكن تكرارها، هذا في علم النفس، والأمر سياتي في التاريخ.

المميزات التي تتميز بها الظواهر الإنسانية والتي تجعلها غير قابلة لأن تكون موضوعا لمعرفة علمية أن هذه الظواهر معقدة. والتعقيد يتمثل أولا في تشابك عوامل كثيرة في تكون الظاهرة، الأمر الذي يجعل ملاحظة الظاهرة بكل العوامل الداخلة في تكوينها أمرا عسيرا، إن لم يكن مستحيلا. ويظهر التعقد الذي تتميز به الظواهر الإنسانية من جهة أخرى، في أن الظاهرة الإنسانية خاضعة لتأثير ظواهر أخرى كونية وفلكية وفيزيائية وكيميائية وبيولوجية.

أما المستوى الثالث من التعقيد فيبدو في التداخل الذي يحصل بين واقع الظاهرة والمراد دراستها والمناهج التي نتوصل بواسطتها إلى معرفة هذه الظاهرة. إن الوسائل التي نتوصل بها ملاحظة الظاهرة قد يكون لها تأثير على هذه الظاهرة. فأسئلة الإستمارة مثلا لها تأثير في توجيه الظاهرة توجيها جديدا يختلف بها عن حقيقتها.

والظواهر الإنسانية تتميز بالنسبية التاريخية، وهذا أمر يزيد تعقيدا، فإننا قد نلاحظ حدوث ظاهرة إنسانية معينة في فترة تاريخية محددة ثم نلاحظ اختفاءها بعد ذلك في فترات تاريخية لاحقة. لذلك فإننا لا نستطيع أن نلاحظ الظاهرة بعينها حين ننطلق من فترة تاريخية لاحقة. وهذا لأن الظروف المماثلة لا تنشأ إلا في الفترة التاريخية الواحدة.

كما أن الظاهرة الإنسانية لا تخضع للتوقع الدقيق وذلك لأن الحتمية التي هي مبدأ العلم الأساسي غير ممكنة التحقق في مجال دراسة الإنسان. وما يمنع من تطبيق مبدأ الحتمية على الظواهر الإنسانية هو أن الإنسان كائن حر تصدر أفعاله عن إرادة حرة، لا عن تقييد بشروط معينة يمكن أن نرجع إليها لتفسير سلوكه.

ويتعالى الإنسان كموضوع على المعرفة العلمية لا بحريته فحسب بل بوحده الأنطولوجية أيضا. إن الإنسان واحد والعلوم الإنسانية متعددة. فكل علم من هذه العلوم يتناول جانبا واحدا من جوانب الإنسان المتعددة.

وآخر اعتراض على علمية العلوم الإنسانية من حيث الموضوع هو التداخل بين الذات والموضوع في هذه العلوم. ويبرز هذا التداخل على صعيد الإيديولوجيا ولذلك فإن الاعتراض على قيام العلوم الإنسانية قد لا يرى فيها إلا مجموعة من النظريات الإيديولوجية التي قد تستجيب لرغبة موقف مجتمعي أو فردي معين، لكن دون أن نستطيع أن نكون تفسيرا واقعا وحقيقيا للسلوك الإنساني.

أما من حيث المنهج فهناك اعتراضات عدة تقدم ضد علمية العلوم الإنسانية.

فأول هذه الاعتراضات يذهب إلى القول أنه حين يطبق الباحث المنهج العلمي في دراسة الموضوعات المختلفة، فإن تطبيق المنهج يكون على موضوع خارجي مستقل عن الباحث. وهذا هو الطريق الذي يضمن الموضوعية في العلوم الفلكية والفيزيائية والكيميائية. أما في العلوم الإنسانية فإن المنهج العلمي ينطبق على الإنسان نفسه، أي أن الإنسان في هذه الحالة يكون ممارسا للمنهج العلمي وموضوعا له في الوقت نفسه.

والعلوم الإنسانية تستخدم الملاحظة غير المباشرة، ولكن المعارضين يرون أن هذه الملاحظة لا تدرك الظاهرة على حقيقتها. وحتى الوسائط التي تستخدمها في دراسة الظواهر الإنسانية مثل الإستمارة تكون غير فعالة. فالكذب قد يتطرق إلى الإجابات المقدمة في أسئلة الإستمارة.

ويعترض على العلوم الإنسانية بعدم دقة فرضياتها وحيث أن للفرضية دورا مهما في العمل العلمي لأنها الأساس الذي ينطلق منه العالم للتعامل مع الظواهر تعاملًا تجريبيًا فإن هذا الاعتراض يعني أنه لا يمكن بصدد

الظواهر الإنسانية اتباع خطوات المنهج العلمي كما هي في العلوم الأخرى. والسبب في عدم إمكانية وضع الفرضيات في العلوم الإنسانية هو أن الفرضية يجب أن تكون صادرة على ملاحظة دقيقة وشاملة للظواهر المدروسة بحيث نلاحظها في جميع مظاهرها ومن حيث جميع العوامل التي تسهم في حدوثها. غير أن تعتقد الظاهرة الإنسانية من حيث تشابك العوامل المسهمة في حدوثها، من جهة، ومن جهة أخرى من حيث تداخل هذه العوامل مع الذات الباحثة، كل ذلك يحول دون القيام بالملاحظة الدقيقة ويمتنع عندئذ وضع فرضيات مثمرة.

كذلك لا يمكن التجريب في مجال الظواهر الإنسانية فالتجريب يقوم على إمكانية عزل الظواهر عن بعضها البعض، وعلى التكرار وهذا غير ممكن في الظواهر الإنسانية. كما لا يمكن إجراء التعميم ولا معرفة القوانين التي تحكم الظواهر الإنسانية.

وكذلك عدم قابلية الظواهر الإنسانية للقياس أي التكميم، هذا التكميم الذي بلغ بالعلوم الفيزيائية والكيميائية درجة الدقة والموضوعية. إن الظواهر الإنسانية كيفية.

وهكذا يتبين لنا أن المعارضين على علمية العلوم الإنسانية يستندون إلى حجج تتعلق بموضوع هذه العلوم وبمنهجها.

وثمة عائق إستيمولوجي يحول دون تحقق علمية العلوم الإنسانية ويتعلق الأمر بالعائق الإيديولوجي الذي كنا قد أشرنا إليه سابقا.

يذهب ماريو بونج إلى أنه فيما يتعلق بالإيديولوجية السوسيوسياسية فمن الطبيعي أن يكون لها تأثير على العلوم الاجتماعية. فالإيديولوجيا في نهاية المطاف تشتغل بالمشكلات الاجتماعية. إنها تجهد في جعلها بديهية أو إخفائها حسب الحالة، وتفضيل حلها، أو تعطل كل محاولة في هذا الاتجاه.⁵²

والإيديولوجيا تكون من نمطين: دينية وسوسيوسياسية. الإيديولوجيا السوسيوسياسية هي نظرة للعالم الاجتماعي. إنها مجموعة من المعتقدات حول المجتمع، حول المكانة التي يحتلها الفرد في هذا المجتمع، وحول تنظيم الجماعة وعلى مراقبتها السياسية. هذه المعتقدات يمكن تصنيفها إلى أربعة أقسام:

(1) - تأكيدات أنطولوجية حول طبيعة الشخص الإنساني والمجتمع. لأي نمط من الكائنات ينتمي الأشخاص (ماديًا، روحيا، أو الإثنين معا) بأية طريقة يتجمعون من أجل تكوين الجماعات، وما هي هذه الجماعات.

⁵²Mario Bunge , Epistémologie , Maloine S. a. editeur , 1983.

(2) -تأكيدات على المشكلات الاقتصادية والثقافية، والسياسية لمختلف أنماط الجماعات: على ماذا تقوم هذه المشكلات وما هي أولويتها.

(3) -أحكام قيمة على الأشخاص وأفعالهم، وكذا على المنظمات وأهدافها. ما هو حسن بالنسبة للمجتمع وما هو سيء له.

(4) -برنامج الفعل من أجل حل المشكلات الاجتماعية وبلوغ مجموعة من الأهداف الفردية والاجتماعية⁵³ وعن العائق الإيديولوجي في العلوم الإنسانية. يقول هيلاري روز "العلوم الاجتماعية قابلة لأن تخترق بالإيديولوجيا، وأن تكون حتى مكتسحة كلياً، وأن العلم الاجتماعي الرسمي يصبح بدوره سلاحاً إيديولوجياً. فالتوسير يرى أنه لا توجد ممارسة نظرية خالصة، علم عار تماماً. العلم لا يخلو دائماً من الإيديولوجيا".⁵⁴

ويرى جون بياجي أن العائق الإيديولوجي الذي يحول دون الوصول إلى معرفة موضوعية وربما كان هذا العائق هو الأهم والأكثر خصوصية فيما يتعلق بالفرق بين علوم الإنسان وعلوم الطبيعة. هذا العائق الكبير يرتبط عن قرب بصعوبات نزع التمرکز الفكري. هذا العائق يقوم على فكرة أن العالم ليس أبداً عالماً خالصاً، ولكنه دائماً ملتزم ببعض المواقف الفلسفية والإيديولوجية.

وإذا كان هذا الواقع ليس له إلا أهمية ثانوية في الأبحاث الرياضية أو الفيزيائية أو حتى البيولوجية، ففي العلوم الإنسان يكون له تأثير على بعض المشكلات المدروسة في هذه العلوم. فعلم النفس يختلف حسب الأوساط الثقافية، ولكن من غير تناقضات مقلقة، ذلك أن الاختلافات ترجع إلى تنوع المدارس وأكثر منه لاختلاف الإيديولوجيات. مع الاقتصاد وعلم النفس خاصة تشدد المواقف، حسب التيارات الإيديولوجية أو الفلسفة التي تدعم هذا التوجه أو ذاك في البحث، وحسب الميل إلى كشف هذا الوجه أو ذاك من الميادين المبحوثة. أو حسب أيضاً وصولها إلى تعقيم هذا العلم أو ذاك بمقابلة بشكل ضمني أو حتى بشكل ظاهر. المثال الأول الصادم هو مثال الفلسفة التجريبية حيث التقليد يبقى حياً جداً في الإيديولوجيات الأنجلوساكسونية وحيث أن النتائج الحالية هو الحركة المسماة التجريبية أو الوضعية المنطقية هذه الفلسفة التجريبية لعبت دوراً غير هين في تكوين وتطور عدة أوجه من العلوم الإنسانية يمنحها بعض التوجهات، فباعتبارها فلسفة أو تجسيدا للإيديولوجيا، لعبت التجريبية في بعض الحالات دوراً توجيهياً. التجريبية لا تكتفي فقط بالتشديد على ضرورة التجريب في كل

⁵³Ibid.

⁵⁴Hilary Rose et Alu , L'ideologie de/dans la science , Editions du Seuil , Paris , 1977.

العلوم المنصبة على أسئلة الوقائع (علم النفس وغيره) ولكنها تضيف إلى هذا تأويلا خاصا للتجربة، سواء المتعلقة بالعالم أو بالذات الإنسانية عموما (موضوع الدراسات السيكلولوجية والسوسيولوجية) باختزال هذه التجربة إلى تسجيل بسيط للمعطيات الملاحظة بدلا من النظر إليها مثل إستيمولوجيات أخرى كتنظيم فعال للأشياء، دائما موحدا لأفعال الذات ومحاولاتها للتفسير.⁵⁵

من جهته محمد وقيدي يتناول مسألة الخلفيات الإيديولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية المتعلقة بالمغرب من خلال دراسته لإنتاج عالم اجتماع هو روبرت مونتاني Robert MONTAIGNE. إن دراسة الخلفيات الإيديولوجية لعلم ما تعني البحث في الشروط المعرفية والاجتماعية والتاريخية التي نشأ فيها هذا العلم وفي أثرها على تكون نظرياته ومفاهيمه.

والبحث عن الخلفيات الإيديولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية لا يدعو إلى رفض هذا التراث الذي ننقده، لقد أمدتنا العلوم الاجتماعية الاستعمارية المتعلقة بالمغرب بمعطيات تفيد إلى حدود بعيدة الباحث الاجتماعي الراهن. إن النقد الإيديولوجي عندما يكتفي بأن يسم الفكر المضاد له بالإيديولوجيا يظل هو ذاته كذلك. إن النقد الموجه للعلوم الاجتماعية الاستعمارية يكون وعيا بالسمة الإيديولوجية لفكر الغير أو لفكرة فترة حضارية أخرى.

تظهر السمة الإيديولوجية للعلوم الاجتماعية والاستعمارية في عدة مظاهر:

أ) -إن العلوم الاجتماعية الاستعمارية هي استمرار للأبحاث الاجتماعية الغربية التي بدأت مع علم الاجتماع عند أوغست كونت. فقد دعا كونت في دروسه الوضعية إلى دراسة الظواهر المجتمعية في المجتمعات الأقل تقدما، وذلك اعتمادا على مسلمة مفادها أن الأقل تعقيدا يفيد في فهم الأكثر تعقيدا، وأن الباحث يقف في المجتمعات الأقل تقدما على حقيقة المراحل التي يمر منها أي مجتمع في تطوره قبل بلوغه المرحلة الوضعية التي بلغها المجتمع الغربي مع الثورة الصناعية. وهكذا انقسم علم الاجتماع الغربي على نفسه منذ البداية إلى علم الاجتماع المتعلق بالمجتمع الغربي ذاته، وإلى الأبحاث المتعلقة بالمجتمعات غير الغربية وهي الأبحاث التي من ضمنها علم جديد هو الأنثروبولوجيا. ويعتقد محمد وقيدي أن دراسة كتاب مثل الذي ألفه ليفي سيرول حول العقلية البدائية، يبرز لنا الاتجاه الذي سار فيه علم الاجتماع الغربي بعد أوغست كونت. ويعتقد أن العلوم الاجتماعية الاستعمارية استمرار لهذا الاتجاه.

⁵⁵Jean Piaget ,op.cit.

(ب) -تظهر السمة الإيديولوجية للعلوم الاجتماعية الاستعمارية في إرتباطها بالأهداف العملية للحركة الاستعمارية. فالباحثون الاجتماعيون الذين صدرت عنهم مجموع الأبحاث التي يتكون منها علم الاجتماع الاستعماري كانوا مرتبطين بالسلطة الاستعمارية، يجرّون أبحاثهم في خدمة مخططات وأهداف هذه السلطة. وأكثر من ذلك فإن كثيرا من الباحثين الاجتماعيين قد كانوا في الوقت نفسه جزء من السلطة الاستعمارية، كما هو الحال مع روبير مونتاني، ولذلك فإن المشكلات التي كان يتجه إليها البحث في العلوم الاجتماعية، كانت تفرضها حاجة السلطة الاستعمارية إلى معرفة تمكنها من التعرف على الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها مسلكها إزاء المجتمع الذي هو موضوع هيمنة استعمارية. وهذا الارتباط بين البحث الاجتماعي وبين الأهداف العملية للسلطة الاستعمارية يعبر عنه بوضوح عدد من علماء الاجتماع. فقد انعقد سنة 1900 بباريس مؤتمر دولي لعلم الاجتماع الاستعماري.

وفي التقرير التمهيدي الذي حدد فيه أحد الباحثين أهداف هذا المؤتمر نجد قوله: " إن مؤتمر علم الاجتماع الاستعماري هو مؤتمر موضوعه دراسة المسائل الأخلاقية والاجتماعية المرتبطة بحركة الاستعمار"⁵⁶. لقد كانت الحركة الاستعمارية عندئذ في حاجة إلى البحث عما يدعم هيمنتها وإلى معرفة الخطوط العامة للسياسة التي يمكن أن تحافظ على هذه الهيمنة. ويمكننا القول بهذا الصدد أن العلاقة كانت جدلية بين المعرفة الاجتماعية كنظرية وبين السياسة الاستعمارية كواقع مجتمعي تاريخي. لقد بدأت الهيمنة الاستعمارية تدرك أن حكم الأهالي لا يستقيم إلا بمعرفة معمقة للغاتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم وأخلاقهم. وكان الهدف النهائي للمعرفة الاجتماعية هي جعل الاستعمار مشروعاً وأمرًا مقبولا.

(ت) -تبرز السمة الإيديولوجية للعلوم الاجتماعية في موقفها من ظاهرة الاستعمار، فإن تلك العلوم لا تضع أبدا هذه الظاهرة موضع سؤال. لقد أكد التقرير العام للمؤتمر العالمي المذكور أن ظاهرة التوسع الاستعماري يمكن النظر إليها من حيث هي ظاهرة لا مناص منها ولم يكن من الممكن تجنبها، وذلك لأنها نتيجة محتومة للنظام الرأسمالي وللتطور الاقتصادي للقرن التاسع عشر .

ومن جهة أخرى كانت تبدو ظاهرة الاستعمار في نظر علماء الاجتماع الاستعماريين وسيلة لتحديث المجتمعات التقليدية ونقل آثار الحضارة الغربية إليها بما يرافقها من مظاهر التقدم. واعتبارا لذلك كله، فلن يكون

⁵⁶ محمد وقيدى، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، مطبعة فصالة، المحمدية، المغرب 1988.

هنالك من مستقبل لظاهرة الاستعمار غير أن تستمر. وقد انتدب علم الاجتماع الاستعماري نفسه للبحث عن وسائل هذا الاستمرار.

بالنسبة لروبير مونتاني فقد ألف كتابه " التطور الحديث للبلاد العربية "، وقد تضمن عددا من المفاهيم العامة التي تتعلق بالبنيات المجتمعية في العالم العربي عامة، ولأنها تتعلق من جهة أخرى، بنوع العلاقات الحضارية العامة الناتجة بين البلدان العربية والعالم الغربي نتيجة لظهور ظاهرة الاستعمار.

أول هذه المفاهيم مفهوم الحماية، والذي يلعب على صعيد الإيديولوجيا مبررا لظاهرة الاستعمار ويجعلها مقبولة لا عند من هو محل لها فحسب، بل عند من يمارسها أيضا. كان المستعمر يريد أن يشعر نفسه بهذا المفهوم أنه يمارس في البلاد التي يستعمرها نقدا للآثار المدنية الغربية الحديثة. كتب أخرى للمؤلف: " البربر والمخزن في جنوب المغرب " وهو كتاب يتعرض فيه الكاتب لعلاقة القبائل البربرية بالمخزن، ثم " ثورة في المغرب " وهو كتاب يعرض فيه الكاتب لسياسته الاستعمارية في المغرب، و " نشأة البروليتاريا المغربية " وهذا الكتاب مؤلف جماعي أشرف على وضعه روبير مونتاني. وهو يبحث في نشأة البروليتاريا المغربية بالبحث في العوامل التي ساهمت في تلك النشأة وفي المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي نجمت عنها أو ارتبطت بها.

وفي كتابه " بؤس الإيديولوجيا " يبرز لنا كارل بوبر الخلاف بين المذهب التاريخي والمذهب الطبيعي المنهجي في علم الاجتماع حول علمية العلوم الإنسانية.

فثمة معارضة شديدة من طرف المذهب التاريخي للمذهب الطبيعي والمنهجي في علم الاجتماع، فيزعم أن بعض المناهج التي تتميز بها العلوم الطبيعية لا يمكن تطبيقها على العلوم الاجتماعية، وهذا بسبب الفوارق العديدة والعميقة بين هذه العلوم والعلوم الطبيعية. ويقول المذهب التاريخي أن القوانين الفيزيائية أو قوانين الطبيعة هي قوانين صادقة في كل زمان ومكان وذلك لأن عالم الطبيعة تسيطر عليه مجموعة من القوانين الفيزيائية التي لا تختلف باختلاف المكان والزمان. أما القوانين الاجتماعية فتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة. ورغم تسليم المذهب التاريخي بأن كثيرا من الظروف الاجتماعية النموذجية يعود إلى الظهور على نحو منتظم فهو ينكر أن يكون لانتظام وقوع الحوادث في الحياة الاجتماعية ما لنظيره في العالم الفيزيقي من طابع ثابت. وذلك لأن الحوادث الاجتماعية المنتظمة تعتمد في وقوعها على التاريخ، كما أنها تعتمد على الفوارق الحضارية، أي أنها تعتمد على موقف تاريخي معين. ومن ثم لا ينبغي للمرء أن يتكلم عن القوانين الاقتصادية مثلا من غير تقييد، وإنما يجوز له فقط أن يتكلم عن القوانين الاقتصادية في عهد الاقطاع أو القوانين الاقتصادية في مطلع العهد

الصناعي وهكذا، أي يجب أن يذكر المرء دائما الفترة التاريخية التي سادتها في زعمه القوانين التي يتحدث عنها. والحجج الرئيسية التي يبني عليها المذهب التاريخي دعواه تتعلق بالتعميم والتجربة وتعدد الظواهر الاجتماعية، وصعوبة التنبؤات الدقيقة، وأهمية القول بالماهيات من وجهة النظر المنهجية.⁵⁷

1- التعميم: يرى المذهب التاريخي أن إمكانية التعميم ونجاحه في العلوم الطبيعية راجعان إلى اطراد الحوادث الطبيعية وانتظامها بوجه عام، وهذا يسمح بالقول أن في الظروف المتماثلة تحدث أمور متماثلة، وهذا ممتنع في العلوم الاجتماعية لأن الظروف المتماثلة لا تنشأ إلا في الفترة التاريخية الواحدة. وهي لا تظل على حالها قط فترة بعد أخرى. وعليه لا يوجد في المجتمع اطراد طويل الأمد يصلح أن يكون أساسا للتعميمات.

2- التجربة: تستخدم العلوم الطبيعية منهج التجربة، أي أنها تتوصل إلى عزل الظواهر الطبيعية صناعيا والتحكم فيها حتى تتوصل إلى تحقيق الظروف المتماثلة مرة بعد أخرى، وما يترتب على هذه الظروف من نتائج معينة. وهذا المنهج يبني على فكرة أن نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج. وهذا المنهج يمتنع تطبيقه في العلوم الاجتماعية بحسب دعوى التاريخية. وذلك أنه ما دامت الظروف المتماثلة لا تتحقق إلا في حدود الفترة التاريخية الواحدة، فلن يكون لأية تجربة تجريها إلا دلالة محدودة جدا. ثم إن عزل الظواهر الاجتماعية صناعيا من شأنه أن يستبعد العوامل التي لها الأهمية العظمى في علم الاجتماع.

3- الجدة: المجتمع له تاريخ وهذا التاريخ يتميز بعدم تكرار الماضي، فالتاريخ لا يعيد نفسه. إنه يستحيل في الحياة الاجتماعية أن تبقى العوامل القديمة في الترتيب الجديد كما كانت عليه من قبل تماما. وحيث يستحيل التكرار التام فلا بد من ظهور الجدة الحقيقية. فهذه الجدة هي التي تمنع من تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على ظواهر الحياة الاجتماعية.

4- التعقيد: تتميز ظواهر الطبيعة بدرجة أقل من التعقيد ولكن في العلوم الاجتماعية هناك درجة كبيرة من التعقيد، وهو على نوعين: تعقيد ناشئ عن استحالة العزل الصناعي، وتعقيد راجع إلى أن الحياة الاجتماعية ظاهرة طبيعية تفترض الحياة النفسية للأفراد، أي علم النفس، وهذا بدوره يفترض علم الحياة الذي يفترض هو الآخر علمي الكيمياء والفيزياء.

5- عدم الدقة في التنبؤ: إن التنبؤ الاجتماعي يكون أمرا عسيرا جدا لا بسبب تعقد الأبنية الاجتماعية فحسب، بل أيضا بسبب ذلك التعقد الخاص الناشئ عن تبادل التأثير بين التنبؤات والحوادث المتنبأ بها.

⁵⁷كارل يوبر، يؤسس الإيديولوجيا، تر. عبد الحميد صبرة، دار الساقى، بيروت، 1992.

6- **الموضوعية والتقويم:** المذهب التاريخاني يرى أن للميول والمصالح تأثير في مضمون النظريات والتنبؤات العلمية، فلا يمكن في العلوم الاجتماعية السيطرة على التحيز. ولذلك العلوم الاجتماعية نجدها لا تقترب إلا قليلا جدا من مثال البحث الموضوعي عن الحقيقة كما نصادفه في العلوم الطبيعية. فيجب أن نتوقع العثور في العلوم الاجتماعية على نفس الميول التي نجدها في الحياة الاجتماعية، كما ينبغي أن نتوقع تعدد وجهات النظر بقدر ما يوجد من مصالح.

7- **النزعة الكلية:** يعتقد التاريخانيون أن هناك سببا أعمق مما تقدم يمنع تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في العلوم الاجتماعية. فيقولون إن علم الاجتماع مثله مثل العلوم البيولوجية جميعا، أعني كل العلوم التي تنظر في الكائنات الحية، لا ينبغي أن يتبع في بحثه طريقة ذرية، بل يجب أن يسير على الطريقة المعروفة الآن بالطريقة الكلية. وذلك لأن موضوعات علم الاجتماع، وهي الجماعات، لا ينبغي أن ننظر إليها أبدا على أنها مجرد مجموعات من الأفراد. فالجماعة أكثر من مجرد مجموع أفرادها. وهي أكثر من مجموع العلاقات القائمة في أية لحظة بين أفرادها. ولكل جماعة من الجماعات تقاليدها ونظمها وشعائرها الخاصة بها.

8- **الإدراك الحسي:** يرى المذهب التاريخاني أن علم الطبيعة يهدف إلى التفسير العلمي، أما علم الاجتماع فيهدف إلى إدراك الأغراض والمعاني. وفي علم الطبيعة تفسر الحوادث تفسيراً كمياً محكماً، ويكون هذا التفسير بواسطة الصيغ الرياضية. أما علم الاجتماع فيحاول فهم التطورات التاريخية بواسطة يغلب عليها الطابع الكيفي، فيعتبر التاريخ مثلاً صراعاً بين الميول والأهداف أو يلجأ إلى ما يسمى بالطابع القومي أو روح العصر.

وهذا هو السبب في أن علم الطبيعة يستخدم التعميم عن طريق الاستقراء، في حين أن علم الاجتماع ليس له إلا أن يستعين بالمشاركة الوجدانية عن طريق المخيلة. وهو أيضاً السبب في قدرة علم الطبيعة على الوصول إلى القوانين الكلية وتفسير الحوادث الجزئية باعتبارها حالات خاصة لهذه القوانين، بينما لا بد لعلم الاجتماع من أن يقنع بإدراك الحوادث الفذة إدراكاً حدسياً، وأن يكتفي بفهم دورها في المواقف المعينة الناشئة في إطار معين من صراع المصالح أو الميول أو المصائر.⁵⁸

وينبغي التمييز بين ثلاث صور مختلفة لمذهب الإدراك الحدسي. الصورة الأولى تتعلق برد الحادث الاجتماعي إلى القوى التي تسببه أي التوصل إلى معرفة الأفراد والجماعات المتصلة بهذا الحادث. وما لكل منها من

⁵⁸كارل يوبر، مرجع سابق، .

أغراض ومصالح. وما نستطيع تصريفه من قوة. والصورة الثانية تذهب إلى أبعد من معرفة الأسباب فينبغي علاوة على ذلك أن نفهم معنى وقوع الحادث الاجتماعي وأهميته.

أما الصورة الثالثة فتذهب بدورها أكثر مما تقدم ولكن دون أن تفرط في شيء مما يقول به المذهب في صورته الأولى والثانية. يقرر المذهب في هذه الصورة الثالثة أن إدراك معنى الحادث الاجتماعي وأهميته يتطلب منا أكثر من تحليل نشأته وآثاره، وقيمته في الموقف الذي وقع فيه. فمن الضروري زيادة على ما سبق أن نحلل ما وراء الحادث من اتجاهات وميول موضوعية تاريخية تسود الفترة التي حدث فيها. كما يجب أن نحلل مقدار ما يساهم به ذلك الحادث في العملية التاريخية التي تمخضت عن هذه الاتجاهات.

8- **المناهج الكمية:** يقول التاريخانيون أن الحوادث تفسر في علم الطبيعة تفسيراً كمياً، محكماً ومضبوطاً وهذا التفسير يكون بواسطة الصيغ الرياضية. أما علم الاجتماع فيحاول فهم التطور التاريخي على نحو يغلب عليه الطابع الكيفي، كأن يحاول تفسيره بواسطة الميول والأهداف المتنازعة.

ولكن هذه الاعتراضات تعكس حقيقة واقع العلوم الإنسانية. يقول محمد وقيدى: " لا نعتقد أن الأمر كذلك لأنه في موازاة الواقع الذي ترسمه تلك الاعتراضات هناك تقدم للعلوم الإنسانية منذ نشأتها وحتى الآن. وهو تقدم لم يجعل هذه العلوم جزءاً من الثورة التي عرفتها المعرفة الإنسانية منذ القرن التاسع عشر فحسب، بل جزءاً من الثورة التي عرفها تطبيق المعارف النظرية في المجالات المختلفة لحياة الإنسانية، فللعلوم الإنسانية اليوم مظهرها التكنولوجي كما هو الأمر بالنسبة للعلوم الأخرى. لذلك لا ينبغي الوقوف عند منطق الاعتراضات، بل ينبغي تجاوزها جدلياً باكتشاف الآفاق التي يرشدنا إليها منطق التقدم الحاصل منذ بدايات العلوم الإنسانية إلى الآن".⁵⁹

ومن أجل تجاوز منطق هذه الاعتراضات يجب معرفة مصدر هذه الاعتراضات. في الواقع إن هذه الاعتراضات تصدر أولاً عن الاتجاهات الفلسفية المثالية والروحانية التي يزيد كل إكتشاف علمي جديد من التباعد بين أطروحاتها وبين مقتضيات الفكر العلمي، وتصدر هذه الاعتراضات ثانياً عن فهم خاص لعلاقة النموذج المنهجي في علوم الطبيعة بالمنهج في العلوم الإنسانية، حيث تفهم معايير العلمية في علوم الطبيعة كما لو كانت مقاييس ثابتة ونهائية للفكر العلمي مهما يكن موضوعه. لذلك تبدوا العلوم الإنسانية عندما تقاس بهذا المعيار موضوعاً لاعتراضات متعددة.

⁵⁹ محمد وقيدى، مرجع سابق.

وتصدر هذه الاعتراضات ثالثا عن وجهة نظر سكونية إلى واقع العلوم الإنسانية، لا تأخذ بعين الاعتبار كثيرا من مظاهر التقدم التي تحققت في هذه العلوم، وكثيرا في الطرق المنهجية التي تجاوزت بها الصعوبات التي واجهتها في نشأتها وتطورها.

وتجاوزا للاعتراضات على إمكانية قيام دراسات علمية بالإنسان يقتضي توضيح موقف الفلسفات المثالية والروحانية من الثورة العلمية بصفة عامة، ويقتضي ثانيا تبيان معايير العلمية الخاصة بالعلوم الإنسانية، وأخيرا يقتضي أن نبين التقنيات المتعددة التي اعتمدها علماء الإنسان لتجاوز الصعوبات التي تعترضهم في ميدان دراستهم. فبالنسبة للقضية الأولى فإنه قد حدثت ثورات علمية في المجالات المتعددة بما في ذلك مجال الإنسان أدت إلى تهاوي أطروحات الفلسفات المثالية والروحانية، يكفي مثلا أن نذكر أن فرويد بتأويله للأحلام كظاهرة وبين مجموع الحياة النفسية اليومية، فإننا بذلك نسير في اتجاه تفسير واقعي للحياة النفسية الإنسانية، يخالف ما سلفه من تفسيرات غير علمية.

أما القضية الثانية فلا يجب أن نعتقد بمعايير ثابتة ونهائية للعلمية ونقول يجب تطبيق المنهج العلمي المطبق في العلوم الطبيعية بحذافيره، وفي هذا تعال عن خصوصية الظاهرة الإنسانية. لقد كان من اللازم أن يقع الوعي بأن للعلوم الإنسانية من حيث الظواهر التي تدرسها خصوصيات تنعكس على صورة المنهج فيها. يمثل المنهج عقلانية العلم، ولكن هذا لا يلزم جميع العلوم بأن تكون على نفس الصورة من العقلانية. من جهة أخرى يجب التأكيد بأنه حتى في العلوم الطبيعية جرت تطورات في المنهج وخطواته وإنطرحت بعض الإشكاليات بهذه الخطوات فمثلا في الميكروفيزياء أعيد النظر في مسألة الملاحظة ومبدأ الحتمية. فالملاحظة صارت لا تفصل عن وسيلة الملاحظة وبالتالي عن الملاحظ، كما أنه جرى طرح الاحتمية في مقابل الحتمية.

أما القضية الثالثة فالعلوم الإنسانية كل منها تلمس طريقه الآمن نحو العلمية، وطبق مجموعة من التقنيات والأساليب المناسبة والمتوافقة مع خصوصيته وحتى تطبيق القياس على الظواهر الإنسانية صار أمرا شائعا كما في الديمغرافيا وعلم الاقتصاد.

ومن جهته بول موي يرد على كل الاعتراضات السابقة مبينا الطابع الوضعي للعلوم الإنسانية فيبين أنه منذ أن قال سقراط كلمته المشهورة اعرف نفسك أصبح التفكير في الإنسان من المهام التي يوجه الفيلسوف عنايته على الدوام. ولكن بازدياد شعور العلم باستقلاله وبإمكانيته، نمت فكرة وضع علوم إنسانية موازية لعلوم الطبيعة.

تشارك معها في الروح على الأقل، إن لم يكن في المنهج. وكثيرا ما كانت هذه العلوم تسمى بالعلوم الأخلاقية حيث يقصد بالأخلاقي، العقلي في مقابل المادي. ولكن التسمية المفضلة اليوم هي العلوم الإنسانية.

والعلوم الإنسانية على كثرتها تنقسم عادة إلى ثلاثة أقسام كبرى: علم النفس الذي يدرس الإنسان من حيث هو فرد، ويبحث في أفعاله وأفكاره وعواطفه، وما يكونه وما يفعله. والتاريخ يدرس ماضي البشر، والحوادث التي تتحكم فيه، أما علم الاجتماع فيلتزم بمعالجة الأمور من خلال هذا المنظور الجديد، فهو غالبا ما يدع العنصر الفردي جانبا لكي يدرس العنصر الاجتماعي. ولكن لم هذه الكثرة في العلوم الإنسانية ؟ إن هذه الكثرة ترجع إلى أن من طبيعة كل علم، ولا سيما علوم الطبيعة أن يتخصص ويسقل عن غيره بقدر ما يحرز من تقدم فمن الممكن أن يدرس الموضوع الواحد من زوايا مختلفة كل على حدة، تفي بمقتضيات وجهات نظر مختلفة. وتعبير عن حاجات مختلفة أو عن أساليب عملية متباينة. فكما أن الحجر يمكن أن يدرس من وجهة النظر الجيولوجية، أو الطبيعية الكيميائية، كذلك يمكن دراسة الإنسان باعتباره كائنا عضويا، أو شخصية أو محركا للتاريخ أو فردا في المجتمع. وعن امكانية قيام العلوم الإنسانية يتساءل بول موي هل يمكن أن يكون الإنسان موضوعا للعلم، إذا كان في الوقت نفسه صانع العلم ؟ وهل نستطيع أن نرجع الإنسان إلى مجرد شيء من الأشياء، دون أن نبخسه حقه تماما ؟

ويجب " علينا أن نقرر بوضوح أن معرفة الإنسان قد أحرزت قدرا من التقدم ينبغي أن يعزى إلى العلم. فعلى حين أنه قد يكون من الضروري، في كل تفكير جديد، أن يستعاد البحث في المشكلات الميتافيزيقية المتعلقة بالموقف الإنساني والمشاكل الخاصة بالواجبات الأخلاقية مرة أخرى، فإن معرفتنا بالأصول النفسية للسلوك، بكل شروطه العضوية قد إزدادت وضوحا.

ولكن العلم يصل إلى القوانين، فهل يمكن أن يتوصل علم الإنسان إلى قوانين ؟ وهل يستطيع الاهتداء إلى تتابعاتسببية ؟ وهل تنطبق الحتمية على الإنسان ؟ الحق أن إمكان قيام العلوم الإنسانية رهن بهذا الشرط كما هي الحال في سائر العلوم.

والواقع أن من الممكن أن يكون الإنسان موضوعا لعلم وضعي، لأنه يمكن أن يخضع لملاحظة منهجية، ولأن سلوكه، وهو كائن فردي، يتم عن اطرادات منتظمة وعن صور إجمالية تشهد بوجود طبيعة بشرية يمكن تعميمها. ولأن سلوكه ليس فرديا فحسب، بل هو اجتماعي أيضا، ومن ثم يمكن تحديده موضوعيا على نحو ما

ينبئنا علم الاجتماع، وأخيرا لأن الحرية إن كانت مضادة لعبودية الأهواء من الوجهة الأخلاقية وللتقدم المحتوم من الوجهة الميتافيزيقية، فإنها لا تتنافى مطلقا مع الحتمية والتي تحاول علوم الإنسان الكشف عنها".⁶⁰

2-الموضوعية في العلوم الإنسانية:

يذهب صلاح قنصوة إلى أن الموضوعية هي المشكلة الأساسية لعلوم الإنسان حيث لم يقف فهمه للموضوعية عند دلالتها السلبية التي تجعلها إمتناعا عن التأثير بالتحيزات، بل جعلها المحور التي تدور حوله جهود العلماء في التصدي للتحديات والصعاب التي تواجه البحث في العلوم الإنسانية من جهة النوعية الخاصة بموضوع البحث نفسه، ومن جهة علاقة الباحث بهذا الموضوع. وبهذا تصبح قضية الموضوعية في هذه العلوم هي بعينها قضية تأسيس المشروع العلمي من حيث تطور طبيعته، وإمكان قيامه، وطرق تحقيقه⁶¹. وكل من يعرض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للصعاب التي تواجه هذه العلوم لكي تبلغ مستوى العلوم الطبيعية ونجاحها أو تتمثل روحها وطابعها.

تناول الموضوعية يقتضي التميز في دراستها بين دلالات ومستويات متباينة.

فأما دلالتها فتبرز في مقدمتها دلالتها الأكسيولوجية (القيمة) الدائعة الشهرة، وهي تعد الموضوعية تجردا عن حكم من أحكام القيمة. ودلالتها الإبستمولوجية (المعرفية) التي تعنى بالصلة بين الذات العارفة والموضوع المعروف. وهي لا تعني مجرد القول بمعرفة الأشياء على ما هي عليه. وفي ساحة الدلالة الإبستمولوجية يتشعب النزاع بين ضروب الواقعية والمثالية وبين النزعات التجريبية والحدسية وبين صور الإرتيابية والدوجمائية. وهناك الدلالة السيكلولوجية متى كانت الموضوعية تمحيصا لأثر العوامل النفسانية في تشكيل المعرفة.

وأخيرا دلالتها الثقافية التي تشير إلى الاتفاق أو التوافق حول المعايير والتدابير السائدة في المناخ الفكري عند موضوع الدراسة بحيث تؤسس التعريفات والمفاهيم وسائر الخطوات والأدوات على طائفة من الاجراءات والتصورات التي يتفق المجتمع العلمي في هذا الوقت أو ذاك على الالتزام بها لكي توفى شروط التحقيق والاثبات.

أما مستويات دراسة الموضوعية في العلوم الإنسانية فتنقسم إلى مستويين رئيسيين: المستوى الأنطولوجي الذي يتصل بالمحتوى العياني لعناصر النظرية العلمية. وثانيهما المستوى الميتودولوجي الذي يتعلق بالمنحنى المنهجي

⁶⁰ بول موي، المنطق وفلسفة العلوم، تر: فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا للطباعة والنشر، الإسكندرية، ب س.

⁶¹ صلاح قنصوة، الموضوعية في العلوم الإنسانية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1984.

في دراسة موضوعات البحث. فبينما يتقوم المستوى الأول بالإجابة عن السؤال: ماذا ندرس؟ يتقوم المستوى الثاني بالإجابة عن السؤال: كيف ندرس؟

المستوى الأنطولوجي هو الذي نناقش في نطاقه دعاوي أصحاب النزعة الموضوعانية Objectivisme والنزعة الذاتية Subjectivisme فيما يتعلق بإمكانية وجود الوقائع مستقلة خارج عقل الباحث. فالموضوعانيون يلحون في نظرياتهم على ما هو ظاهر ومشارك ومحتوم وليس للخبرة الذاتية الفردية فيه نصيب في إنشائه. والذاتيون لا يعترفون إلا بما يؤلفه الوعي الإنساني والخبرة الذاتية من أفعال أو وقائع أو تجارب حية. الموضوعانيون يعنون بما هو سلوك ظاهر صريح، يتوجه الذاتيون إلى ما تتطلبه الوقائع من وعي وإرادة وبواعث لا تنكشف إلا عن طريق مناهج التفهم. والمشاركة المتعاطفة وغيرها. والاختلاف بين الموضوعانيين والذاتيين هو اختلاف يتعلق بوجهة النظر إلى طبيعة الواقعة أو الظاهرة الإنسانية والاجتماعية.

وفي المستوى الميتودولوجي يتفاوت تقدير أثار التحيز في بحث الإنسان والمجتمع، وتتمايز أساليب الدراسة ومناهجها. وهنا تبرز الثنائيات الماثورة في تصنيف العلوم الإنسانية. فنجد مثلا تقسيم فندلباند لها إلى علوم إيديوجرافية وعلوم نوموطيقية، فالأولى تقتصر على وصف الأنماط وإلى حالات الفردية ومقارنتها، بينما تتطلع الثانية إلى إقامة القوانين العامة.

الموضوعية من الخارج: الواقعة:

يمكن التمييز في ما يتعلق بالواقعة في تناول مشكلة الموضوعية بين أصحاب النزعة الطبيعية التي لا ترى فرقا بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وتضم هذه النزعة الوضعية باتجاهاتها المتعددة كالتجريبية والنزعة الفيزيائية والوضعية المنطقية، كما تنتسب إليها النزعة الإجرائية والسلوكية.

الواقعة شيئا خارجيا مستقلا: (أميل دوركايم):

كان دوركايم أكثر الباحثين إفصاحا عن الصلة بين الواقعة والموضوعية، ولكنه جمع في تناوله للموضوعية العلمية بين تصورها وصفا للواقعة يجعلها شيئا خارجا مستقلا عن الباحث، وبين تصورها شرطا للالتزام بالمنهج العلمي يجنب الباحث التأثير بعوامل التحيز في دراسته للواقعة.

والقضية التي تشكل القاعدة في منهجه هي اعتبار الوقائع الاجتماعية على أنها أشياء، ولا يعني هذا أن الوقائع الاجتماعية أشياء مادية، ولكنها ظواهر قابلة للتفسير والتكميم، وأنا ننزع في دراستها وقد التزمنا بأن

معرفتها على ما هي عليه، ومعرفة خصائصها المميزة وعللها المجهولة التي تقوم عليها لا يمكن أن تكشف عن طريق الاستبطان أي التأمل الذاتي.

وإلى جانب الوجود الخارجي المستقبل للواقعة الاجتماعية يضيف إليها دوركلم صفة القهر فهي آمرة قاهرة تفرض نفسها على الفرد شاء ذلك أم لم يشأ.

يوجز دوركلم تعريفه للواقعة الاجتماعية بقوله: "إنها كل ضرب من العمل (أو السلوك) ثابت كان أم غير ثابت، وقابلا لأن يمارس على الفرد قسرا خارجيا، أو بعبارة أخرى، هي ما يكون عاما على إمتداد مجتمع له وجود خاص، ويكون مستقلة عن تجلياتها (أو مظاهرها) الفردية".⁶²

والقاعدة الثانية هي: "يجب أن لا نتخذ موضوعا للبحث قط إلا ما كان طائفة من الظواهر التي سبق تعريفها بخواص خارجية معينة تكون مشتركة بينها، وأن يجري نفس البحث على كل ما ينطبق عليه هذا التعريف من ظواهر".⁶³

فنحن مثلا ندرج طائفة من الأفعال نطبق عليها عنوانا مشتركا ليكون الجريمة مثلا، ونجعل من الجريمة التي عرفناها على هذا النحو موضوعا لعلم خاص هو علم العقاب وهكذا نصنع في سائر العلوم .

والقاعدة الثالثة: "عندما يشرع عالم الاجتماع في استكشاف نظام معين من الوقائع الاجتماعية، فعليه أن يبذل جهده في النظر إلى هذه الوقائع من الجهة التي تتمثل فيها معزولة عن تجلياتها ومظاهرها الفردية، ويمكن أن نتبين الافتراضات التي تقوم عليها النزعة السوسيولوجية لدى دوركلم. أولها هو وحدة الطبيعة وثانيهما هو أن الظواهر الاجتماعية جزء من العالم الموضوعي للطبيعة، أي أنها واقعية، وثالثها هو أن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانينها ومبادئها الخاصة التي هي قوانين ومبادئ طبيعية، ويترتب على هذا إمكان خضوع الظواهر للبحث العلمي، وبالتالي لقوانين البحث العلمي وقواعده التي أهمها مبدأ العلية.

الواقعة: معطى حسيا مقيسا: "الوضعيات المحدثة والسلوكية": شغل رواد هذا الاتجاه بتأكيد وحدة العلم عبر وحدة المنهج التجريبي الذي يمكن أن يطبق على كل جوانب الكون ومن بينها الإنسان والمجتمع إذا أريد لهما أن يخضعا للدراسة العلمية.

⁶²المرجع نفسه.

⁶³المرجع نفسه.

ويصطلح أحيانا على تسمية هذا الإتجاه بالتجريبية العلمية التي تندرج تحتها جماعات وأشخاص تنتمي إلى نزعات ومذاهب كثيرة أهمها الوضعية المحدثه والنقدية التجريبية، والوضعية (أو التجريبية) المنطقية، والاجرائية، والسلوكية.

ولدى أصحاب هذه النزعات لا تصنف العلوم إلى علوم طبيعية وإنسانية، لأن موضوع الدراسة لا شأن له بتميز علم من آخر ما دامت تتوجه جميعا إلى الوقائع. ولذلك تنقسم العلوم إلى فئتين كبيرتين: الأولى: صورية وهي تضم المنطق والرياضيات، والثانية، العلوم الوقائية وتضم معا علوم الطبيعة والإنسان والمجتمع ... فالعلوم الاجتماعية ليس لها مناهج تميزها عن العلوم الطبيعية، فالإجراءات العلمية الأساسية واحدة في كليهما وهي الملاحظة والوصف والقياس والإحصاء، وإكتشاف القوانين وصوغ النظريات.

الموضوعية من الداخل " الماهية ":

بينما يؤكد أصحاب الاتجاه السابق أنه لا فرق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى تأكيد الخلاف بينهما ويتوجهون بصراحة جسورة إلى قلب المشكلة توطئة لتأسيس جذري للعلوم الإنسانية وتقديم حل يعتقد معظمهم أنه الحل النهائي اليقيني الوحيد. ولما كانت العلوم الإنسانية مختلفة بموضوعها عن العلوم الطبيعية فهي مختلفة عنها أيضا بمنهجها. والذي يفرق العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية أمران يتصلان بالموضوع والمنهج معا، أولهما الطبيعية النوعية للظاهرة الإنسانية وثانيهما العلاقة الخاصة بين الباحث وموضوع بحثه. ففي الموقف الوقائي السابق نجد افتراضا مضمرا أو معلنا أحيانا هو التسوية والمعادلة بين الإنسان وبين موضوعات الطبيعة أما الموقف الراهن فيبدأ بالإعلان عن أفكاره لهذا الغرض وإبداله بما يناقضه. فإذا ما خضعت مظاهر السلوك الخارجي الطبيعية للإنسان لمنهج مشترك فثمة ما يند عن هذا الخضوع للمنهج الطبيعي وهو الذي يعين على الأصالة الموضوع الخاص للعلوم الإنسانية وهو الذاتية. وينبغي هنا أن نفرق بين دالتين للذاتية فيما يتصل بالدراسات الإنسانية، إحدهما وهي الأشهر هي التي نجدها لدى من يعارضون أصلا إمكانية قيام علوم للإنسان والمجتمع، كموضوع مشروع للعلم، لتحدد بتصور خاص للإنسان، وتناول معين يحرص على النفاذ إلى داخل الظاهرة الإنسانية. فالوجود الإنساني أو الظاهرة الإنسانية على كافة مستوياتها تعين بالوعي الذي يقصد إلى المعنى ويهدف إلى القيمة من خلال تجربة معاشة لها تاريخيتها الخاصة المتفردة في الزمان والمكان. وعلى ذلك فعلى البحث أن يستنبط طرائقه التي تيسر له النفاذ إلى هذا الداخل وإلى بلوغ الموضوعية عبر تفهم مباشر بمضي الباحث إلى الأساس الصلب الذي يقيم عليه تفسيراته وتأويلاته للظاهرة الإنسانية والاجتماعية.

1-الموضوعية تفهما للمعنى في التجربة المعاشة: فيلهالم ديلتاي :

كان لديلتاي الفضل في البيان الواضح لتفرقة حاسمة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية بطريقة جديدة لم تأت تقليداً أو إمتداداً لوجهة نظر سابقة. وهو يطلق اسم علوم الروح على العلوم الإنسانية.

يرى ديلتاي أن موقف العلوم الإنسانية يواجه مشكلتين: الأولى هي أن العلوم الإنسانية ما يزال يعوزها تصور واضح ومتفق عليه عن أهدافها ومناهجها المشتوكة والعلاقات بينها، إذا ما قورنت بما هو سائد في العلوم الطبيعية.

والثانية هي أن العلوم الطبيعية تزداد منزلتها ومكانتها نمواً وإطراداً بحيث ترسخ في الرأي العام مثل أعلى للمعرفة لا يتلاءم مع التقدم في العلوم الإنسانية. وقد اتخذت طائفتان من المفكرين والباحثين من هذه المسائل وجهتين مختلفتين من النظر هما المثاليون والتحريبيون، وهما لا يبعثان على رضا ديلتاي.

فأما المثالية فقد نشأت واستمرت في جو من الفتور أو العداء تجاه العلم الطبيعي، وميزت بين نمطين من البحث، النوموتيطيقي الذي يتطلع إلى القوانين وهو ما يسود في العلوم الطبيعية، والأيدويجرافي الذي يصف ويقارن الأفراد والنماذج وهو الذي يسود التاريخ والعلوم الثقافية، بحسب ما ذهب فندلبلاندوريكرت ولم يقنع هذا التصنيف ديلتاي لأن هذا التصنيف عاجز عن الاستيعاب والتمييز، ففي الفلك والجغرافيا وهما علمان طبيعيان نما عنصر أيدويجرافي بارز كما أن التاريخ والعلوم الثقافية لا ترفض الاعتراف بالقوانين العامة. كما أن هذا التصنيف يخرج علم النفس والاقتصاد من العلوم الإنسانية لأن هذين العلمين يسعيان إلى صوغ القوانين لذلك لم يكن هذا التصنيف المثالي قادراً على استيعاب العلوم الإنسانية التي يعتقد ديلتاي أنها تمثل وحدة متكاملة تضم علم النفس والاقتصاد بطبيعة الحال. ويضيف ديلتاي أن الطريقة السديدة بتصنيف فروع المعرفة لا بد أن تقوم على أساس من موضوع الدراسة وليس على أساس المنهج.

يركز ديلتاي على التفهم بوصفه الواقعة أو الحقيقة التي يجب أن تشيد عليها المعرفة في العلوم الإنسانية وهنا نجد أنفسنا في قلب مشروعه العلمي، فلأن العلوم الإنسانية جميعاً معنية بالإنسان فثمة سمة منهجية مشتركة مميزة هي اعتمادها على التعبير والتفهم. ويرتبط التفهم عند ديلتاي على نحو دقيق بـ " التعاطف بالتعايش " أو المشاركة الوجدانية. ورغم أنهما يمضيان معاً عادة فإنهما ليس شيئاً واحداً. فأن تفهم هو أن تعرف ما يجربه شخص ما، من خلال نسخة من تجربته، التي هي رغم أنها تحيا في وعي، إلا أنها مسقطه فيه ومدركة على أنها ما يخصه هو وليس ما يخصني. ولكن أن تتعاطف بالتعايش هو أن يكون لي شخصياً تجارب مماثلة لتجارب الشخص الآخر،

ومرتبطة بها كأن تبتهج لفرحه وأن تبكي معه في حزنه. وليس من السهل في العادة أن تتفهم دون مشاركة وجدانية، سواء كان الشخص المفهوم شخصا واقعيًا، أو شخصية في مسرحية أو رواية.

ومن الفروق المهمة بين العلوم الإنسانية والطبيعية أن الأخيرة خالية من القيمة، ويعد تحررها من القيمة حصنها المنيع لموضوعيتها، وربما حاول البعض أن يشتري العلوم الإنسانية الموضوعية بهذا الثمن، غير أن هذا مناقض لطبيعتها الأصلية لأن كل تفكير في العلوم الإنسانية هو تفكير أكسيولوجي. فهي تنتقي وقائعها وتصوغ مسائلها من موقف القيمة. وكل فعل هو محاولة عن قصد وروية، أو غير ذلك لبلوغ غاية أو هدف. وما يميل إلى تعضيد غاياتنا نسيمه خيرا، وما يحبطها نسيمه شرا. وهذا هو أساس مقاييسنا للقيمة.

2- الموضوعية بين النمط المثالي والحيدة الأخلاقية: ماكس فيبر :

كان ماكس فيبر أوفر رفقاءه تصريحًا وأشدّهم إبرازًا للمشكلات الأساسية في بحث قضية الموضوعية ومحاولة تحقيقها في العلوم الإنسانية أو العلوم الثقافية بحسب تسميته المفضلة التي تتلمذ فيها على ريكتر بوجه خاص. ويمكن أن نوجز هذه المشكلات في مشكلتين: تتعلق الأولى بالصلة بين المفاهيم والقضايا السوسيولوجية العامة من جهة، والواقع التاريخي العيني من جهة أخرى، وتتصل المشكلة الثانية بالعلاقة بين المواقف لتقويمية أو الأحكام المعيارية من ناحية، وبين المعرفة التجريبية أو العلمية من ناحية أخرى.

وقد قدم فيبر للمشكلة الأولى حلا يقوم على أساس ما أطلق عليه مصطلح "النمط المثالي"، كما اقترح حلا للمشكلة الثانية اقترن باسمه كثيرا هو الحيدة الأخلاقية.

ينكر فيبر على التحليل العلمي للثقافة، أي الظواهر الاجتماعية أن يكون موضوعيا على نحو مطلق. ولكن على أن يعني التحليل الموضوعي للحوادث الثقافية ذلك التحليل الذي يقوم على مثل أعلى للعلم يرد فيه الواقع التحريبي إلى قوانين فهذا في نظره أمر خلو من المعنى. فهو إذن لا ينكر الموضوعية بقدر ما ينكر طرازا معينا منها لا يميز بين موضوعات العلوم الثقافية وموضوعات العلوم الطبيعية. فالتحليل العلمي للثقافة المردود إلى القوانين لا يعد خلوا من المعنى لأن الحوادث الثقافية أو الروحية أقل خضوعا لحكم القانون موضوعيا بل هو خلو من المعنى لأسباب أخرى. فأولا معرفة القوانين الاجتماعية ليست معرفة للواقع الاجتماعي، بل هي بالأحرى واحدة من بين معونات متعددة تستخدمها عقولنا لبلوغ هذه الغاية أي معرفة الواقع الاجتماعي. وثانيا لأن معرفة الحوادث الثقافية لا يمكن إدراكها إلا على أساس قاعدة من الدلالة أو الأهمية التي توليها لتجمعات عينية من الواقع في مواقف عينية فردية.

إن الإناطة بالقيم هي الفارق الذي يميز العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية. فالعلوم الثقافية بحسب تعريف فيبر على العلوم التي تحلل ظواهر الحياة على أساس من دلالتها أو أهميتها الثقافية.

يتحدث فيبر عن العملية ولكنها لا تؤدي عين الوظيفة ولكن تؤديها في العلم الطبيعي لأن الظواهر الثقافية ظواهر فردية كيفية. وحينما يتعلق الأمر بفردية الظاهرة فإن مسألة العلية لا تكون مسألة قوانين ولكن مسألة علاقات عليية عينية فردية. فهي ليست إدراجا كحادثة تحت عنوان عام بوصفها حالة ممثلة، ولكنها عزو واسناد لحادثة كنتيجة مترتبة على تجمع أو تشكيل معين.

الموضوعية في الرد إلى الذات والقصد إلى الموضوع: فينومينولوجيا هوسرل:

لم يهتم هوسرل بقضية التمييز بين العلوم الطبيعية والإنسانية فحسب، ولم يقنع بتأسيس العلوم الإنسانية، بل كان مهتما بوضع الأسس المطلقة للمعرفة الإنسانية بإشعال ثورة جديدة في الفلسفة، وتأسيس علم جديد هو الفينومينولوجيا يكون بمثابة الأساس القبلي أو الأولي لكل علم، ولهذا نجده يقدم برنامجا طموحا وحافلا يجمع بين المنهج والمذهب. ولهذا بدأ عمله من نقد التجربة والعقل معا ليمضي بعده إلى تأسيس العلم مرة واحدة وللأبد.

ورغم أن هوسرل فيلسوف إلا أن نظريته الخاصة للفلسفة بوصفها علما دقيقا، وأساسا لكل العلوم، هي التي جعلنا نفرض وجهة نظره، ولنا أمران شفيهان لنا: الأول حرصه وشفعه بالحديث عن الموضوعية التي قلما تغيب، هي أو مشتقاتها، عن صفحة من صفحات مؤلفاته وبحوثه. والثاني تناوله لعلم النفس كما يتناوله الباحث المتخصص. والفينومينولوجيا هي علم الظواهر، وسائر العلوم كما هو معلوم منذ زمن قدم تعالج الظواهر. هكذا يشار إلى علم النفس بوصفه علما للنفس كما يكون العلم الطبيعي علما للمظاهر أو الظواهر الفيزيائية. كذلك التاريخ هو علم التاريخي كما أن العلوم الثقافية علوم الظواهر الثقافية، وبالمثل تكون كل العلوم التي تعالج ضروب الواقع. غير أن الأمر يختلف في كلمة ظاهرة عندما تستخدم في الفينومينولوجيا بقدر اختلاف ما تحمله من معان، فإذا كانت الفينومينولوجيا تتناول أيضا كل هذه الظواهر، وبكل معانيها إلا أنها تعالجها من وجهة نظر مختلفة من شأنها أن تعدل وتحور بطريقة حاسمة كل ما يحمله هذا اللفظ من معنى في تلك العلوم. فهوسرل يرى ضرورة الأخذ بطريقة تختلف عن وجهة نظر الموقف الطبيعي، من أجل بلوغ الموضوعية. إن الموقف الطبيعي بسذاجته هو الذي يكون محل هجوم هوسرل، وهو الذي تصدر عنه النزعة الطبيعية السائدة في العلوم الإنسانية، والتي وضعت بدورها هذه العلوم في أزمة يصعب الخروج منها. لقد نزل هوسرل نفسه لوضع الأسس والمبادئ لكل من الفلسفة والعلم التي من شأنها أن تحقق على نحو حاسم ونهائي كل ما هو ضروري للوصول إلى فهم سليم من شأنه أن يوضح كل

معرفة تجريبية. وكل معرفة على وجه عام. فكأنه حاول بضربة واحدة أن يقضي على الشك والنسبية في كل مجالات المعرفة ليقيم من أنقاضها الموضوعية في الفلسفة والعلم على السواء.

على أن الموقف الطبيعي هو ذلك الموقف الذي يسلم في سذاجة بوجود العالم الخارجي دون أن يتوجه إليه أولاً بالشك وتعليق الحكم. ويترتب عليه النظر إلى الذات مقابلاً للموضوع كما ينجر عنه تلك الثنائيات في الفلسفة مثل الحقيقة والظهور والجوهر والغرض، والشيء في ذاته والظاهرة، وهي ثنائيات أسهمت في إنشاء المذاهب المتعارضة كالمثالية الواقعية والعقلانية والتجريبية التي قامت بدورها في عرقلة مسيرة الفلسفة نحو غايتها لكي تكون علما محكما.

والنزعة الطبيعية التي نشأ عنها الموقف الطبيعي هي التي لا ترى شيئا سوى الطبيعة والطبيعة الفيزيائية أولاً. وكل ما هو موجود إما أن يكون هو نفسه فيزياء وإما يكون نفسيا. على أن هذا النفسي ليس سوى متغير يتوقف في وجوده على الفيزيائي، ولن يكون في أحسن الأحوال غير ظاهرة ثانوية تلازم الفيزيائي على نحو متواز. وذلك لأن كل موجود إنما ينتمي إلى طبيعة نفسية-فيزيائية أي محدد بقوانين محكمة تحديدا قاطعا. والطبيعة الفيزيائية في النهاية تنحل إلى مركبات من الإحساسات. وعلم النفس الذي انبنى على النزعة الطبيعية التي لم تر فيه سوى علم نفس سيكوفيزيائي عاجز عن تقديم الأسس للمباحث الفلسفية الأخرى التي يتعين عليها الاهتمام بالمبادئ الخالصة لعملية وضع المعايير في المنطق والقيم والسلوك.

إن العلم الطبيعي وعلم النفس كلاهما يقومان من وجهة النظر الطبيعية على مسلمة مفادها أن لا علم سوى ما استند على التجربة وبلغ القوانين المحكمة. ولذلك يجب وضع التجربة موضع تساؤل في نظر هوسرل. كيف يمكن للتجربة بوصفها شعورا أن تعطي موضوعا أو تتصل به ؟ كيف يمكن للتجارب أن تبرز أو تصحح بعضها البعض على نحو متبادل، وليس فقط أن تفند أو تؤيد بعضها البعض على نحو ذاتي ؟

إن الموضوعية التي تكون موجودة في نطاق المعرفة يجب أن تتم من خلال الشعور. من المطلوب القيام بدراسة للشعور في مجموعه لأنه يدخل بسبب جميع أشكاله في الوظائف الممكنة للمعرفة. وبقدر ما يكون كل شعور " شعورا ب " فإن الدراسة الماهوية تتضمن كذلك دراسة دلالة الشعور بما هي كذلك وعلى دراسة موضوعية الشعور بما هي كذلك أيضا. وعلم دراسة الشعور هو الذي يأخذ اسم دراسات فينومينولوجية.

فإذا كان علم النفس مهتما بالشعور التجريبي أي الشعور من وجهة النظر التجريبية، والشعور بوصفه موجودا هناك في مجموع الطبيعة، فإن الفينومينولوجيا تعنى بالشعور الخاص أي الشعور من وجهة نظر

الفينومينولوجيا، ويترتب على ذلك أن يكون علم النفس على صلة بالفلسفة. إن تحليل الشعور الذي يشترط ويؤسس المعرفة التجريبية في علم النفس هو التحليل الفينومينولوجي للماهية عند هوسرل.

وهكذا ينتهي هوسرل إلى منهج ومذهب يقوم على الرد إلى الذات حيث يتم حدس ظواهر العالم وماهياته. ولا يتم هذا الحدس إلا في إطار قصدية الشعور. فهي عملية اكتشاف للموجودات وليست عملية استنباط أو استدلال لأنها تسبق كل استنباط. فالرد هو المنهج الرئيس الذي يحدد المجال المميز للفينومينولوجيا ويثير المشكلات في نطاقه ويضع المبادئ الأساسية. ففيه يبدو لنا العالم كظاهرة مباشرة للشعور الخالص، وتتجلى ماهية الشعور بوصفها شعورا بشيء ما، وهنا تتعين مهمة الفينومينولوجيا كوصف وبنية الشعور الخالص في علاقته بموضوعات العالم، واستخلاص معنى الظواهر بإرجاعها إلى البنية المقابلة لها من الشعور الخالص. والرد يفضي إلى القصدية التي هي أسلوب وجود الشعور أو البنية الأساسية للذات. وللقصدية أقانيم ثلاثة هي مقوماتها التي يسميها هوسرل أحيانا بالقصديات فهناك الهيولى أو المادة الأولية وتتألف من المحتويات المحسوسة، والنوييس أو فعل الفكر، وهي الصورة بالمعنى الأرسطي وهو الذي يهب الصور والمعاني لمعطيات الحس. فإذا كانت الهيولى تشير إلى الانفعالية فإن النوييس تشير إلى الفعالية وهما معا يكونان عنصري التجربة المعاشة. غير أن الطابع القصدي للتجربة المعاشة يكتمل بقصدها دوما وبحسب ماهيتها إلى موضوع هو النوييما أو موضوع الفكر. فهذه هي أقانيم القصدية الثلاثة.

المحاضرة الخامسة

إبستمولوجيا علم الاجتماع

1- طبيعة وأصول علم الاجتماع

2- تعريف علم الاجتماع

3- أصول علم الاجتماع

4- أصول علم الاجتماع

5-التفسير والفهم في علم الاجتماع

6-علم اجتماع ما قبل أمس

7-علم اجتماع أمس

8-علم اجتماع اليوم

1-طبيعة وأصول علم الاجتماع:

التاريخ وعلم الاجتماع :

أ- كيف يتمايزان:

من وجهة نظر واقعية علم الاجتماع موضوعه هو نفسه موضوع التاريخ: المجتمعات البشرية. ولكن لا شيء يوضح بشكل أمين خطأ الإستيمولوجيا الواقعية أكثر من هذا الخلط الخادع. موضوع التاريخ ينتظم داخل المدة حيث الأجزاء تلغى بالتبادل، وكذلك الأحداث التي هي في نهاية التحليل محتوى هذه المعرفة تكون دائما فردية وغير قابلة للاستعادة. على العكس موضوع علم الاجتماع ينتظم خارج الزمن، في أطر لا يمكن القول أنها مكانية إلا بفضل اختزالبرغسوني صريح، ولكن في كل الأحوال نفترض وجود وتقريب الأجزاء وتكرار التجارب. بينما مثلا، مؤرخ الأديان يضع كل اهتماماته من أجل إعادة إخراج الأصالة غير القابلة للاختزال لدين بدائي مثل الطوطمية بالنسبة لديانة عالمية حديثة مثل المسيحية، دوركايم في كتابه الصور الأولية للحياة الدينية جهد في استخلاص السمات المشتركة من أجل تكوين المفهوم السوسيولوجي للدين، من أجل اكتشاف القوانين التي تحكم الدين بشكل عام، معلم وقوانين صالحة بالنسبة للطوطمية كما المسيحية والإسلام والكنيسة الكاثوليكية. نظرية مثل الماركسية، حساسة جدا أكثر من الدوركايمية للصيرورة الزمنية، يجب مع ذلك أن تعتبر، باعتبار أنها تخضع لشروط ثابتة، بدلا من اعتبارها نظرية في التاريخ، كنسق تأويلي سوسيولوجي. المقصد من العلمين مختلف. التاريخ هو علم المجتمعات البشرية ضمن منظور الماضي. الأمر يتعلق بإعادة تطور معيش، ووصفه بخطاب معقول. علم الاجتماع هو علم المجتمعات البشرية في منظور شرعي. التاريخ يعيد صيرورة ما، علم الاجتماع يؤسس تفسيرا عالميا. التاريخ يتكون من أحداث تضيء علاقات علم الاجتماع ويتكون من علاقات تقدم الأحداث لها حاملا تجريبيا.

ب- **كيف يتعاونان:** انفصال صارم بين التاريخ وعلم الاجتماع المبرر على مستوى المفهوم، لا يمكن أن يتم الاحتفاظ به في ممارسة البحث. هناك بين العلمين نقاط إتصال وتبادلات ضرورية وحتى تناقضهما يؤدي إلى استمرارية تبدو غالبا متكاملة.

1- **التاريخ يستدعي علم الاجتماع:** إذا كان التاريخ يستدعي علم الاجتماع، فليس فقط لأن التفسير السببي يحيل إلى علاقات عالمية.

2- **تعريف علم الاجتماع:** من السهل إذن تعريف علم الاجتماع بأنه علم القوانين التي تحدد البنية الداخلية للجماعات (التشريح الاجتماعي، المورفولوجيا الاجتماعية) والتطور الداخلي للجماعات وعلاقاتها فيما بينها (الفيزيولوجيا الاجتماعية، الدينامية الاجتماعية).

3- **أصول علم الاجتماع:** عندما نريد أن ندرس أصل علم الاجتماع، من المهم التمييز، من جهة تيار من الأفكار قادم من القرن 18، الذي يؤكد أن الوقائع الاجتماعية محددة. ومن جهة أخرى اهتمامات مباشرة، عملية ونظرية، التي خلال القرن 19 بلورت فكرا لازال منتشرا.

تأكيد الحتمية الاجتماعية:

العصر القديم: العصر القديم لم يكن لديه أي معنى عن الحتمية الاجتماعية. جمهورية أفلاطون هي كتاب في الفلسفة السياسية التأملية. أرسطو في كتابه السياسة أبان عن فكر موضوعي ولكن في الحقيقة كان يعالج بفن مبتذل التربية المدنية. أما الرواقيون، فإن اعتقادهم في نوس، في ضرورة تحكم المجتمع وكذلك الطبيعة، هو اعتقاد لاهوتي خالص ولم يقدمهم إلى فكرة علم اجتماعي ولكن إلى نظام يجب محاكاته هو القانون الطبيعي.

القرن 18: ولكن في عصر مونتسكيو، زيادة على التطورات الحاصلة في علوم الطبيعة التي تقدم النموذج، سنرى علوما جديدة. الأسفار الكبيرة مكنت من تحقيقات إثنوغرافية حيث أن المختصين كانوا دائما الموسوعيين، لقد كونوا معرفة مع مجتمعات أخرى كأثينا وروما والملوكيات التقليدية.

لقد تكون المنهج المقارن، خلال القرن 18 كذلك تكونت فلسفة التاريخ مع فيكو، وأن الاقتصاد السياسي الخارج عن جون بودان صار مع الفيزيوقراطيين وآدم سميث وصفا موضوعيا لظواهر الإنتاج والتبادل والاستهلاك، وأن الإحصاء الخارج عن المحاسبة الخاصة بالمليادين الملكية وصل إلى مرحلة النضج مع لافوازييه. وكان لابد من انتظار الفيزيولوجيا الاجتماعية للرياضي البلجيكي بالج كيتولي Belge Quetelet من أجل أن يعاد

عمل لافوازيي. ولكن يمكن أن ندافع من وجهة نظر المبادئ، إن المخترعين الكبار لهذه الفترة هم مونتسكيو وكوندورسي. في كتابه روح القوانين (1748) مونتسكيو طرح المبدأ القائل أن القوانين والعادات لا تتكون بالصدفة ولا برغبة الناس ولكن حسب ضرورة طبيعية. لقد كتب ليس من أجل اقتراح إصلاحات ولكن من أجل فهم بواسطة العقول المؤسسات القائمة. كوندورسي في محاولة لرسم لوحة تاريخية عن تقدم الفكر البشري أراد دراسة المجتمع كما تدرس القنادس والنحل. ولكنه أدخل أيضا فكرة أن سيورة المجتمعات منظمة طبيعيا وليس لاهوتيا كما اعتقد بوسوي.

إذا فحصنا تفصيل أعمالهما، مونتسكيو وكوندورسي لازالا بتعيين عن الصرامة العلمية. مفهوم القانون المطبق على المجتمع، ومفهوم تطور محدد هما مكسبان أساسيان.

القرن 19: خلال القرن 19، في كتابه: "Mémoire sur les Sciences de L'homme" (1813) استل سان سيمون علم السياسية من حالته كعلم احتمالي. في الوقت الذي اعتقد فيه كوندورسي أن التقدم هو من عملنا، فإن سان سيمون رأى فيه واقعة مستقلة عنا.

ولكن المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع هو أوغست كونت. لقد كان أول من أدرك أن الضرورة الطبيعية يخضع لها أيضا المشرع، لا مجال للخلط مع مونتسكيو بين القانون العلمي والقانون الشرعي. وأكثر من كوندورسي، كان لا بد أن يظهر في قانونه عن الأحوال الثلاثة، المراحل الضرورية لتطور المجتمعات. وهو أيضا المميز بين القوانين الاجتماعية وقوانين الوجود وقوانين التابع، وقد ميز بين فرعي علم الاجتماع: السكون الاجتماعي والدينامية الاجتماعية .

اهتمامات المؤسسين: ولكن يجب القول أن اهتمامات سان سيمون وأوغست كونت لم تكن بسيطة. من غير شك لقد كانا منشغلين بالعلم الخالص وأحد مقاصدهما كانت التحسين النظري لمعرفة الجماعات الإنسانية، ولكنهما كانا يبحثان أيضا في الفعالية.

4-تطور علم الاجتماع:

علم الاجتماع النظري:

دوركايم، خصوصية الواقعة الاجتماعية

فرضيات علم الاجتماع العام وخصوصية الوقائع الاجتماعية:

من الملاحظ أن بعد أوغست كونت المعنى العميق لأبحاثه قد ضاع. كان يجب انتظار دوركايم من أجل إيجاد فكرة أن علم الاجتماع يمتلك موضوعا خاصا، لا يختلط مع موضوع البيولوجي، ولا مع موضوع علم النفس. وهو أنه، كما بين ذلك غايتان بيرون قد تم الاعتقاد سريعا في القوانين الكبرى المفسرة للوقائع الاجتماعية مع مماثلتها بالقوانين البيولوجية النفسية. ولكن فشل هذه المحاولات ذاتها كانت مهذبة. إن دراسة دوركايم أدت إلى ظهور شروط تأسيس علم اجتماع علمي.

علم الاجتماع البيولوجي: عقب سينسر واسيناس فرضية مماثلة علم الاجتماع بالبيولوجيا تم عرضها في أطروحة ريني وورم: الجسم والمجتمع.

المجتمع جسم، هذا هو المبدأ. ريني وورم ذهب إلى إقامة توافق بين الكلمتين. البورصة هي القلب والقيم الصادرة عنها هي دم الجماعة. ولكن خطأ العضوانيين Organistes كما اعتقد غايتان بيروني أعقاب دور كايم، ليس في عدم ملاحظة الخاصية الإنسانية للوقائع الاجتماعية. ذلك أنه إذا كانت هذه الوقائع إنسانية بشكل خاص، فإننا لا نرى. 1- أي معنى يمكن أن تأخذه عبارة مجتمع حيواني الذي له امتداد مع ذلك (مجتمع النحل والنمل). 2- كيف يمكن الدفاع عن خصوصية الاجتماعي ضد الغزو بواسطة علم النفس؟ الوقائع الاجتماعية ليست تمثلات خالصة ولكنها ليست أيضا وقائع بيولوجية. تجمع الأجسام يعطي محلا لظواهر التبادل، وتقسيم العمل للإشارة التي تذهب إلى حد تضخم لوظيفة ما، والكبح الذي يمكن أن يذهب إلى حد إلغاء وظيفة بيولوجية مثل الجنسية لدى بعض الحيوانات. بمقتضى مبدأ العمل المقابل.

النظام الاجتماعي يعدل النظام البيولوجي، إنه ليس ذا جوهر بيولوجي. إنه بالأحرى يناقض النظام البيولوجي، ريني وورم اعترف بذلك عندما كتب قائلا: " إذا كان المجتمع يكون جسما، فإن معه شيء أساسي زيادة على ذلك. هذا الشيء الأساسي هو الواقعة الاجتماعية.

علوم الاجتماع النفسية: في مقابل النظريات العضوانية هناك النظريات التي تؤكد الخاصية الإنسانية الواعية بالواقعة الاجتماعية التي مجموعها يكون النزعة النفسية في علم الاجتماع. إننا نجدها خصوصا في عمل جابريل تارد Gabriel Tarde (قوانين المحاكاة 1890، دراسات في علم النفس الاجتماعي 1898).

علم الاجتماع، يقول تارد هو مثل علم النفس بالجملة. يجب أن نفهم هذه القضية بمعنى دقيق. بالنسبة لتارد، الدلالات التي تدخل في علم الاجتماع كلها مصدر سيكولوجي، بمعنى فردي " إبعاد الفردي لن يبقى شيئا من الاجتماعي. ولكن كيف نمر من أحدهما إلى الآخر أو ما هي أصالة الاجتماعي، الجواب هو التالي: الفرد

يخترع، الكائن الاجتماعي باعتباره اجتماعيا يحاكي. المجتمع هو جماعة من الكائنات يحاكي بعضها البعض. مهما تكن النجاحات التي حققها تارد، خطؤه مؤكد. المنهج يتضمن حلقة مفرغة. علم النفس لا يمكنه أن يتكون قبل علم الاجتماع.

دوركايم وخصوصية الاجتماعي:

هناك فيما يبدو نظام اجتماعي خاص يتميز عن النظام السيكلولوجي كما عن النظام البيولوجي. دوركايم طرح خصوصية الاجتماعي على مستوى الملموس. الكل، كتب في قواعد المنهج في علم الاجتماع، ليس مطابق لمجموع أجزائه، إنه شيء آخر حيث أن خصائصه تتميز عن الخصائص التي تمثلها الأجزاء التي يتكون منها.

المجتمع ليس إذن مجموع من الأشخاص، فهل هو مكون من مؤسسات ؟ نعم ولكن وراء المؤسسات الحكومات، اللغات هناك شيء آخر، علاقات تدعمها، وتعطيها القوة والمعنى والتي هي أعمق من المؤسسات ذاتها.

دوركايم رأى أن هذه العلاقات هي تمثلات وليس وقائع مادية. إنها تغدو عواطف، أنماطا من العمل أو الفكر. ولكن إذا كانت هذه التمثلات ذهنية فإنها تمتلك خاصيتين تميزها عن التمثلات الفردية. إنها جمعية قسرية.

1- الوقائع الاجتماعية جمعية، هذا يعني أنها ليست فردية، ولكن أيضا ليست عالمية أو عامة. إنها ليست عالمية لأنها تتعلق بجماعة بعينها. وأنها ليست عامة ذلك أننا نقول عن خاصية أنها عامة عندما تنتمي إلى كل أفراد طبقة دون استثناء. ولكن اللغة الفرنسية مرتبطة بالإنثنية الفرنسية حيث أن الرضع والحمقى يجهلونها.

2- الوقائع الاجتماعية قسرية: بمعنى أنها مصانة بواسطة العقوبات، إنها تتم من غير قصد الإنسان، بواسطة حتمية طبيعية. الظواهر الاقتصادية، تطور اللغات مثلا يبدو أنها وقائع تفلت من إرادة الأفراد.

المكسب النهائي لأعمال دوركايم هو تطبيق المنهج الوضعي في علم الاجتماع.

دوركايم ليس أول من طبق المنهج الوضعي ولكنه أول من عبر بوضوح عن شروط تطبيقه.

1) - معالجة الوقائع الاجتماعية كأشياء.

2) - العودة إلى التاريخ: التاريخ المقارن. ولكن يجب أن لا ننسى أن الأمر لا يتعلق أبدا بصناعة التاريخ، الهدف هو تحديد ماهيات، وتثبيت قوانين. ولهذا استدعى التاريخ المقارن.

3) -الرجوع إلى الانتوغرافيا: بعض المجتمعات ليس لها تاريخ فقط الأساطير، ومن جهة أخرى المنهج المقارن لم يولد في التاريخ ولكن عن قصص الرحالة. المقارنة لدى عالم الاجتماع تتم في الزمان والمكان. إلى جانب التاريخ المقارن المكرس لاستعمال مماثل، نجد الانتوغرافيا. الانتوغرافيا هي العلم الذي يصف المجتمعات غير الصناعية.

علم الاجتماع الفهمي والمجادلة ضد الدوركايمية:

في الوقت الذي توجه علماء الاجتماع الفرنسيون في أعقاب أوغست كونت نحو وضعية مؤكدة بوضوح شيئا فشيئا فإن في ألمانيا في أعقاب ديلتاي تطور تيار فكري مختلف جدا يستند ليس على نزعة نفسية كامنة كما يعتقد أحيانا ولكنها على كل حال نزعة إنسية. إن ظاهرة إنسانية لا يمكن أن تعالج بصرامة كظاهرة طبيعية، فيما يرى مفكروها، حتى ولو كانت هذه الطبيعة لها ميزة خاصة.

تونيز والنمذجة: بالنسبة لتونيز Tonnie (الجماعة والمجتمع (1944)) كما بالنسبة لدوركايم، علم الاجتماع موضوع أشياء. ولكن هذه الأشياء مختلفة عن أشياء دوركايم، هي جواهر، أنماط من العلاقات. وهذه الأنماط تتحدد بالنسبة لمرجعية واضحة على التمييز السيكولوجي بين الإرادة العميقة والعضوية وإرادة الاختيار. الأولى تحدد نمط جماعة مثلا العائلة، العلاقة الجنسية، الثانية تحدد المجتمع حيث الفصل الأساسي هو التبادل وتحلي العقد. في الجماعة الأفراد يكونون محددين بواسطة الزمرة بحيث يكونون في ديارهم، والدخول إلى المجتمع هو كما لو كان أرضا أجنبية، لأنه من عمل أفعال أجزائه التي تحدد بطريقه مجردة.

ماكس فيبر والأنماط المثالية:

ولكن لدى ماكس فيبر أخذ مفهوم النمط المثالي دقته وأهميته الكبيرة. بالنسبة لماكس فيبر علم الاجتماع هو قبل كل شيء فهمي، ولكنه يتميز عن علم النفس باعتبار أن هذا الأخير يتصور كلية الحياة الروحية بينما علم الاجتماع ينحصر في أنماط عقلية حيث أن أنماط ردود الأفعال الفردية ليست سوى انحرافات. هذه الملاحظة التي قادته إلى التفكير في ملاحظات مماثلة لدوركايم حول الفرد العامل، قادته إلى نتائج من نظام آخر. الأنماط ليست أشكالا كما لدى تونيز ولكن ليست أيضا تمثالات جمعية. إنها ميول، خطوط قوة تحدد بعض التوزيع للتوتر الاجتماعي. أساليب فعل عقلائي، عاطفي، تقليدي تتقاطع مع خصائص الجماعة والمجتمع من أجل إيجاد خصائص فهمية. هكذا فإن نظاما شرعيا سيكون عقلائي إذا قام على اعتبارات مبادئ قانونية، ويكون كاريزميا إذا قام على الوجدان. النمط المثالي ليس تجريبيًا، إنه مفهوم مفتاحي حصريا.

علم الاجتماع الفينومينولوجي:

أكثر إنسوية هو علم اجتماع ماكس شيلر تلميذ هوسرل في الفلسفة. في كتابه طبيعة وصور التعاطف يطرح كمبدأ أن هناك شعورا مباشرا بالغير، إمكانية الاتحاد بين الأنا والأنت. إنه يميزه عن العدوى العاطفية البسيطة. الحشد الذي ليس مجتمعا، يتكون بواسطة العدوى العاطفية. هناك جماعة حيوية عندما تفتح التجربة المعيشة المشتركة الطريق إلى إدراك مباشر لكل مجتمع. ويكون هناك مجتمع عندما تكون الوحدة مصطنعة، وشخصية جماعية عندما يستقر تضامن روحي. المثال عن الجماعة هو العائلة، وعن المجتمع بواسطة الأفعال، والشخصية الجماعية مثالها الكنيسة.

المجادلة الضد دوركايمية: هذه المعارف حول علم الاجتماع الألماني ضرورية من أجل فهم العمق المذهبي الذي عليه استندت المجادلة التي أطلقها ضد دوركايم جول مونيروت Jules Monnerot.

وجهة هذا الأخير فينومونولوجية أساسا وإنسوية. إنه ينطلق من الذات كشرط إنساني موضع ومؤرخ. لقد استعار من شيلر فكرة أن الوجدان وسيلة للمعرفة. المجتمع لا يمكنه إلا أن يعاش بواسطة أشكال من الوعي الفردية. ويستتبع هذا أن الوقائع الاجتماعية ليست أشياء وأنه يجب التخلي عن منهج دوركايم. ألا يوجد تناقض في الواقع، في الاحتفاظ بفكرة في نفس الوقت أن الوقائع الاجتماعية هي أشياء وأنها تمثالات ؟ إما أن الوقائع هي تمثالات وإذن يجب أن تعالج بواسطة المنهج الفهمي وإذن هي ليست تمثالات. يبدو لنا أن دوركايم لم يكن واعيا تماما بهذا في الواقع نعتقد أن الوقائع الاجتماعية ليست تمثالات إلا إذا اعتبرنا بالمثل تمثالات الوقائع الرياضية، والفيزيائية والبيولوجية... إلخ.

بمعنى في نطاق حيث أي واقعة لا توجد بالنسبة للإنسان لا تكون متصورة. الوقائع الاجتماعية هي بالمهاية علاقات قوة تحدد وجود الجماعة. إنها لا تنتمي بالطبيعة إلى الوعي. إنها تتصورها كما تتصور الكل بدون اختلاف.

5-التفسير والفهم في علم الاجتماع:

الفضل يعود إلى دلتاي الذي ميز بين نزعة علوم الطبيعة ونزعة علوم الإنسان. بينما الأولى تبحث عن بناء علاقات ثابتة بين ظواهر، بمعنى تفسيرها، فإن الثانية تواجه وقائع تبلور مشاريع إنسانية جماعية والتي تستمد مبدأها المتميز من المكانة التي تحتلها على محور الزمن، هذه الظواهر تفهم ولا تفسر. هذا التمييز بين دوركايم

وماكس فيبر أو لنقل بين علم الاجتماع الفرنسي وعلم الاجتماع الألماني. فدوركاييم يؤكد أنه يجب معالجة الوقائع الاجتماعية كأشياء، وي طرح أن على عالم الاجتماع أن يبحث عن أسباب الظواهر التي يدرسها بمعنى الظواهر السابقة والمنتجة. أما فيبر، فإنه يذكر بأن علوم الثقافة هدفها إضاءة الدلالة، فهذه الأخيرة هي العلاقة التي يقيمها المجتمع مع ذاته وماضيه من خلال العالم. بحيث أن مع دوركاييم علم الاجتماع يبدو أنه ينبغي أن يكون فيزياء اجتماعية، بينما مع ويدر إنه أسلوب الوعي الذي يتخذه المجتمع عن ذاته، وعن تاريخه وتاريخ مجتمعات أخرى.

لكن بالإضافة إلى ذلك، وراء هذه المنهجية العلمية، يعرف دوركاييم المجتمع كوعي جمعي، بمعنى كواقع فيزيائي يتعالى على النفسية الفردية، وطالب علم الاجتماع بدراسة علاجات مرض المجتمعات المعاصرة (الأنوميا). أما فيبر، فإنه لا عالم اجتماع نشط مثله الاهتمام الإبيستيمولوجي تجاه العلم الجديد (وبكل تأكيد لدى ويدر نفس هم الصرامة في جمع ومعالجة الوقائع كما لدى دوركاييم).⁶⁴

6- علم اجتماع ما قبل الأمس:

كلمة علم الاجتماع نحتها أوغست كونت للإشارة إلى العلوم التي وضعها في أعلى تراتبية المعارف، باعتبار أن موضوعه هو الأكثر تعقيدا وأن تقدمه يتوقف على تطور مجموع المعارف الأخرى. في نفس الوقت كونت نسب إلى علم الاجتماع - لأنه الأكثر تركيبا في العلوم - مهمة إضاءة الإنسانية حول مصيرها التاريخي. هكذا مع المبتكر - إذا لم يكن للعلم فعلى الأقل للتسمية - ثلاثة أبعاد مرتبطة تحدد الفترة الأولى من علم الاجتماع، البعد المتعلق بالأوهام والمطامع الكبرى: تحليل الكل الاجتماعي في تعدد تحديداته والوحدة التي تشكل تشابكها، تفسير معنى الصيرورة الجماعية، إملاء الممارسة السياسية والاجتماعية للناس من أجل أن تكتمل العقلانية المندرجة ضمن إمكانيات المجتمع الصناعي. سواء تعلق الأمر بكونت أو بتوكفيل أو بسبنسر أو ماركس وآخرين لم نذكرهم، كلهم أرادوا أن يكونوا علماء وأنبياء لحداثهم، هذه الحداثة محددة حسب معيار مختلف. توكفيل أثر المعيار السياسي وأكد على أهمية مفهوم القرب والجورة في ديمقراطية ليبرالية خالية من التراتيبات التقليدية. كونت وسان سيمون وسبنسر شددوا على المعيار التكنولوجي، ماركس وبرودون ركزا على المعيار الاجتماعي والاقتصادي (تنظيم الإنتاج وعلاقات الملكية).

7- علم اجتماع الأمس:

⁶⁴Francois Chatelet , (Sous dir.) , La Philosophie des sciences sociales , Hachette , Paris , 1973 .

زمن الحماسة لعلم اجتماع يندرج ضمن المؤسسات الرسمية والذي يأخذ شرف وعظمة الخطاب الجامعي. المجتمع الصناعي قد جرى تنصيبه. لقد صدر عقلانية في العالم. واكتشف أيضا أن لاعتقالاته الخاصة لها مقاومة أكثر مما كان يعتقد، ولكن لا خشية منها، ذلك أنه يقدر على البقاء أمام الاضطرابات الثورية التي زعزعت في وقت ما. هذه الاضطرابات صارت موضوعا للتأمل. علم الاجتماع الذي وصل في مرحلة من بنائه ويحكم أكثر فأكثر باحتلال مكان مستشار الأمير، محص مناهجه، وانشغل بالتدخلات المحتملة للإيديولوجيا وأكد بقوة إرادته في العلمية. ولكن هل نشهد قطيعة حقيقية مع مرحلة الأوهام والمسيحانيات ؟ الأمر ليس أكيدا، التحولات التي عرفها الخطاب السوسيولوجي لم يذهب إلى حد مناقشة الأفق الذي كان ملكه. بالأحرى بدلا من التحولات يجب الكلام على الاستئناف، علماء الاجتماع يبدو أنهم اعتمدوا كمهمة أساسية إعادة وضع المشكلات التي كانت مشكلات المؤسسين.

لا يبدو ضروريا استرجاع أعمال دوركايم وماكس فيبر. يكفينا الإشارة إلى أن المشروع الدوركايمي والمشروع الفيبيري يندرجان ضمن حالة مماثلة من الأزمة التي عرفها المجتمع المعاصر. مع دوركايم، علم الاجتماع الفرنسي وجد في نفس الوقت المعلم الذي يملئ عليه قواعد منهجه - التي يجب مراعاتها من أجل أن يكون علما كبقية العلوم بمعنى علم صارم بالأسباب - ورجل الإيمان الذي يرى في المجتمع حقيقة نفسية عالية. تشخيص فيبر لشر الزمان مماثل. التحليل الذي يجريه لأسبابه وكذا الإجابات التي يقترحها مختلفة جدا.

8- علم اجتماع اليوم:

نلاحظ اليوم تراكما في البحوث التجريبية وتعدد في الأشياء المفيدة، وسوسيولوجيات جزئية. ولكن هناك تراجع للتقليد التأملي والنظري. إنه يسود اليوم الاهتمام بالفعالية على الإيديولوجيا الصريحة، ولكن الطموح إلى تكوين حقل يمكن من التوحيد والتصميم لم يختف كليا. تجدر الإشارة إلى أن الطموح هذا يجد موطنه أولا في الاتنولوجيا. هكذا هو الحال أمام الوظيفة والبنوية أو الأبحاث في الدينامية الاجتماعية.

لن يكون من الرصانة التقليل من أهمية الدراسات الجزئية وغنى المواد التي تراكمها. يجب أن نذكر - إذا بقينا على مستوى علم الاجتماع الفرنسي فقط - الأعمال المنصبة على علم الاجتماع المؤسسات التربوية لآلان جيران (تحقيقات ريمغرافية) وبورديو وباسيرون (الورثة)، أعمال علم الاجتماع الإعلام الآلي ووسائل الإعلام لكرانوف، علم اجتماع التنظيمات والبيروقراطيات لميشال كروسي (الظاهرة البيروقراطية، علم الاجتماع الصناعي مع فريدمان ونافيل).

الوظيفية: تجد الوظيفية أصلها في أعمال مالفينوسكي الذي وضع المبدأ " تفسير الوقائع الإبتولوجية على كل المستويات وتطورها بواسطة وظيفتها، بواسطة الدور الذي تلعبه في النسق الثقافي ككل، بالطريقة التي ترتبط بها مع بعضها البعض في هذا النسق " ⁶⁵. الوظيفية تسلم بالوحدة الوظيفية للمجتمع الذي يشكل نسقا أو نظاما. هذا النظام الاجتماعي يميل إلى أن يتأبد كما هو، بحيث يحافظ على التنسيق المتناغم بين عناصره ويبعد الصراعات المستمرة. التغيرات الوحيدة لا يمكن أن تأتي إلا من أسباب خارجية (ما جعل روجي باستيد يكتب: " الوظيفية تفسر جيدا لماذا تستمر الأشياء، ولكنها لا تفسر لماذا تتغير " ⁶⁶. مروراً من دراسة المجتمعات المسماة قديمة إلى المجتمعات الحديثة، الوظيفية إذا كانت قد احتفظت بالأساس في بنيتها، فإنها مع ذلك قد تحولت. الفصل يعود إلى روبرت ميرتون الذي أدخل مفهوم الاختلال الوظيفي، الوظائف، ضمن النتائج الملاحظة، هي تلك التي تسهم في التكيف أو ترتيب نسق معطى والاختلالات الوظيفية هي التي تعوق التكيف وضبط النظام. في أي حالة مهما كانت، العنصر الواحد يمكن أن يكون له في نفس الوقت نتائج وظيفية وغير وظيفية.

الوظيفية كانت رد فعل – ضروري لتطور الإبتولوجيا – ضد التأملات التاريخية الأولى أو السيكلولوجية وفي صالح ملاحظة الوقائع في الميدان وتصنيفها وتنظيمها.

هناك من يريد أن يرى في البنيوية – التي أتت هي أيضا من الإبتولوجيا – استمراراً للوظيفية. ليفي-ستروس نفسه، ناقداً للوظيفية (القول أن مجتمعا يعمل هو تحصيل حاصل، ولكن القول أن كل شيء في المجتمع يعمل هو سخر) (ألا يؤهله لبنيوية أولية ؟ نقطتان أساسيتان على الأقل تفصلهما. البنيوي يعرف البنية كبناء للفكر العقلاني ويعيب على الوظيفية واقعية الوظيفة. الوظيفية تتساءل عن مسلمة الوظيفية عن المجتمع ككل منظم، مما يجعل من كل تفكير في التاريخية أمراً صعباً. في الواقع، البنيوية هي مقاربة للاجتماعي الذي يرتبط بتطور المنطق الرياضي بينما الوظيفية التي تأخذ أداها من السيبرنتيقا تميل إلى مطابقة الجسم الاجتماعي بالجسم.

⁶⁵Ibid .

⁶⁶Ibid.

المحاضرة السادسة

إبستمولوجيا علم النفس

1- ميلاد علم النفس

2- علم السيكلوجيا

3- تطبيقات علم النفس: أبحاث أساسية وعلم نفس تطبيقي

4- مشكل وحدة وخصوصية علم النفس

5- مشكل وحدة وخصوصية علم النفس

6- اختلاط وخلاف المذاهب

7- مشكل التفسير في علم النفس

1- ميلاد علم النفس:

مر قرن على ظهور أول كتاب في علم النفس التجريبي أي في سنة 1860 تحديدا " Eléments des psychophysik" لفيشنر Fichner. رغم أنه صادر عن اهتمامات فلسفية، هذا الكتاب يقطع مع تقليد علم النفس الفلسفي، مستعملا من أجل دراسة الظواهر النفسية نفس المنهج المستعمل في علوم الطبيعة والحياة. الطبيب والفيزيائي فيشنر كرس علم النفس كعلم تجريبي، وبالتالي كعلم بمعنى أدق. مع ذلك هذا التكريس لم يصر رسميا إلا انطلاقا من اللحظة التي تأسس فيها من جهة بواسطة تدشين في سنة 1862 من قبل ووندت Wundt، لدراسته " علم النفس من وجهة نظر العلوم الطبيعية " المجسدة بواسطة ظهور سنة 1873 - 1874 لأول بحث في علم النفس العلمي (عناصر علم النفس الفيزيولوجي) ومن جهة أخرى وخاصة بواسطة تأسيس بفضل ووندت لأول معهد وأول مخبر لعلم النفس في لايبزيغ سنة 1879، بهذا المعنى وبفضل التأثير المعترف الذي مارسه بواسطة عديد تلامذته في الأمم الرئيسة (ألمانيا، الولايات المتحدة، إنجلترا، فرنسا وبلجيكا) ووندت يعتبر مؤسس النفس التجريبي وبصفته الممثل الأول لعلم النفس العام.

هذا الميلاد المؤسسي في ألمانيا وجد تقليدا في المبادرات المماثلة في فرنسا مع محاضرات علم النفس التجريبي التي كان يلقيها ريبو Ribot بجامعة السربون سنة 1885، بعد الظهور الذائع الصيت لكاتبه " علم النفس الإنجليزي المعاصر " (1870) و " علم النفس الألماني " (1879)، استحدث كرسى علم النفس التجريبي والمقارن بالكلية الفرنسية سنة 1889 الذي منح لريبو، وافتتاح في نفس السنة لمخبر في علم النفس الفيزيولوجي بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بالسربون، حيث ترأسه ريبو. في الولايات المتحدة تطور علم النفس التجريبي تم على صورة مدن صناعية. إذا كان في أوروبا قد احتل مكانة ضمن العلوم والمعاهد، وتم الإعتراف به كعلم وليس كفرع من الفلسفة فقط، فقد استقبل على العكس من قبل الجامعات الأمريكية التي أعطت له وجهها جديدا. هكذا فإن ستانلي هيل Stanley Hell تلميذ وليام جيمس أسس بعدما عمل بعض الأشهر بلايبنغ إلى جانب ووندت، أول مخبر أمريكي لعلم النفس بجامعة جون مويكينزبالتيمور، وهو ما تم تقليده مباشرة في جماعات أخرى. في سنة 1892 كان قد وجد 17 مخبرا، وأكثر من ذلك، سنة 1887، هيل أصدر أول مجلة أمريكية لعلم النفس (L'american Journal of Psychology) وثمة وقائع أخرى ذات دلالة، ففي سنة 1892 هيل استطاع أن يجمع 31 عالم نفس في أول جمعية (الجمعية الأمريكية لعلم النفس) وهو أول مجتمع لعلم النفس في العالم.

2- علم السيكولوجيا:

نعرف أن أوغست كونت أخرج علم النفس من برنامجه الوضعي من نظام العلوم. ففي تصنيفه للعلوم الفيزيائية غير العضوية والفيزياء العضوية وبشكل أخص في هذه الأخيرة، لم يمنح أي مكان لمعرفة خاصة عن التنظيم الفعلي، بين العلوم التي تهتم بالتنظيم الاجتماعي والسياسي وتلك التي تهتم بالتنظيم الفيزيولوجي. الإنسان، الحيوان التاريخي الوريث لتقليد يفسر حسبه في حيوانيته بواسطة فيزيولوجيا الوظائف العضوية، وفي بعده الثقافي بواسطة علم الاجتماع كعلم للتاريخ الفكري والأخلاقي للكائن الأكبر: الإنسانية، حيث أن كل فرد ما هو إلا تجريد.

كونت نفسه في مقدمته الأساسية ألم يعبر عن رغبته في أن تصبح دراسة الوظائف العقلية والنفسية دراسة تجريبية وعقلية ؟ ومع ذلك الوقوف ضد العلم السيكولوجي بالمعنى الصحيح يظل موجودا. كونت يرفض الإستبطان في كل أشكاله باعتباره تأملا وهميا للفكر بواسطة هذا الفكر نفسه. وحدها الملاحظة الخارجية للفرد وهذه الملاحظة هي من عمل البيولوجيا تبقى صالحة. ما يرفضه كونت ليس علم الروح الذي يمكن أن نجعل منه

علم الحياة وإنما هو علم الذات. لا وجود لعلم الذات متميز ويتعذر تخفيضه إلى علم الطبيعة الفيزيولوجي وعلى الطبيعة الاجتماعية لكل الكائنات البشرية.

الإعتراف الكونتي بالقيمة الموضوعية لمنهج الملاحظة الخارجية وحده يقود هكذا إلى معضلة لا حل لها: إما أن علم النفس يحتفظ بخصوصيته الإستيمولوجية وينقلب عندئذ إلى الميتافيزيقا والخطاب الأدبي، أو أنه يخضع موضوعه للمنهج الوضعي وعندئذ يكون علما للطبيعة وليس علما للذات أبدا. في نهاية الأمر، علم النفس يكون خاضعا لمعيار تصور قبلي للموضوعية العلمية مطابقة لمنهج.

الأمر يتعلق حسب عبارة جريكو G.Greco بفيتو، فيتو الوضعية المناقضة لكل إدعاء علمي لعلم النفس كعلم للذات.

هذا الفيتو لازم علم النفس منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى اليوم. ولكن رغم هذا الفيتو فإن علم النفس نجح في إكتساب موقعه الرسمي كعلم إنساني تحديدا.

علم النفس العلمي والفلسفي:

لتقويم حالة الوقائع والاتجاهات هناك تقريران يتعاضدان، من جهة الإتجاه الدولي لعلم النفس العلمي، الذي يجمع مجتمعات علم النفس الوطنية لم يرد أبدا الانخراط في المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية، ليس لأنها لا تهتم بهذه الأخيرة ولكن من أجل الاحتفاظ بمسافة تجاه التأمل الفلسفي. ومن جهة أخرى يوجد مفكرون بالنسبة لهم علم النفس العلمي لا يكفي لمنح معرفة عن الإنسان ويجب أن يكمل بعلم نفس فلسفي (يقال له أيضا أنتروبولوجيا فلسفية). من المهم إذن من أجل فهم إتجاهات علم النفس العلمي المعاصر، البدء بتحديد الاختلافات بين هذين التيارين واستخلاصا لاقتضاءات الخاصة بعلم النفس كعلم.

بالنسبة لعديد الكتاب، بشكل خاص الذين لهم آراء وضعية، الفرق بين علوم النفس العلمية والفلسفية يرجع إلى طبيعة المشكلات المعتمدة. العلم السيكلولوجي، مثله مثل أي علم آخر، لا يهتم سوى بالأشياء القابلة للملاحظة، بينما الفلسفة تبحث عن الوصول إلى طبيعة الأشياء وجوهرها. من ناحية أخرى، يمكن القول أن الحدود بين علوم النفس العلمية والفلسفية هي مسألة مناهج: مناهج موضوعية من جهة، وتأميلية وحدسية من جهة أخرى.

وسيكون أيضا من الخطأ افتراض أن علم النفس الفلسفي هو وحده يعتبر الكائن الإنساني مثلاً كموضوع معرفة من وجهة النظر الإستمولوجية، بينما علم النفس العلمي يجعل منه موضوعاً. ذلك أنه ليس هناك سوى لعب بالكلمات غير واع. يقصد إلى الخلط بين الدراسة الموضوعية للذات مع جهل أو إهمال هذه الذات.

إذا كان الاختلاف بين علوم النفس العلمية والفلسفية لا يرجع لا إلى الاستبطان ولا إلى اعتبار الموضوع، يجب إذن البحث عن هذا الاختلاف على نطاق ضيق، والذي هو نقطة منهج ولكنه يمس حصرياً دور أنا الباحث ذاته. الموضوعية كما يفهمها علم النفس العلمي في اتجاهاتها الحالية، ليست أبداً إهمال أو تجريد لوعي الذات، إنها إزاحة التمرکز بالنسبة لأنا الملاحظ. من هنا الاتجاهات الثلاثة الرئيسية للبحث أو الثلاث نقاط الكبرى من وجهات النظر التي تميز الاتجاهات الأكثر عمومية لعلم النفس المعاصر.

1- وجهة نظر السلوك، بمعنى السلوك بما في ذلك الوعي، الاستبطان وحده غير كاف لأنه في نفس الوقت ناقص (إنه يصل إلى نتائج العمل الذهني وليس إلى آليته الحميمية)، ومشوه (لأن الذات التي تستبطن هي في الوقت ذاته حكم وطرف، ما يلعب دوراً مهماً في الحالات العاطفية، وحتى في الميدان المعرفي حيث يعكس في الاستبطان فلسفته الخاصة) ولكن الوعي يظل ظاهرة أساسية إذا وضعناه في مجموعة السلوك.

2- وجهة النظر التكوينية: بمعنى النمو التطوري الجيني: الذي يأخذ في الاعتبار سوى البالغ. فنحن لا نلاحظ سوى الآليات التي قد تكونت، بينما تتبع النمو يوصلنا إلى تكوينها، والتكوين وحده يفسر.

3- وجهة النظر البنيوية: البحث عن بنيات السلوك أو بنيات الفكر الناتجة عن الاستبطان التجريبي للأفعال، ولكن بنيات يمكن بناء تجريبياً آثارها بينما الذات نفسها لا تشعر بوجودها كبنيات. علم نفس الصورة فتح الطريق إلى هذا النوع من الدراسات التي نبجدها اليوم في عدة ميادين مختلفة: البنيات السيكلوسانية، السيكلوجتماعية، بنيات عمليات الذكاء.

وهكذا نفهم إذن جيداً الحدود بين علوم النفس العلمية والفلسفية. فليس لا المشكلات ولا ميادين الدراسة هي التي تميزهما، وأي سؤال يعالج بواسطة علوم النفس الفلسفية يمكن أن يدخل في حقل علم النفس العلمي، وبالمثل نلاحظ فلاسفة يهتمون بالسلوك، أو بالنمو أو بالبنيات. الفرق الوحيد يرجع إلى لامركزية الأنا.⁶⁷

3- تطبيقات علم النفس: أبحاث أساسية وعلم نفس تطبيقي:

⁶⁷Jean Piaget ,Epitémologie des sciences de l'homme , op.cit .

علم النفس يهتم كل الأنشطة وكل حالات الإنسان: التربية، الحالات المرضية وعلاج الأمراض النفسية، الصحة العقلية، العمل والفراغ، الإنتقاء والتوجيه المدرسي أو المهني للأفراد. منذ تكوينه، علم النفس العلمي وجد نفسه منحرفا بإرادته أو مكرها في مشكلات التطبيق وحتى بعض مشكلاته ساهمت في توجيهه التجريبي أثناء الانطلاق. في الواقع علم النفس وجد نفسه دائما في وضعية مقارنة نوعا ما بالطب، بمعنى مرغما على تطبيقات قبل حتى امتلاك معارف تجريبية وخاصة نظرية والتي مكنت من تأسيس بعض اليقينيات.

وعلم النفس التطبيقي يتجلى أكثر في التربية، وعلم الأمراض العقلية كما في أعمال فرويد وبيارجانيه ودور علماء النفس يكمن في تقديم معطيات سيكولوجية ضرورية لتشخيص الأمراض العقلية. يوجد بهذا الصدد العديد من الأعمال المنصبة على الاختبارات أو مناهج اختبار الوظائف المعرفية في الأمراض العقلية أو على ردود الأفعال الانفعالية وشخصية الذات. علم النفس يدخل أيضا في تنظيم العمل بشكل عام. فهنا علم النفس يقدم توجيهها للأفراد في اختيار وظائفهم.

4-مشكل وحدة وخصوصية علم النفس:

ملاحظة أولى تنطرح، متصورا تتابعيا أو تزامنيا، علم النفس يتمثل لنا كتجميع لفروع متميزة أكثر منه علما واحدا ووحيدا. في الواقع، من جهة النظر التاريخية، إذا أخذنا لوحة مختلف التيارات الدولية لعلم النفس المعاصر فإننا نرى أن علم النفس الألماني مع ووندتوفيشنر ولد عن التقاء الفلسفة بعلم النفس الفيزيولوجي. وإن علم النفس الإنجليزي مع جالتون نتج أساسا عن تقارب التطورية الداروينية مع علم النفس الفارقي، وأن علم النفس الأمريكي خضع لتأثير الداروينية وهو تابع أيضا قبل كل شيء للنزعة التجريبية بعلم النفس الفيزيولوجي لوندت، وأن علم النفس السوفييتي يشتق مباشرة من أبحاث بافلوف النوروفيزيولوجية الحيوانية. ومن جهة أخرى، كانغيلام أشار إلى أن الفروع التي تمثل أجزاء متممة لعلم النفس مثل علم النفس الفيزيولوجي، وعلم النفس الفيزيائي أو بالأحرى أساليب المقاربات المكونة للدراسات النفسية مثل الاستبطان أو الملاحظة الخارجية، لا تتعلق بنفس المشروع أو المعنى الأصلي. هكذا فإن علم الفيزيولوجي يرجع إلى الاكتشاف بواسطة جاليان Galien لوظائف الدورة وللتنفس وحتى ما وراء ذلك، إلى النظرية الأرسطية في النفس كموضوع طبيعي، وبالتالي كموضوع فيزيولوجي. علم النفس من جهته وجد أساسه ومخططه في المحاولة الديكارتية لاختزال الاختلافات بين الصفات الحسية واختلافات الأشكال الهندسية. وبالمثل، علم النفس، كاختبار استبطاني للذاتية، علم المعنى الحميمي،

سيكون محصلة للتأمل البراني، بينما الملاحظة الدقيقة للاستجابات السلوكية مثلما يطبقها علم النفس المعاصر، تشتق من المسلمة التجريبية للإنسان -الأداة، الموجهة بواسطة اقتضاءات التكيف مع الوسط.

ولكن ما وراء هذا التنوع في المعاني الأصلية للفروع والمناهج السيكلوجية، ألا يوجد إنشقاق أكثر جذرية في المركز الغامض لعلم النفس في الوقت نفسه كعلم لكائن حي، وإذن علم للطبيعة، وللإنسان كمنتج ومنتج للثقافة ؟

في الواقع، كما بين ذلك بوضوح لاغاش، تاريخ علم النفس هو تاريخ الصراع بين اسلوبي تفكير. هكذا فإن علم النفس ينحل إلى البحث الفيزيائي، والفيزيولوجي أو في تخمينات فلسفية أو سوسيوولوجية. هذان الأسلوبان اللذان يسميهما لاغاش بالطبيعية والإنسانية، الأولى ستمثل من رجال مختلفين مثل أرسطو، ووندت، ريبو، بافلوف، واطسن، والثاني بواسطة ستارنوباسيرس وسارتر. التناقض يتجسد في الطريقة التي يدرك بها هذا الطرف الواقعة النفسية المتمثلة في شيء، وفي شعور من الطرف الآخر. وفي اختيار مناهج البحث التي يجب حسب أحد الطرفين أن تكون تحليلية، وآلية، وكلية وغائية حسب الطرف الثاني. وفي أسلوب المعقولة، المختزلة إلى التفسير الشرعي والكمي بواسطة هذا الطرف، وإلى الفهم بواسطة النمط الكيفي أو النماذج المثالية حسب الطرف الآخر. وفي التشديد على الطبيعة العضوية للظواهر النفسية من هذا الطرف، وعلى الخاصية التاريخية للظاهرة ومصدرها اللاشعوري بواسطة الطرف الآخر. وأخيرا في الأخذ في الاعتبار للوقائع الموصوفة في تمظهرها الحس حركي من هذا الطرف، وعلى العكس لقيمتها الوظيفية لضروريات التكيف الحيوي من الطرف الآخر.

5- عرض موضوعاتي لمختلف علوم النفس:

الوسيلة الوحيدة التي تبقى لدينا من أجل معرفة ما هو علم النفس هي القيام بعرض موضوعات مختلف علوم النفس.

1- **الطبيعية:** كلمة علم النفس إستعملها أرسطو الذي كتب " كتب في النفس " كلمة النفس تشير إستقافيا إلى علم الروح، ولكن الروح جوهر، بمعنى أساس حال في وعي. ومشكل الجوهر مشكل ميتافيزيقي. مفهوم الروح إذن هو مفهوم ميتافيزيقي وليس علميا، الشيء الذي قاد إلى تحديد تعريف أرسطو. فقط إذا طالبنا ماذا يفهم أرسطو من كلمة روح، فإنه يجيبنا بأن الروح هي صورة الجسد. هذه العبارة بمجرد أن نتخلص من حملتها الفلسفية تبدو لنا حديثة. إذا كانت النفس هي مجموع وظائف الجسد، الترسيمة العامة التي يعمل فيها هذا الأخير ويستجيب، فإننا نلاحظ أن علم النفس الأرسطي يعلن ويصور أحد إتجاهات علم النفس المعاصرة:

الطبيعية. التي بإبعادها المنهج الفهمي تجعل من علمنا أحد العلوم الطبيعية، أرسطو يجب أن يتصور كمؤسس لتقليد سيعيده ووندت وفي فرنسا ريبو الذي جعل من النفس علما ماثلا للفيزياء أو للبيولوجيا، تجريبيا خالصا. لقد كتب ريبو في علم النفس الإنجليزي المعاصر، سيغدو تجريبيا خالصا. ليس له من موضوع سوى الظواهر، قوانينها أسبابها المباشرة " ⁶⁸ وكلمة ظواهر لا يجب أن نفهم منها ما يتعلق بالحياة الداخلية، ولكن فقط ما يكون قابلا للحس الخارجي، سلوك جسم في وسطه. وأكثر من ذلك، ريبو وبافلوف حاولا إقامة علم النفس على أساس تحليل المنعكسات، واطسن أمريكي معاصر طالب بإقامة علم نفس بدون شعور. موضوع علم النفس سيغدو إذن موضوعا ماديا قابلا للتحقق: مجموع إستجابات العضوية، متصورة في مجموعها، لمتطلبات العالم.

(1) -نأخذ من الوعي وبشكل عام أكثر حتى الذات باعتبار أن واطسن لا يريد أن يفهم الكلام عن دائرة عصبية بين الفعل - من العالم - واستجابة الذات. إن عالم نفس سلوكي من مدرسة واطسن لا يمنح أي أهمية للمقاصد ولكن فقط السلوك الذي يختزل إلى مثير -إستجابة-

(2) -نأخذ موقفا تحليليا وآليا: الأجزاء تحدد الكل. ما هو أولي، هو العنصر، ذرة وليس المجموع. الإستجابة الشرطية يجب أن توضع في البداية والعادة ليست سوى سلسلة من الإستجابات الشرطية مثل الشخصية.

(3) -نبحث عن ترجمة الواقع الذي هو محل تساؤل بواسطة القوانين، كمية على قدر المستطاع على نموذج قوانين الفيزياء.

(4) -نفترض هوية في الدعامة بين الظواهر البيولوجية والظواهر السيكلوجية ألا وهي الجسد.

(5) -وأخيرا علم النفس الطبيعي يرفض الإعتراف بالغائية وبأخذ في الاعتبار الغايات المتضمنة بواسطة التصرف الإنساني.

2-الإنسوية: في مقابل التقليد الطبيعي يقوم التقليد الإنسوي، بالنسبة لهذا الأخير الإنسان هو موضوع بحث متميز عن الموضوعات الطبيعية. إنه أكثر من جسد، إنه وعي. هذا التقليد يعود إلى ديكارت. موضوع علم النفس ليس ابدا موضوعا ماديا، ومفهوم الظاهرة يجب أن يصحح. الظاهرة ليست هنا سوى الدلالة ذاتها، مناهج الإنسوينسترتبط إذن كلها بالفهم.

وها هي موضوعات علم النفس هذا المحللة من قبل لاغاش.

⁶⁸Philosophie des sciences OP.cit .

1- لا نفترض الاختزالالوطني للموضوع بالعلاقة مثير -إستجابة. الواقعة السيكولوجية وعي كما يقول سارتر.

2- لا نحلل في البدء ونأخذ السلوك في دلالته المباشرة ككل. نعتبر أن التركيب الشامل للشخص في وضع داخل العالم هو الذي يعطي معنى للمحددات الجزئية. الكل إذن هو الذي يحدد الأجزاء. مثل هذا الموقف في المعرفة يغدو غائبا في مقابل الموقف التحليلي الآلي.

3- بدلا من القوانين، هناك علاقات وظيفية تفسر فهميا بواسطة ترسيمات مثالية، مماثلة للترسيمات التي نستعملها في التاريخ. لا يوجد فقط مماثلة خارجية خلال تحليل نفسي مثلا، الأمر يتعلق بالنسبة للممارس بتكوين التاريخ الفردي للذات.

4- علماء النفس الإنسوي يفترضون بروزا بين البيولوجي والسيكولوجي. الركيزة ليست الجسد ولكن الشعور أو اللاشعور.

5- وأخيرا علم النفس الإنسوي لا يقصي اعتبارات القيم، على العكس يؤكد على أهميتها " علم النفس يجب أن يكون وظيفيا، كتب لاغاش - التكيف هو المشكل المركزي للبيولوجيا وعلم النفس، عالم الكائن الحي هو دائما عالم القيم ".⁶⁹

6-اختلاط واختلاف المذاهب:

مشكل وحدة علم النفس:

1- اختلاط واختلاف المذاهب:

لا يجب مع ذلك تحليل قطيعة واضحة وصريحة بين التقليدين السابقين الطبيعانية والإنسوية. لاغاش أورد علوم نفس إنسوية في بعض وجوها وطبيعانية من وجوه أخرى. هكذا فإن التحليل النفسي، نستطيع أن نعتبره كعلم نفس إنسوي، ولكنه يبدو أنه ينجر ببعض منظريه داخل حقل الطبيعانيين.

ولكن هذه التداخلات لا تسهل الحوار. والنقاش بين المذهبين لا يظل دائما على المستوى الموضوعي، بل يتحول إلى جدل.

⁶⁹Ibid .

2- مشكل وحدة النفس: كما يبين لاغاش مشكل وحدة علم النفس مشكل واقعي. سنرى بالأحرى علوم نفس، بين علوم النفس الطبيعية والإنسوية، بين علوم النفس التي تستعمل الفهم وبين تلك التي لا تريد أن تكون تأويلية هناك قطيعة تقود إلى حد الشك في كون علم النفس علما.

مذاهب ومناهج:

إذا انطلقنا من تاريخ علم النفس فإننا نصادف أولا مفكرين بدؤوا بالاستبطان يسمى مذهبهم مع لاغاش بعلم نفس الشخص الأول، ثم هناك مفكرون نظروا إلى الإنسان كشيء نعطي لمذهبهم اسم علوم نفس الشخص الثالث. وأخيرا مفكرون يتبنون المنهج العلاجي عاجلوا الإنسان الآخر كغير بمعنى كوعي داخل العالم مختلف عن ذاتهم، نسمي مذهبهم بعلم نفس الشخص الثاني.

1- علم نفس الشخص الأول:

أ- المنهج: منهج علم نفس الشخص الأول هو الاستبطان، بمعنى الملاحظة الدخلية للذات بواسطة الذات نفسها، هذا المنهج يقدم ميزة متميزة، الأمر يتعلق بمعرفة يكون فيها الموضوع والذات متطابقين وحاصلين كليهما على الوعي. ليس إلا بنوع من التجريد أن نقدر على التمييز بين الوعي التأملي - الموضوعي - والوعي والتأمل - الذات.

نتائج المنهج:

حصر الواقعة النفسية ضمن ظاهرة الاستبطان قاد إلى بعض النتائج الحسنة.

- 1) - الواقعة النفسية يتم معرفتها من قبل الذات وحدها. أي نقد يكون غير ممكن من الخارج، ولا أية مراقبة.
- 2) - الواقعة النفسية تتموضع خارج الفضاء. هذا الاعتقاد الناتج مباشرة عن الثنائية الديكارتية التي تقابل الفكر الواعي بالإمتداد، يدخل إبعاد وقائع السلوك.
- 3) - الواقعة النفسية غير قابلة للقياس. من المستحيل أن نعطي كميته لذكرى ما، أو لانفعال معين. الغضب الشديد هو الغضب العنيف.
- 4) - وأخيرا بالنظر إلى الملاحظات السابقة، الواقعة النفسية غير قابلة لأن تؤول، ولكن فقط أن تكون مفهومة. هذا يمنح علم النفس خاصية وحيدة: خاصية أن يكون علما، مبعدا التحليل، والتجريب والعلاقات السببية والتكميم.

المذاهب:

هناك توجهات ومذاهب داخل علم النفس الاستبطاني.

- 1) -علم النفس الانتقائي: الممارس من قبل فكتور كوزان، لم يكن في الأصل سوى فلسفة تفترض وجود في الوعي العناصر الموجودة من قبل في الفكر البشري.
- 2) -علم النفس الترابطي: يمثل في فرنسا هيبوليت تين H.Taine، يريد تفسير الحياة الذهنية بواسطة الترابط حسب قانونين أو ثلاثة بسيطة من الإحساسات الأولية.
- 3) -علم النفس التأملي: يرجع كما يرى دولشوفر شروط الفكر إلى وحدة الفكر سواء في شخصيته، أو ميتافيزيقيا في أنماط عالمية للنظام والتنظيم، ويضيف دولشوفر بهذا المعنى يقوم على مشكلات فلسفية عامة.
- 4) -علم النفس الفينومينولوجي: الذي ينقل إلى دراسة الوقائع الذهنية منهج هوسرل. إنه علم نفس وصفي.

الاعتراضات على الاستبطان:

- اعتراض أوغست كونت: العين لا ترى نفسها يقول كونت. لا يمكن أن نكون أمام النافذة ونرى أنفسنا نمر في الشارع. بمعنى أن الشخص لا يمكن أن يلاحظ ذاته.
- في الاستبطان تكون الذات هي الموضوع. وهذا خطأ يقول كونت. الموضوع لا يكمن أن يكون ذات من غير تناقض.
- بعض المفكرين من أنصار التحليل النفسي ومن الماركسيين يرون أن الشعور هو وظيفة للتبرير والتشويه بدلا من أن يكون معرفة صحيحة.

2- علم نفس الشخص الثالث:

- مبدأ علم نفس الشخص الثالث هو نقيض مبدأ علم نفس الشخص الأول. الواقعة النفسية يجب أن تعتبر شيئا. بدلا من الملاحظة الداخلية نعتمد الملاحظة الخارجية. بدلا من الموضوع: الشعور نضع الموضوع: السلوك. ولكن ما هو السلوك؟ السلوك هو مجموع ردود الأفعال للجسم على أفعال العالم.

المناهج:

على عكس الملاحظة الداخلية، الملاحظة الخارجية تتضمن تعددية في المناهج التي لها علاقة مع علوم أخرى.

أ- **مناهج المخبر:** علم النفس الفيزيائي: نستعمل مواد من الفيزياء من أجل إظهار العلاقات السيكلولوجية.
ب- **مناهج المخبر:** علم النفس الفيزيولوجي: نلجأ إلى العلاقات وإلى مواد فيزيولوجية، بواسطة أجهزة متنوعة نتوصل إلى الشروط العضوية للواقعة النفسية.

ت- **الملاحظة المباشرة للسلوك:** منهج الملاحظة المباشرة للسلوك الممارس من قبل بافلوف في روسيا، وفي أمريكا من قبل واطسن Watson. هذا المنهج مشتق عن الإجراءات المطبقة من قبل ياركس Yerkes أولاً، ومن قبل ثورنديك Thorndike في دراسته علم النفس الحيواني.

في الأخير نذكر مناهج نفسية خالصة تتمثل في الاستبطان التجريبي والاختبارات. الاستبطان التجريبي: جمع بين علم نفس الشخص الأول وعلم نفس الشخص الثالث. يمارس هذا المنهج من قبل مدرسة ويرتزبورغ Wurtzbourg.

الاختبارات: اخترعت في الولايات المتحدة سنة 1890 بواسطة كاتيل Cattell تقوم على تقديم للأشخاص الذين نرغب في اختبار نفسانيتهم، أو اختبار هذه الوظيفة أو تلك، اختبارات مثبتة لمرة واحدة. من بين تلك الاختبارات اختبار رورشاخ Rorschach الذي يطلب من الشخص تفسير بقع الحبر. واختبارات الذكاء من قبل الفرد بيني وسيمون.

المذاهب:

أ- **السلوكية:** موضوع علم النفس هو السلوك، حيث أن التأويل ميكانيكي صارم والذي ينحل إلى ردود أفعال. هذا المنهج يرفض أخذ الشعور في الاعتبار. لا يوجد تمايز أساسي بين علم النفس والبيولوجيا.
ب- **نظرية الصورة:** إلى جانب علم نفس السلوك يجب أن نذكر نظرية الصورة (الجشتالتية Gestalttheorie) إنها تعترض على فكرة التحليل وتجعل الكليات الدالة تظهر لوحدها، سواء مع ويرتهايمر حيث تقود إلى إضاءة الإدراك، أو مع كورت لوين Curt Lewin حيث وصف السلوك بواسطة ترسيمات عامة.

علم نفس الشخص الثاني:

موضوع علم نفس الشخص الثاني هو الأنت، الإنسان متصورا كشعور موضوعي، يقع في العالم بواسطة جسده. مبدؤه هو القضية التي تقول بوجود أسلوب إدراك متميز أصلي للشخص باعتباره شخصا وليس شيئا.

المناهج:

مناهج علم نفس الشخص الثاني تقود كلها إلى استهداف شعور ما ضمن التظاهرات التي يتموضع بها:

(1) -المحادثة: هذا هو منهج المحللين النفسانيين.

(2) -ملاحظة الأعراض.

(3) -الإستبيانات .

(4) -سير الحياة.

(5) -دراسة الأعمال: يوجد علم نفس الأدب.

المذاهب:

1- علم النفس الوصفي: علم النفس الوصفي ممثل بكتايباسبرس Jaspers علم النفس المرضي العام. بعدما طرح عدم قابلية اختزال الذهني إلى العضوي ياسبرس مطبقا مبدأه، بين أنه لا وجود لظاهرة جسدية يمكن أن نعتبرها سبب شعور محدد. الإصابات المخية ليست سوى شروط بعيدة للأمراض العقلية.

2- علم نفس الأعماق: إلى جانب علم وصفي خالص، بعض علماء النفس بحثوا عن تحديد الجذور، الأسباب العميقة للظواهر العقلية. إنهم علماء التحليل النفسي وعلماء الطباع.

7-مشكل التفسير في علم النفس:

نعرف أن كونت في قانون الأحوال الثلاثة أقصى من الحالة الوضعية كل محاولة للبحث عن الأسباب باعتباره أسلوب تفكير ميتافيزيقي.

تفسير الوقائع، مختزلا إلى حدوده الواقعية ليس منذ اليوم سوى العلاقة المبنية بين مختلف الظواهر الخاصة وبعض الوقائع العامة التي يقلص تقدم العلم عددها. بعبارة أخرى مفهوم التفسير بالمعنى الوصفي يتحدد بتأسيس قوانين كمية بين الظواهر الملاحظة. العلم المعاصر لم يمثل لهذا المبدأ. سواء في العلوم الفيزيائية الكيميائية أو العلوم البيولوجية، الاستعمال العقلاني لمفهوم السبب أصبح جاريا ولا يكف عن أن يظهر خصوبة كبيرة. على العكس، علم النفس معاقا منذ الانطلاقة بواسطة الفيتو الوضعي الذي طرح عليه، وجد صعوبات أكثر لشرعنة لجوئه

للتفسير السببي، وحتى يمكن أن نضيف، شرعي من حيث أن صياغة قوانين عامة يبدو أنها تفرغ فردية السلوكيات الفردية. لهذا فإن إدانة التفسير في علم النفس تم النطق بها لأسباب متعارضة. ورثة وضعية صارمة أمثال سكينر Skinner أو وودرو Woodrow وأنصار علم نفس فهي لفرديات مثلما يقترح الفينومينولوجيون. سكينر رفض الفرضيات الفيزيولوجية والذهنية وحاول الاحتفاظ بوصف صارم لوقائع الملاحظة المباشرة، من غير أن يمنحها خصائص محلية أو فيزيولوجية. إذا كان الفينومينولوجيون مثل ياسبرس يقتصرون أيضا على الوصف، فإنه على العكس، لأنهم يقصدون فهم أصالة الوعي الذي يزدريه السلوكيون، بمعنى كشف دلالة هذه المحتويات. والحال أنه يجب الاعتراف أن هؤلاء وأولئك لم ينجحوا أبدا في الاحتفاظ بوعدهم. الأول لأنهم لا يستطيعون تجنب مفهمة المعطيات التجريبية وتكوين جهاز منطقي للوصف مع تركيبه وعلم دلالاته. مثلا، لا شيء ساذج أكثر من المثير المفهوم المؤلف في الظاهر الذي يمكن أن يحمل عدة مختلفة جدا. ومع ذلك رفض كل نظرية أليس هو التموقع نظريا ؟ أما الفينومينولوجيون، فبحثهم عن الفهم الساذج للتجربة المعاشة لذات ما ألا ندينهم في إبدال تصور التفسير السببي والرياضي، بالمقاربات المثيرة ولكنها عقيمة من حيث الاستعارات الجميلة ؟ على كل حال، الظنة المشتركة للوضعية والفينومينولوجية تجاه التفسير العضواني بمعنى ذو الأساس الفيزيولوجي بشكل خالص، برغم هذا وذاك، وإن كان لأسباب متعارضة (الفيزيولوجي حقيقة مجردة ومستنتجة وإذن ذاتية بالنسبة لسكينر. إنه مركز تحليلي وآلي وإذن موضوعي بشكل خالص بالنسبة للفينومينولوجي)، على الامتناع عن كل تأكيد بواسطة علوم الحياة. من هنا خطر العقم. الرضا ببناء دوام العلاقات الرياضية بين متغيرات ملاحظة من غير إعلامنا بطبيعتها، أو وصف محتوى كل شعور من غير رؤية إدراجه العضوي، هو الاستسلام إلى صياغة مجانية، مصطنعة وباطلة. لهذا السبب فإن العمل العلمي في الفيزيولوجيا كما في غيرها يجب أن يكون حسب صيغة بياجي المرور المستمر من البحث عن القوانين إلى الفرضيات التفسيرية. في الواقع بياجي يميز بين ثلاثة مساعي للبحث الفيزيولوجي. المسعى الأول شكلي ويتمثل في بناء وقائع عامة أو قوانين. لكن القانون في ذاته لا يفسر شيئا. إنه يقتصر على ملاحظة عمومية لعلاقة واقعية (تتابع، علة) التفسير لا يبدأ إلا مع التنسيق بين القوانين وهذا التنسيق يتجلى تحت شكلين متكاملين يتحققان بواسطة المساعي التالية: أولا، على الشرعية البسيطة يجب إضافة البناء الاستنباطي، الذي على بساطته نستخلص بواسطته القانون الذي نفسر به القوانين المفترض تفسيرها. هذا الاستنباط لقانون انطلاقا من مجموعة قوانين أخرى يتطابق في الرياضيات مع نظرية ما انطلاقا من مبادئ أخرى إذا كان هذا الاستنباط يكفي في الرياضيات، بفضل مثاليته، فإنه بحاجة في العلوم التجريبية من أجل أن يصبح تفسيراً سببياً، إلى أن يكمل بواسطة مسعى ثالث يقوم على تطبيق الاستنباط على موضوع واقعي. بعبارة أخرى،

إنها مرحلة مرجعية القوانين إلى الواقع. عالم النفس يسلم إذن على هذا المستوى بتشاكل بين عملية تفكيره والظواهر الواقعية للتجربة. ولكن الواقع والاسقاط ذاته يمكن أن يدركا بطرق مختلفة. هكذا يمكن أن نتصور الواقع إما كوجود سابق داخل أو خارج العملية السيكلوجية وعندئذ الإسقاط السببي يتحدد باختزال خالص وبسيط لهذا النمط من الواقع وإما كدينامية بنائية لنشاط بناء صور جديدة وفي هذه الحالة الإسقاط يتطابق مع ميكانيزم البناء ذاته. من هنا حسب بياجي تصنيف نماذج التفسير السيكلوجي بين قطبين: التحول المنهجي والبنائية.

المحاضرة السابعة

إبستمولوجيا التاريخ

1- ما هو التاريخ ؟

2- المشكلات المنهجية والإبستمولوجية للتاريخ

3- المدارس التاريخية

4- الوصف والتفسير في التاريخ

1- ما هو التاريخ ؟

يقول ريمون أرون التاريخ هو علم الماضي الإنساني ويقول شارل سينيوبوس C.Seignobos " التاريخ بالمعنى المعاصر يؤول إلى دراسة الناس الذين يعيشون في المجتمع، إنه علم وقائع الماضي الإنساني"⁷⁰.

هذان التعريفان يستحقان الشرح والمناقشة.

التاريخ علم: هذه القضية لا تفرض لا تعليقا ولا مناقشة إذا لم ندافع أحيانا على أن التاريخ فن، أو فرع من الأدب. الفضل يعود إلى كورنوت Cournot الذي نزع القناع عن الوظيفة التفسيرية للتاريخ. التاريخ خطاب منظم ولكن ليس بهدف جمالي خالص، يجب أن يبرز ما وراء عماء الأحداث داخل الصدفة ذاتها، التي تحددها، العقل الذي ينظمها.

هناك نظام تاريخي أصلي يتميز عن نظام علوم الطبيعة الذي يربط الخصوصيات.

التاريخ وعلم الماضي:

يمكن أن يبدو ضروريا تحليل هذه القضية، من الواضح أن التاريخ لا ينصب على المستقبل ولا علا الحاضر. تاريخ الأزمان الحاضرة هو تاريخ ماضي قريب. ولكن بعض الخصائص الأساسية للتاريخ تأتي من علاقته الحصرية بالماضي.

نفهم من كلمة حقيقي ما يكون حاضرا أمام حواسنا، الماضي ليس حقيقيا. نستطيع أن نتخيل جان دارك ونابليون ولا يمكننا رؤيتهما. يمكن أن نكتب كتابا عن شخصية معينة ولكن هذه الحياة لا يمكن أن نحيها. الماضي لا يعطى ليس أبدا كواقعة. إنه دائما خيالي. ولكن هناك إثبات من اللاحقيقي أحدهما يمكن أن يخترع للاستمتاع والذي يبحث عن مرجعيات في العالم، ألا وهو الشاعر أو الخيالي الخالص. والآخر الذي يرتبط بآثار واقعية، والذي لا يسمح بأن يبنى من أجل نزوة، والذي إذا لم يكن له حقيقة حاضرة، يفترض أن يملك حقيقة محتملة. هذه الحقيقة ليست حقيقة المستقبل لأنها محددة بواسطة الآثار وأنها ليست متوقعة على الفعل، باعتبار أنه مفترض شرعيا وأن المستقبل ليس مفترضا أبدا إلا تعسفيا. إنها بالأحرى حقيقة متهقرة. التفكير في الماضي هو إذن التفكير في ما هو غير حقيقي بواسطة حقيقة تربطها برابط تألفي قلبيا سببيا أو من الخلف.

⁷⁰Charles Seignobos , La méthode historique appliquée aux sciences sociales , PUF , Paris.

خاصية الموضوع هذه تؤدي إلى سلسلة كاملة من النتائج. هذه أهمها. إذا كانت الوقائع التاريخية ماضية، فإنها لا يمكن أن يعاد إنتاجها على عكس الظواهر الفيزيائية مثلا التي هي نظريا حاضرا دوما ويمكن دائما تجديدها في المختبر. كل واقعة تحدث مرة واحدة، وليس مرتين، وعندئذ نقول إنها فردية. فهكذا فإن ثورة 1848 لا تشبه من بعض الوجوه ثورة 1792 وأن عالم الاجتماع له الحق في البحث إذا كانت هناك قوانين عامة تحكمها، ولكن بالنسبة للمؤرخ إحداهما ليست تكرارا للأخرى، كل ثورة لها مكانها في الماضي، وكل واحدة تفسر بأسباب خاصة، كل ثورة هي حدث فردي. لا توجد قوانين في التاريخ، ليس بمقتضى طبيعة الموضوع، ولكن بمقتضى وجهة نظر منهج البحث.

إننا لا نقبض على الواقعة التاريخية إلا بواسطة الوثائق.

التاريخ وعلم الماضي الإنساني:

الماضي يؤول إلى مفهوم فارغ. لا يمكننا تعريف التاريخ كعلم للماضي، هل يكون علما للإنسان؟ كيف نميزه إذن عن علم النفس أو علم الاجتماع أو حتى التشريع والفيزيولوجيا البشرية؟ كل هذه العلوم موضوعها الإنسان. ولكن مشكل الفهم لا يطرح لهذين العلمين الأخيرين. يبقى أن علم النفس وعلم الاجتماع هما أيضا من علوم الروح.

هل نقول إن التاريخ هو العلم الذي يدرس الإنسان في الماضي. هناك تحفظات إضافية يجب أخذها بعين الاعتبار. الإنسان المقصود ليس الإنسان باعتباره جسما، ولا الإنسان باعتباره مجموعة من الأعراق، فالأنثروبولوجيا وعلم الإحاثة لهما اتصال بالتاريخ. كما بين ذلك هيجل، الإنسان التاريخي هو الإنسان باعتباره وعيا قابلا لإنتاج مؤسسات وأعمال حيث أن مجموعها يؤلف ما يسميه الروح الموضوعي.

لن يكون ثمة تاريخ إلا حيث يترك الإنسان أثارا ثقافية. التاريخ ينصب على المجتمعات. إنه لا يقصي الأشخاص، ولكن لا يعتبرهم إلا حسب أهميتهم داخل المجموعة.

التاريخ هو إذن علم الإنسان داخل المجتمع من منظور الماضي.

مشكل التاريخ، طبيعته:

التاريخ ليس علما للوقائع، يجب أن يتجاوز المعطى من أجل تفسيره.

ما أتينا على قوله يدفعنا إلى القول إن التاريخ لا يمكن أن يتوقف على وضع الوقائع التي تعطى له. الظاهرة الفيزيائية أو البيولوجية تكون مبنية وسيكون غريبا أن لا تمثل نفس الشيء بالنسبة للحدث. الظاهرة الفيزيائية أو البيولوجية يمكن ملاحظتها، أما الحادثة التاريخية فلا يمكن الإمساك بها إلا بطريقة غير مباشرة. الوقائع بالنسبة للمؤرخ هي الوثائق.

فكرة علم للوقائع فكرة متناقضة. العلم ليس مجموعة من الوقائع، ولكنه نسيج من العلاقات. التاريخ بهذا الاعتبار ليس مختلفا عن العلوم الأخرى .

2-المشكلات المنهجية والإبستمولوجية للتاريخ:

نلاحظ أن المشكل المطروح على مفكري التاريخ ليس بسيطا. ولكن مضاعف أو ثلاثي. يجب أولا مواجهة مرور الوثائق التي تقدم نقاط الانطلاق من تراجع نحو الماضي إلى محتوى المعرفة التاريخية ذاتها، ثم يجب انتقاد المقولات التي يستعملها العقل التاريخي وتتعلق بالحدث والفهم والسبب، هذا النقد يجب أو يقود أخيرا إلى الحكم على قيمة التاريخ وعلاقته بالتجربة.

من المادة الخام إلى الحدث:

المنهج النقدي والمسعى التأويلية:

إلى غاية القرن 17 لم يكن الأمر يتعلق بالاهتمام بتجاوز المحتوى الظاهر للنصوص الموروثة عن الحقب التاريخية. أصول روما بدت بكفاية معروفة بفضل شهادة تيت ليف Tite-Live، مع ذلك منذ النهضة الإنسانيون أمام التلف البديهي لبعض النصوص قاموا بإعادة بنائها. وخلال النصف الثاني من القرن 17، تجديد الدراسات الإنجيلية المنجز بواسطة الإصلاح قادت رجل دين وهو ريشارد سيمون، إلى محاولة أولى من التأويل للكتاب المقدس. إنه ظهور لتاريخ علمي حقيقي. منذ الآن لا نعتبر المعنى الظاهر لنص ما كما لو كان كلمة الإنجيل، نتساءل عما يخفيه، بمعنى إذا كان لا يضم معنى عميقا. النص ليس هو الواقعة التاريخية ولكن وسيلة من أجل بلوغها. منهج سيولد بجذ عرضه في كتاب سينيوبوس: منهج التاريخ المطبق على العلوم الاجتماعية.

الوثائق والنصب:

ولكن أثار الصبرورة التاريخية لا توجد فقط في النصوص، إننا نصادفها أيضا في الصروح وأنقاضها، بقايا الصناعات، الأعمال الفنية إلخ، نسمي هذه الآثار بالمصادر: إنها المصدر المادي للمعرفة أو أيضا الوثائق أو النصب.

هذه المصادر ليس لها نفس الأصل، ولا نفس الوظيفة، إنها وثائق واعية تارة، وتارة أخرى تكون غير واعية، بمعنى لم يكن يراد بها أن تكون وثائق.

تعدد إجراءات التأويل:

هذه المصادر يجب تأويلها، والصعود بها إلى الحدث الذي تشير إليه. حول هذه النقطة، التاريخ الذي يتم إثراؤه كل يوم، لا يمكنه أن يستدعي منهجا واحدا وأسلوبا واحدا من الإجراءات. من خلال القرن 19 تكون علوم مساعدة للتاريخ، تتمثل في الفيلولوجيا التي تنصب على الأعمال الأدبية، الأركيولوجيا التي تنصب على الأشياء المادية القديمة، وتنقسم هي نفسها إلى عدد من الاختصاصات.

المنهج النقدي:

النشاط الذي يمكن من استخلاص الواقعة من المصدر يسمى تقليديا المنهج النقدي:

المنهج الخارجي: النقد الخارجي هو النقد الذي ينصب على الوثائق اللاواعية، بهدف إظهار الدلالة، إنه يتمثل ببساطة في القيام بإجراءات تأويلية وتقريب الأحداث.

النقد الداخلي: الغموض يتقلص مع النقد الداخلي الذي هو نقد النصوص. هنا نكون أمام وضعية الشرطي أمام الشهود. الشاهد يمكنه أن يكذب. وعمل إيجاد الحدث يكون في بعض الأحيان مستحيلا، لأن كذب الشهادة لا يمكن إقامته شكليا إلا بواسطة مواجهة الوقائع. وهنا الوقائع هي التي تنقض الشهادة التي يمكن أن تكون غير أمينة لأسباب متعددة، منها مثلا أن الشاهد أراد الكذب لمصلحة محددة أو من أجل المزاح، أو أن الشاهد نفسه قد أخطأ.

الخصائص العامة للمعرفة التاريخية: لا يقينيتها:

نلاحظ أن التاريخ هو علم تخميني. المعرفة التاريخية هي معرفة جدلية يمكن دائما مطالبة الشهود بالتجرد. هذا التجرد في أحسن الأحوال مستحيل. هذا يظهر الصعوبة الأساسية للتاريخ، بينما الفيزيائي ليس في الفيزياء

المؤرخ يكون في التاريخ. ولهذا يلجأ إلى نقد العقل التاريخي، بمعنى فحص المقولات التي يستعملها المؤرخ في علاقته في محتوى العلم ومع التجربة. إلى أي حد هذه الأفكار يمكنها أن تنظم معرفة حقيقية وإلى أي مدى يمكن أن تصل موضوعية المعرفة في التاريخ.

العقل في استعماله التاريخي:

هذا المشكل الذي طرح من قبل ديلتاي، عالجته مجموعة من المفكرين من أهمهم ماكس فيبر في ألمانيا وريمون أرون في فرنسا.

التركيب التاريخي:

خطاب عقلاني هو خطاباً منظم، الأحداث ليس لها معنى بذاتها، إنها لا تكسب معناها إلا بواسطة تركيب يضعها ضمن منظور معين ويمنحها دلالة. هذه العملية التي يسميها فوستيلدوكولانج بالتركيب التاريخي، تقوم أساساً على إدراج بين الأحداث علاقات سببية بعد بنائها. والتركيب التاريخي هو عمل معقد يهدف إلى إعادة بناء الصيرورة. التجريد وحده يمكنه أن يميز بين اللحظات. من أجل التوضيح نقسم دراستنا ونفحص النقاط الثلاث: ما هو الحدث؟ كيف نفهم الحادثة؟ ما هو السبب التاريخي؟

من النظرة الأولى يبدو سهلاً تعريف الحدث. ما نجده في بداية نقد الوثائق، هو ما حدث. ولكن بداية يحدث أن لا نجد بداية، ويجب إذن القول أن الحدث هو الذي حدث. للأسف هذا التعريف يرتبط بواقعية من الصعب قبولها. أمّا القضية التالية لويس 14 مات في سنة 1715 يبدو أن الأمر يتعلق بحدث بسيط ولا يثير التعليقات. ولكن موت لويس الرابع عشر ليس حادثة تاريخية إلا في حال يهم المجتمع الفرنسي والأوروبي للقرن 18. ليس موت فرد ما هو ما يعنينا ولكن موت ملك فرنسا. وعندئذ موت لويس الرابع عشر يتوقف عن أن يكون حدثاً في ذاته. إنه ليس أكثر من حادث، ربما مهما لعملية تتضمن إنهيّاراً ما وتنتهي عند سقوط أمراء شرعيين وصعوبات مالية للصاوية. التاريخ ليس غباراً لوقائع ذرية ولكن صيرورة مستمرة حيث المؤرخ يقتطع مجموعات. ولكن هذا الاقتطاع يقتضي نسقاً تفسيرياً، فلسفة للتاريخ.

الفهم التاريخي: وهو أن حدثاً لا يوجد بالنسبة للمؤرخ قبل أن يتم فهمه. التاريخ لا يعيد عيش الماضي كما بينه ريمون أرون، إنه يعرف بواسطة المفاهيم. الفهم التاريخي لا يتصل بأشكال الوعي إلا من خلال الأفكار

فقط بينما الحدث المعاش بالوعي واحد ومستمر، الفكر المفهومي يحلل ويعزل. إنه لا يستطيع أن يجد كل غنى المعيش دلالات التاريخ.

التأويل السببي: هل نجد في العلاقة السببية الموضوعية المفقودة ؟

السببية والمسؤولية :

ادخال السببية في التاريخ يبدو أولا بديهية ويكون ضد عملية. السببية ترتبط بالأشخاص ولكن الأشخاص أحرار، مقولة ميتافيزيقية حيث التاريخ لا يأخذها في الاعتبار لأنه يجب عليه أيضا أن يفسر الحوادث بمعنى تفجير حتمياتها. على أي حال إنهم مسؤولون. المسؤولية مفهوم أخلاقي يمكن أن تكون له فائدة سياسية وليس تاريخية. بالإضافة إلى أن المسؤولية تضم كشرط لها الحرية التي يجب أن توجد ما وراء الحتمية التاريخية.

من غير شك هل المؤرخ له الحق في استدعاء هذا الأسلوب القديم من السببية التي هي سببية الفاعل؟ إنه لا يقوم بذلك إلا باسم مسلمة ميتافيزيقية مظمرة أو ظاهرة.

الترسيمة السببية وطبيعة السبب التاريخي:

الترسيمة السببية: هل يجب التخلي عن اللأدرية أو اللجوء إلى علم الاجتماع ؟ لا توجد وسيلة لإقامة أسباب في التاريخ. عند البحث في سبب حرب 1870 نبدأ أولا بعزل الحدث الذي نفسره، ونعزل فيما بعد سوابق الحدث: بيسمارك وسياسته، الوضع الاقتصادي لألمانيا وفرنسا. نلقى بالفكر أحد هذه السوابق ونتخيل تطورات غير متحققة إذا لم يوجد بيسمارك هل كان للحرب أن تحدث ؟

نتعرف هنا على منهج الاختلاف. ولكن في التحريب الفيزيائي نلغي واقعا السابق. في التاريخ نلغي تخيلا. نتيجة: اللاواقعي هو الذي يحكم على الواقعي. الممكن هو الذي يمثل المحك.

طبيعة السبب التاريخي:

ينتج عن ذلك لايقين كبير يسود عندما يتعلق الأمر بطبيعة السبب في التاريخ. تارة نستدعي أسباب فردية: عمل بيسمارك، وتارة أسباب عامة: الوضع الاقتصادي لألمانيا. ويكون من الخطأ أن يكون هذان التأويلان متوافقين. إذا تبيننا نظرية الأسباب الاقتصادية فإن عامل بيسمارك يكون مهما، إنه يلعب دور الحلقة في آلية المجموع.

إذا افترضنا أولية الفاعل، الوضع الاقتصادي ليس سوى عنصر من النخبة كان على بيسمارك أن يستجيب له بطريقة محددة بواسطة مسعى فهمي.

3-المدارس التاريخية

1-المدرسة المنهجية: المدرسة التاريخية التي تسمى بالمنهجية أو التي تسمى تعسفا بالوضعية ظهرت وازدهرت وتمددت خلال فترة الجمهورية الثانية في فرنسا. مبادئها الكبرى تم عرضها في نصين مشروعين، المشهور كتب من قبل مونود G Monod من أجل إطلاق المجلة التاريخية سنة 1876، والدليل الذي كتب من أجل الطلاب بواسطة لانجلو وسينيوبوس Ch.V. Seignobos Langlois في سنة 1898.

المدرسة المنهجية تريد أن تطرح دراسة علمية باستبعاد كل تأمل فلسفي وتهدف إلى الموضوعية المطلقة في ميدان التاريخ. إنها تعتقد في الوصول إلى غاياتها بتطبيق تقنيات صارمة تتعلق بمجرد المصادر، ونقد الوثائق، وتنظيم الأعمال في المهنة. المؤرخون الوضعيون يشاركون في إصلاح التعليم العالي ويتقلدون كراسي في الجامعات الجديدة، ويديرون مجامع كبيرة. لا فيس E.Lavis: تاريخ فرنسا، رومبو A. Rambaud: التاريخ العام، هالفن L.Halphen وسانيك Sagnac: شعوب وحضاراتهم. إنهم يصيغون البرامج ويكتبون كتباً في التاريخ موجهة إلى طلاب المدارس الثانوية والمدارس الابتدائية. المدرسة المنهجية استمرت في الهيمنة على التعليم والبحث في التاريخ في الجامعات إلى غاية 1940.⁷¹

2-مدرسة الحوليات:

هذه المدرسة وقفت ضد هيمنة المدرسة الوضعية وعبرت عن نفسها في مجلة التركيب Revue de Synthèse خلال سنوات العشرينيات وبوضوح أكثر في مجلة الحوليات Les annales خلال سنوات الثلاثينيات. هذا التيار المجدد يهمل الحدث ويشدد على المدة الطويلة، ينقل عنايته بالحياة السياسية نحو النشاط الاقتصادي، والتنظيم الاجتماعي وعلم النفس الجمعي، ويجهد في تقريب التاريخ من العلوم الإنسانية الأخرى. توجهاته العامة عرضت في المقالات الجدلية لفيفر L. Fevre (معارك من أجل التاريخ) ومقال موريس بلوخ M. Bloch (مهنة المؤرخ). بعد الحرب العالمية الثانية، التاريخ الجديد فرض نفسه مستنداً على مجلة les annales ESC وعلى شبكة من العلاقات في النشر والصحافة في سنوات الخمسينيات والستينيات، معاونو

⁷¹Guy Bourdè et Hervé Marin , Les écoles historiques , Editions du Seuil , Paris , 1983 .

الحوليات، إجتاحوا ميادين الجغرافيا التاريخية، والتاريخ الاقتصادي، والديمغرافيا التاريخية، وفي سنوات السبعينيات، فتحوا ميدان تاريخ الذهنيات. خلال نصف قرن من التجربة، فكر الحوليات أثر في أغلب المؤرخين بفرنسا، وكذلك في بعض المؤرخين في الخارج، في أوروبا الغربية والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.

أقطاب هذه المدرسة هم لوسيان فيفر Marc Bloch ومارك بلوخ Lucien Febvre وفرنونديروديل Fernand Braudel.

3- التاريخ الحديث، وريث مدرسة الحوليات:

التاريخ الجديد تسمية أطلقت سنة 1978 من قبل وجوه كبيرة على مدرسة الحوليات التي تبقى بعيدة عن الاجتماع في عالم المؤرخين. أولا داخل مدرسة الحوليات ذاتها، ثم لدى الماركسيين الذين يقصدون أن الجدة التي لوحنا بها ليست في الغالب سوى اكتشاف بعض الارشادات الكبرى لماركس. وأخيرا في المعارك الكبرى لجماعة المؤرخين، أين يفضح الجانب الإشعاري للمؤسسة، والتنازلات للغة الوسيطية، مغامرة بعض الأبحاث الجارية في الاتنو-تاريخ وعلم النفس التاريخي وخاصة الإمبريالية الفكرية لتيار طالب بتجديد حقل التاريخ كله، متجاهلا إسهام بعض المجددين من المستوى الأول. بعض أنصار هذا التيار هم: جاك لوغوف Jaques Le Goff، لوروي لاديري E. Le Roy Ladurie، وفيرو M. Ferro وموندرون R. Mandron، وبيريغير A. Burguiere وروفييل J. Revel.

4- الماركسية والتاريخ: خلال سنوات تكوينه كان ماركس مشبعا بفلسفة هيغل. في سنة 1842 أدرك ماركس أن القانون يحمي الملكية والعلاقات القانونية لا يمكن أن تفهم لا بنفسها ولا بالتطور العام المفترض للفكر البشري ولكنها على العكس تجد جذورها في شروط الوجود المادي. في سنة 1844 اكتشف آلية الإغتراب. العامل هو بصدد عمله في نفس العلاقة بصدد موضوع خارجي. وأشار إلى دور التاريخ الذي هو حكم الإنسان بواسطة الإنسان من خلال العمل ومواجهة العالم.

في إطار الإنتاج الاجتماعي لوجودهم، يدخل الناس في علاقات إنتاج تتطابق مع درجة من التطور محددات لقواهم الإنتاجية المادية. المبدأ الأول هو قوى الإنتاج التي تتضمن أولا مصادر الطاقة (خشب، فحم، بترول) المواد الأولية (قطن وغيره) والآلات والمعارف العلمية والتقنية، والعمال. قوى الإنتاج ليست فقط مادية بل هي أيضا إنسانية. المفهوم الثاني هو علاقات الإنسان يحيل إلى العلاقات الاجتماعية التي ينسجها الناس فيما بينهم من أجل إنتاج وتوزيع الخيرات والخدمات.

أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط عملية الحياة السياسية والفكرية بشكل عام. ماركس يميز خلال التاريخ تنابعا لأساليب الإنتاج: أسلوب الإنتاج الآسيوي، العبودي، الإقطاعي والرأسمالي، والشيوعي.

ماركس استعار من هيجل المنهج الجدلي ولكنه قلبه وجعله يمشي على رجليه بعدما كان يمشي على رأسه. بالنسبة لهيجل حركة الفكر التي تتجسد في الفكرة، هي خالقة الواقع، الذي ما هو سوى الشكل الظاهري للفكرة. بالنسبة لماركس على العكس حركة الفكر ليست سوى انعكاس لحركة الواقع، منقولة في دماغ الإنسان.

72

التاريخ حسب ماركس هو تاريخ صراع الطبقات. من منظور المادية التاريخية كل أسلوب إنتاج يفرض حضور طبقة مهيمنة، تمتلك وسيلة الإنتاج. وتنتزع جزءا من عمل الآخر، وطبقة مهيمنة عليها ليس لها سوى قوة عملها ولا تملك سوى جزء من القيمة المنتجة: العمل الشاق للعبيد في أسلوب الإنتاج القديم، وفائض القيمة في أسلوب الإنتاج الرأسمالي. ولهذا السبب فإن كل أسلوب إنتاج يحمل في ذاته تناقضا في المصالح ويؤدي إلى ميلاد عداء بين الطبقات. فتاريخ كل مجتمع هو تاريخ صراع الطبقات.

4- الوصف والتفسير في التاريخ:

التاريخ باعتباره علما، هل يتحدد أو يمكن أن يتحدد في تقسيم بسيط للوقائع، في وصفه البسيط هذه الوقائع؟ وإلا بماذا يجب أن يهتم؟ ما هو التاريخ في النهاية؟

الإجابة على السؤال الأول هي بالنفي، لا التاريخ ليس ولن يمكن أن يكون مجرد وصف.

في المحل الأول، لأن المؤرخ لا يمكنه أن يفلت من الدور الفاعل المفروض عليه، باعتباره ذاتا عارفة، في العلاقة المعرفية التي هي المعرفة التاريخية، وأنه لا يستطيع تجنب إدخال العامل الذاتي في المعرفة التي هي دائما، إذا ضح القول بالتعريف - متحيزة ومشايعة من حيث أن المنظورات المعرفية للمؤرخ مشروطة بالعلاقات والمصالح الاجتماعية الخاصة بعصره وبوسطه. وفي المحل الثاني، فلأن الواقعة التاريخية، المقولة الأساسية لمسلمة التاريخ الوصفي الخالص، للتاريخ المؤرخن، تدخل في معرفة النسق المعقد تأثيرات العامل الذاتي، بعيدا عن ضمان الموضوعية الخالصة للمعرفة، أي تطهيرها بإبعاد كل ذاتية - كما يفترض خطأ مؤسسو التيار الوضعي في الفكر

⁷²Guy Thuillier et Jean Tularb , les écoles historiques , PUF , Paris , 1990.

التاريخي - الواقعة التاريخية، باعتبارها مقولة علمية، تدخل على العكس العامل الذاتي في الأسس ذاتها في عمل المؤرخ مع كل ما يتضمنه هذا العمل من تعقيد على المستوى المعرفي.

بما أن قصدنا هو بناء إجابة تركيبية على سؤال الموضوعية للمعرفة التاريخية، يجب أن نمدد تحليلنا على كل أوجه فعل العامل الذاتي في هذه المعرفة. في الواقع، المشكل لا يؤول إلى مجرد الواقعة التاريخية وإلى انتخابها. المؤرخون لا يصفون الوقائع فحسب، ولكن يفسرونها أيضا. وقيمونها، ولذلك علينا فحص مشكلة التفسير ونترك مشكلة التقييم لأنها لا تهمنا هنا.

الإشكالية التي نعالجها بطرحنا السؤال: إذا ما كان على علم التاريخ أن يتحدد في مجرد الوصف، نشأ تقليديا عن النزاع حول الخاصية الإيديوغرافية أو النوميوتيقية لهذا العلم. ولكن هذا النزاع لا يدخل في ميدان اهتماماتنا الحالية. أولا، لأننا نركز هنا على عمل العامل الذاتي في المعرفة التاريخية ثم لأن الميل إلى الدفاع عن نزعة إيديوغرافية جذرية يتجلى نادرا أكثر فأكثر بين المؤرخين.

نمر إلى مشكلات التفسير في علم التاريخ. من وجهة النظر المنهجية والنظرية هذه المشكلة مهمة ومعقدة. فيما يتعلق بهذه المشكلة يجب العودة إلى نظرية واسعة جدا للتفسير في العلم بشكل عام، ما ينجر عنه ضرورة تحليل سؤال القوانين العلمية بشكل عام، والقوانين التاريخية بشكل خاص في حالة السؤال الثاني، يجب بالضرورة العودة إلى علم للقيم، بالمعنى الواسع للكلمة، إلى نظرية في القيم وتطبيقها واقعا على التقييم في علم التاريخ.

حسب لوسيان فيفر، علم التاريخ لا يمكن حصره فقط في جمع الوقائع من أجل رسم صورة، ولكن أيضا من تفسير لماذا هذه الوقائع. هذه المعرفة للمآذا هي ما يشكل التاريخ كعلم تحديدا.

بقبولنا هذا التساؤل، فإننا نقابل التاريخ بالحوالية. هذا المشكل، القديم جدا، طوره بشكل خاص بندتو كروتشي Benedetto Croce ولكن ضمن سياق ميتافيزيقاهاالروحانية التي تلغي تصوره وتجعله بالنسبة لنا غير قابل للاستعمال. مع ذلك التعارض بين التاريخ والحوالية يتضمن أفكارا خصبة يمكن من فهم بشكل أفضل، واستخلاص بوضوح تام معنى التاريخ باعتباره علما والدور الذي يلعبه التفسير. بالعودة بالتالي إلى مصدر آخر، إلى مصدر محايد من أجل تحليل هذا المشكل، نقترح فقرة مقدمة مورتون وايت Morton White للملتقى منعقد حول مشكلات الفلسفة والتاريخ. " حولية موضوع ما هي، بمعنى ما، التقاء اثباتات تجريبية غير تفسيرية التي تذكر بوضوح هذا الموضوع، وتعرض الأشياء التي تهمه، التي كانت صحيحة في أوقات مختلفة. بالإثبات غير التفسيري أقصد قولاً حيث أن قضيتين خاصيتين بوقائع معينة ليستا مرتبطتين بالرباط لماذا. المسلمة

التي بفضلها الإثباتات المستعملة في الحولية لا يجب أن تكون تفسيرية . تنتج عن الاخلاص لفكرة أن الحولية لا تقوم سوى برواية الوقائع، بالمعنى الضيق لهذه الكلمة. عكس الحولية التاريخ يضمّر الظواهر التي يتحدث عنها. هكذا، فإن التفسير متضمن بالتعريف في التاريخ. على خلاف كاتب الحوليات، المؤرخ لا يبحث فقط عن معرفة ماذا حدث، ولكنه يريد أيضا معرفة لماذا ⁷³ .

هذا التمييز بين الحولية والتاريخ هو في رأيي مؤسس وهام. إنه ينيّر دور التفسير في علم التاريخ.

معرفة لماذا ؟ معرفة لماذا الوقائع وكيف هذه المعرفة، هو ما يقوم عليه التفسير. إذ أن الصعوبات تنشأ في الحال، بالتحديد في حالتنا الملموسة بالصعوبات المرتبطة بدور العامل الذاتي. على أساس تركيب واحد من الوقائع، التفسيرات يمكن أن تختلف، وتختلف في الواقع كما تبرهن عليه التجربة. على الفور تنكشف الأهمية التي تأخذها الاختلافات بين المدارس والأنساق التاريخية في علم التاريخ. بشكل مباشر، أو غير مباشر، إنها تكون السبب في أن المؤرخين يمتلكون للمعرفة الحديثة ذاتها، يفهمون ويقيمون ويفسرون الوقائع بعبارات مختلفة، بل متناقضة. ريمون آرون كتب في هذا الموضوع قائلا: " كل تفسير هو إعادة بناء (...) حسب الهدف الذي يتبعه، المؤرخ يقيم بين العناصر روابط مختلفة، إنه يستعمل مفاهيم أخرى، والحال، أن هذا الهدف هو ذاته الذي يتخصص فيه تعدد التفسيرات بديهي بمجرد أن نتصور عمل المؤرخ، ذلك أنه بقدر ما تنشأ التفسيرات يكون هناك أنساق، بمعنى، عبارات واسعة، مفاهيم سيكولوجية وأشكال من المنطق الأصلية". وأكثر من ذلك، يمكن القول أن النظرية تسبق التاريخ، إذا كنا نفهم بالنظرية في الوقت ذاته تحديد بعض الأنساق والقيمة المعطاة لبعض أنماط التفسير. هكذا منطلقين من مجموع من الوقائع المعروفة من قبل المؤرخين، لأنها مستخلصة من مصادر موثوقة الطريقة في إدراك وتقييم العملية التاريخية تختلف حسب المؤرخين. ليس فقط لأن الوقائع التي ينتقيها هؤلاء المؤرخون والتي يعتبرونها مهمة، وتاريخية لا تختلف من مؤرخ لآخر، ولكن أيضا لأن المؤرخين يقيمون بين هذه الوقائع علاقات مختلفة، وكل واحد يفسرها بطريقته الخاصة.

مختلف الكتاب الذين يهتمون بمشكل التفسير في العلم، يتصورونه بالنسبة لعلم التاريخ، بادئين بشكل عام بنمذجة أساليب التفسير الموجودة وتحليل كل أسلوب من هذه الأساليب. بريثوايت R. B. Briathwaithe يميز بين التفسير السببي والتفسير الغائي. إذا كان في كلتا الحالتين، السؤال المقترح متطابق هو لماذا ؟ فالإجابات الخاصة تختلف في شكلها ومحتواها: بسبب س في الحالة الأولى، ومن أجل س في الحالة الثانية .

⁷³Adam Schaff , Histoire et vérité , éditions authropos , Paris , 1971 .

إذا كنا نعتبر، باتفاق مع قصد بريتوايت، أن السؤال عن سبب الظاهرة التي نفسرها ينصب على الأحداث السابقة أو المتزامنة مع هذه الظاهرة. وإذا كانت هذه الحوادث، في شروط ثانية غير محددة بشكل خاص، تكفي لتحديد - بالمطابقة مع هذا القانون أو ذاك من قوانين السببية - هذه الظاهرة، يجب أن تشترط التحفظ الذي يقدمه الكاتب والذي يكون ذا أهمية قصوى بالنسبة لوجه المشكل الذي يهمننا. هذا التحفظ هو كالتالي، مذكورا نصا: "عندما نطرح السؤال لماذا، فإننا لا ننتظر إجابة تتضمن إحصاء مفصلا لكل الأحداث التي مجموعها يكون السبب العام، تكون مجموع الأحداث التي تحدد الأحداث المفسرة. في العادة، نتوقع السبب الجزئي الذي يهتم أكثر من يطرح السؤال، احتماليا هذا الأخير يرغب في سماع ما لا يزال يجهله. إحدى غايات التفسير الكامل هي تحديد السبب الشامل، في هذا المعنى، كما في أغلب معاني هذه العبارة، التفسير الكامل لن يكون الوحيد، ذلك أن نفس الحدث يمكن أن تكون له أسباب شاملة مختلفة. نشير في هذه الأثناء أن بريتوايت يدخل العامل الذاتي باعتباره العنصر العضوي لتحليله. من جهة أخرى، زيادة على أنه ليس كاملا، التفسير السببي يتعقد أكثر من أن يكون معتبرا مثل البحث إما عن شروط كافية، وإما عن الشروط الضرورية وحدها. ولكن غالبا السؤال لماذا؟ ينصب على الوجهين معا للمشكل، على الشروط الكافية كما على تخصيص الشروط الضرورية للحدث المعطى. دائما حسب بريتوايت، النمط الثاني من التفسير هو التفسير الغائي. في هذه الحالة، على السؤال لماذا؟ نجيب بالإشارة إلى الغاية التي بالنسبة لها الحدث الذي نفسره يشكل وسيلة للتحقق.

مثال عن التفسير الغائي الذي يعتبره الكاتب كافيا من وجهة النظر العلمية هو الإجابة عن السؤال "لماذا تظل في وطنك هذا الصيف؟" والذي يشير إلى أية غاية، لأي هدف قرار البقاء قد اتخذ "من أجل إكمال كتاب ينبغي أن أقدمه إلى الناشر في بداية الخريف" ندلي بصياغة أخيرة لهذا الكاتب، التي تلقي الضوء على مشكلنا.

هذا التفسير يقوم على ملاحظة الهدف الذي يجب بلوغه: إنه يصف فعلا كفعل موجه نحو غاية محددة، كفعل غائي - كلمة موجه مستعملة بطريقة لتشير إلى الاتجاه، ولكن ليس الذي يمنحه.

في هذه الحالة الأخيرة الكاتب يرغب بوضوح في إلغاء العامل الذاتي، فكيف يتمكن من ذلك؟ هل يمكن فعليا الاعتراف بوجود فعل غائي من غير الاعتراف بالذات التي تضع الغاية المقصودة؟

يوجد مع ذلك نماذج أخرى. هكذا هامبل، كاتب محاولة جيدة عن التفسير في التاريخ، محاولة تعتبر إلى حد ما نموذجا بفضل دقة التعبير عن الفكر، لا تعترف في الواقع سوى بنمط واحد من التفسير، التفسير السببي

الذي يكمن دائما في استيعاب لعنصر ملموس تحت قانون عام. التعريف الكلاسيكي للتفسير حسب هامبل هو كالتالي:

تفسير الحدث الخاص E ، في مكان وزمان محددين، يكمن عموما في الإشارة إلى الأسباب أو العوامل المحددة لـ E . القول الذي حسبته مجموعة من الحوادث لنقل $C1$ ، $C2$ ، Cn تسببت في الحدث الذي نفسه، يقود إلى الأطروحة، بالمطابقة مع بعض القوانين العامة، التي مفادها أن مجموع الحوادث $C1$ ، $C2$ ، Cn لها نتيجة من الحدث ذي النمط E هكذا التفسير العلمي لحدث معين يتكون من:

(1) مجموعة من الأقوال تؤكد وجود حوادث $C1$ ، $C2$ ، Cn في مكان وزمان محددين.

(2) مجموع فرضيات عامة تقتضي أن:

أ- أطروحات المجموعتين تكون مفحوصتين بكفاية بواسطة التجربة.

ب- القضية التي تعلن عن وجود الحدث E يمكن أن نستنبط منطقيا من هاتين المجموعتين من الأطروحات. وجهة النظر هذه وصياغتها ليس فيهما شيء أصيل. سبق في مدرسة الوضعية الجديدة التي ينتمي لها هامبل، أن قدم كارل بوبر صيغة مماثلة للتفسير في العلم، وفي نفس فترة هامبل، منظر آخر للتاريخ هو باتريك جاردنير Patrick Gardiner كتب في خاتمة في استدلال مماثل: " حدث ما يكون مفسرا عندما يخضع لتعميم ما أو إلى قانون ما ".

زيادة على ذلك، ما يهمنا بشكل خاص لدى هامبل، الواضح في تعريفه للتفسير (الذي حسبته يفترض دائما وجود قوانين عامة) النتائج التي يستخلصها من تحليله لعمل المؤرخ. يلاحظ، أولا أن عمل المؤرخ لا يحترم دائما صرامة التفسير، وأنه في حالات حيث القوانين العامة لا تتم صياغتها بوضوح، لأنها تتعلق بعلم النفس الفردي وتبدو مبتدلة، مثل الحالات حيث القوانين لا يمكن أن تصاغ بدقة بسبب خاصيتها الإحصائية وبناء عليه بسبب خاصيتها الإحصائية الخالصة، بالنسبة لمختلف الحوادث، ثم يستنتج هامبل:

عدد من التفسيرات المقترحة في التاريخ تفترض التحليل التالي: إذا كانت التفسيرات مصاغة بوضوح وبإتمام، فإننا نتطلب شروطا مسبقة وفرضيات احتمالية بحيث أن الحدث المفسر في ضوءها يكون احتماليا بوضوح. مع ذلك، أن تكون التفسيرات في التاريخ مبنية كتفسيرات سببية أو بالأحرى احتمالية، يبقى صحيحا، إنه في أغلب الحالات الشروط المسبقة وبشكل خاص الفرضيات العامة التي تنطوي عليها لا يتم الإشارة إليها بوضوح ولا يمكن أن تستبدل بطريقة متواطئة.

هكذا نلاحظ عدم الدقة في نقطة الانطلاق (الشروط المسبقة مثل الفرضيات المتبناة)، التي تحدد الخاصية الاحتمالية للتفسير، ليست لا مجانية، ولا قابلة للإلغاء. وبناء عليه، نلاحظ من جديد أن المشكل ينطرح بصدد مختلف التفسيرات الممكنة والاختيار بينها. لماذا نختار تفسيراً ونفضله على غيره ؟ ما الذي يؤسس اختيارنا ؟ هذا الوجه للمشكل يبرز أيضا لدى أرنست ناجل Ernest Nagel، هذا الأخير يؤكد أن التفسير التاريخي لأفعال الإنسان إحصائي، ذلك أن التعميمات الخاصة بالتصرفات الإنسانية والتي تشكل جزء لا يتجزأ من افتراضات هذا التفسير، تمتلك خاصية إحصائية. ولكن بتحليل هذه الأطروحة، ناجل يذهب بعيدا " مقدمات منقوصة، في حالة حيث نطبق نماذج الاستدلال الاستنباطي " وكذا صياغة الشروط الضرورية كما الكافية للحوادث، هاتان هما الخاصيتان عموما المفترضتان اللتان تفسر جزئيا المعنى الذي حسبه التفسير في التاريخ يكون احتمالياً .

الاحتمالية في التاريخ يضيف ناجل تتضمن دائما عنصرا ذاتيا من المستحيل إلغاؤه، ذلك أنه انطلاقا من نفس المعطيات المسبقة ومن نفس الفرضيات، نجد أفرادا مختلفين يعطون درجات من الإحتمال مختلفة على نفس الحوادث. من أجل الحد من عنصر الذاتية في التفسير، يقترح ناجل مفهوما مصححا عن الإحتمال يسمى الإحتمال الشخصي. ما يفصل في السؤال، هو القرار الذي يتخذه الفرد الذي، وهو منطلق من معطيات مسبقة محددة، يكون مطبوعا بمنح حظوظ إلى حد ما كبيرة لهذه الإمكانية أو تلك، مقارنة بالأخرى. في الواقع، لا نلغي العنصر الذاتي للتفسير، إنما لا نفعل سوى تعديل صيغة المقول.

وما ينتهي إليه هامبل هو التالي: " بالنتيجة ما تعطيه التحليلات التفسيرية للحوادث التاريخية في أغلب الحالات ليس تفسيرا. بمعنى من المعاني المبسطة أعلاه، ولكن شيئا يمكن أن نسميه مخطط تفسير ".

أكد هامبل يدافع عن الخاصية الأميركية لهذه المخططات التفسيرية التي تتضمن حسبه توجيهات تحسيسها، ولكنه لا يصل أبدا بواسطة هذه القضايا إلى الحالة التي تتحمل فيها الذات العارفة دورها الفعال بتكملة ترسيمة التفسير بمحتويات ملموسة.

إضافة إلى كل هذه المشكلات الناشئة بالعامل الذاتي في التفسير، يقبع مع ذلك مشكل عام يعيه الكثير من الكتاب. هذا المشكل فلسفي أساسا، ومعروف جدا في سياق التفكير الفلسفي حول السببية .

عندما نقول أن حادثا ما سبب لحادث آخر (مثلا حجر يكسر نافذة) فإننا نبدأ دائما باختيار حادث بين حوادث أخرى نسميها شروط الحادث المعني. من أجل أن الحجر يكسر النافذة، العديد من الحوادث الأخرى (السوابق) تحدث قبل أو أثناء الحدث الذي نسميه المسبب (الأثر، النتيجة): يجب أن تدور الأرض حول

محورها وأن يوجد حقل من الجاذبية محدد، وأن تكون النافذة ذات صلابة... إلخ، لا ننفي وجود كل هذه السوابق ولكن نعتبرها بالأحرى كشروط للحادث ونشركها ضمينا، على العكس، ما يهمنا هو الحادث الذي أنتج الأثر مباشرة، أي السبب الفاعل الذي من دونه لم يكن يحدث الحادث. الأمر يتعلق إذن هنا بالشرط الضروري للحادث، وليس بشرط كافي. الفلاسفة يعرفون تماما كل الصعوبات والأسئلة التي تنشأ منذ الآن، أي سابق يمكن أن يعتبر كشرط ضروري؟ كيف نستنفد الشرط الكافي؟ نسبية اختيار سبب الحادث من بين مجموع الشروط، من زاوية النظر لأهمية السبب، في سياقنا، المشكل الأهم من بين المشكلات المذكورة هو المشكل الأخير .

التفسير التاريخي ليس كاملا أبدا. إذا كان هامبل يقترح مخطط تفسير يجب تحقيقه دون توقف، جيبسون Gibson يريد أن يتدارك الصعوبة بارجاع التفسيرات إلى العوامل المختارة وحدها من بين كل العوامل التي تؤلف معا الشرط الكافي للحادث. ولكن إذن، حسب أي مبدأ، بين لا نهائية الحوادث والروابط السابقة أو المعاصرة للحادث المدروس، نختار العوامل التي نعتبرها أسبابا تفسيرية لهذا الحدث؟ وما هو معيار أهميتها؟ جيبسون يجب بأن هذا المعيار، هو الآثار المتولدة بواسطة العوامل المعطاة. والحال أن المشكل يكمن في ما هي العوامل التي أنتجت الآثار التي نعتبرها مهمة بشكل خاص. من دون جدوى البرهنة أن حلقة مفرغة تلغي هذا الاستدلال. أرنست ناغل حذر من مقارنة هذا المشكل. في الواقع إنه لا يقترح أية إجابة، ويقتصر على الإشارة إلى مختلف الاسفهامات والصعوبات. بعدما ميز العوامل الداخلية عن العوامل الخارجية، ناغل يركز انتباهه على الأولى من غير أن ينفي مع ذلك أن العوامل البيولوجية أو الجغرافية مثلا، يمكن أن تلعب دورا معتبرا في جريان الأحداث التاريخية. مع ذلك حتى هذا التحديد المتروكي لحقل المصلحة لا يستبعد كل التعقيدات، وبشكل خاص لا يقدم الإجابة على السؤال: ماذا يعني " مهم " بالنسبة للحوادث التاريخية. حتى ولو ألغينا غموض هذه الكلمة، المشكل لا يحل.

نجد وجهة نظر مهمة عن العامل الذاتي في التفسير التاريخي لدى ماسيفر A.M.Maciver. كل تاريخ يعمم، يلاحظ هذا الكاتب، ولكن هناك عدة مستويات من التعميم. من الوصف الفردي إلى التفسيرات الأكثر عمومية للتاريخ. الخلط بين هذه المستويات يولد أخطاء في الاستدلال ومناقشات شفوية عديمة الفائدة. هناك خلط بالمثل في التفسير التاريخي. هناك أنماط مختلفة من التفسير التاريخي، متوافقة مع مختلف مستويات التعميم. ولكن لهذا السبب بالتحديد، تبعا لاختيار المؤرخ لمستوى التعميم الذي يريد أن يدرس به الظاهرة المعطاة، يظهر العامل الذاتي.

التفسير التاريخي، معتبرا كتفسير سببي، ما زال له وجهها مهما من وجهة نظرنا. نحن نغض النظر عمدا عن الخلاف بالنسبة للاختلافات بين التفسير في التاريخ والتفسير في العلوم الدقيقة للطبيعة. من جهة أخرى نحن نقبل الأطروحة التي حسبها التاريخ يدرس الأحداث الملموسة مع استبعاد بصراحة الأطروحة الجذرية لمدرسة رانك Ranke عن التاريخ (أي المدرسة الوضعية التي ترى أن التاريخ يكفيه أن يجمع عددا كافيا من الوقائع الموثقة جيدا من أجل أن يولد) المقتصر على تقديم الحوادث الخام. بناء عليه، لذا كان التاريخ هدفه تفسير الحوادث التاريخية (وإلا فإنه لن يكون تاريخا) يجب أن يرجع إلى القوانين الأكثر اختلافا، التي في الميدان المتنوع للواقع، تبني انتظامات في حياة الأفراد والمجتمعات، لهذا الشرط وحده يمكن أن يمارس التفسير السببي للحوادث المعطاة بالرجوع إلى الحوادث الماضية والحاضرة ولكن المؤرخ يمارس أيضا شكلا آخر من التفسير والاستدلال، ينتميان للتفسير. إذا كنا نستطيع مع المعرفة للحالة المسبقة والقوانين التي تحكم تطور ميدان معين من الواقع، التنبؤ بالحوادث الآتية، نستطيع كذلك القيام بالعكس، على أساس نفس هذه المعرفة، منطلقين من الحالة المعطاة حاليا، نستطيع استنباط ماذا كان عليه الماضي. الأدبيات الأنجلوساكسونية تبنت من أجل الإشارة إلى هذا المسعى، اسم Retrodiction (التي أدخلها ريل G.Ryle) التي تعني التنبؤ. الأمر يتعلق نوعا ما إذن بنمط من الاستدلال بالتراجع الذي يحتل مكانا في الجهاز العلمي، يفيد المؤرخ في صياغة فرضياته حول الأحداث المدروسة، بنوع من التنبؤ التراجعي المنعكس إلى الوراء، على التاريخ منطلقين من وقائع معلومة وبعض القوانين العامة من المسببات إلى غاية الأسباب الممكنة للحوادث المعطاة. الحالة مشابهة لعمل عالم الفلك الذي تقود حساباته إلى إستنتاج في أي مكان يكون الجسم الفضائي. المؤرخ يحوز بفضل هذا التنبؤ المنعكس إلى الوراء، على فرضية خصبة يبحثه عن الآثار المادية للثقافات القديمة، والمؤسسات، والأسس الاقتصادية لبعض العادات والتقاليد. مع ذلك، الدور الفعال للمؤرخ يبرز هنا مرة أخرى، في صياغة الفرضيات الخاصة بالماضي، في البحوث، وفي التحقق ... إلخ، من الواضح أن النتائج تخضع إلى حد كبير لشخصية المؤرخ، لتكوينه النظري والفلسفي، لاعتقاداته الشخصية المحددة بوضعه الاجتماعي ... إلخ.

قبل أن تغلق هذا القسم من تحليلاتنا، يجدر بنا الإشارة إلى أن بعض الكتاب يميلون إلى الرجوع ليس إلى التفسير السببي، ولكن إلى التفسير التكويني، مشيرين إلى أن المشكل يكمن في تفسير الظواهر بتاريخها. وهم يركزون مع ذلك أن الأمر لا يتعلق بتتابع بسيط للحوادث، ولكن بسلاسل من الأسباب والمسببات. بناء عليه، إنهم يمارسون في الواقع، التفسير السببي، مع وعيهم بأن استخلاص الشروط الضرورية للأحداث وحدها. من دون أسبابها الكافية، فإن تفسيرهم يكون احتماليا (أرنتست ناجل مثلا). في سياق التفسير السببي، الموضوع المركزي

لغاية الآن لتحليلاتنا، حاولنا استخلاص أوجه جديدة لدور العامل الذاتي من أجل إتمام تفكيرنا في موضوعية المعرفة التاريخية. ولكن، كما سنبين التفسير السببي يترافق دائما في التاريخ بالتفسير الغائي.

لنعد إلى نمذجة بريتاويت التي تميز بين التفسير السببي والتفسير الغائي. تفسير حدث ما مساو للإجابة عن السؤال: لماذا حدث هذا الحدث ولم يحدث آخر؟ والحال، يمكن أن نجيب على هذا السؤال إما بالإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى الحدث، وإما أن نسلم في إنتاجه، بالمطابقة لقانون ما، بالإشارة إلى الهدف الذي رغب الناس في بلوغه بواسطة أفعال محددة. في الحالة الأولى السؤال لماذا مساو إذن لأي سبب، والحالة الثانية لأي هدف، لأية غاية.

من البديهي أن التفسير الغائي، وبناء عليه السؤال لأية غاية هما صحيحان فقط في الحالة التي نكون فيها على صلة بفعل واع وبآثاره. بمعنى في الحالة التي يتعلق الأمر فيها بتفسير أفعال الأفراد الذين يطرحون قصدا أهداف محددة. لهذا السبب بالتحديد إن الغائية التي تعتبر كتيار فلسفي يمدد التفسير الغائي إلى كل الأحداث والظواهر بما في ذلك الطبيعة، يجب أن تشرك وجود كائن فوق طبيعي حيث أن الفعل الواعي والغائي يولد كل ما يحدث. تبني هذا الموقف فيه عودة إلى قبول مقدماته الدينية و- على مستوى الفلسفة - الروحانية. حينما كنا أمام فعل واع مقصود، ومتوجه نحو هدف، يجب من أجل تفسيره، يجب الرجوع إلى محفزات الناس، إلى الأهداف التي يتوخونها. وحده هذا الرجوع يسمح بفهم وتقييم أفعال الناس. هذه الإمكانية وهذه الضرورة لاستدعاء التفسير الغائي، من غير المخاطرة بالسقوط في الصوفية والروحانية، يكونان مصدر أحد الاختلافات الرئيسية بين العلوم الاجتماعية والعلوم الدقيقة للطبيعة. في الواقع، حيثما كان موضوع دراستنا الإنسان الاجتماعي هو الفاعل (نوع الإنسان العاقل هو النوع البيولوجي الوحيد الذي نعرف عنه أنه يتصرف عن وعي، بمعنى يميل بوعي نحو تحقيق أهداف مبنية مسبقا، في الحياة الفردية كما في الحياة الاجتماعية) يجب ممارسة التفسير الغائي لهذه الأفعال، تحت طائلة عدم القدرة على فهمها. الفهم هو النتيجة البديهية للتفسير الغائي، باعتبار أنه ببناء أهداف للفعل خاصة، فإننا نأخذ وعيا بفهم الفعل ذاته. يجب الإشارة إلى أننا لا نلغي تأثير عوامل أخرى، ومن بينها الحتمية السببية للمواقف والسلوكيات، ولكن لنكرر القول إنه من المستحيل الاستغناء عن التفسير الغائي في التاريخ، بينما في علوم الطبيعة (بما في ذلك الدراسات حول الإنسان باعتباره جسما بيولوجيا) هذا التفسير ليس فقط زائدا ولكن أيضا غير معقول. هذه السمة الخاصة بالعلوم الاجتماعية مساوية مع ذلك لاشتراكات جديدة، إذا كان مستحيلا فهم الأحداث الخاضعة للأفعال الواعية والغائية للناس من غير تفسير غائي، فعندئذ، عكسيا، يكون من المستحيل تقديم تفسير غائي من غير فهم هذه الأفعال. كيف نستطيع في الواقع، الإجابة على السؤال لأية غاية،

تصرف أحدهم بهذه الطريقة؟ إذا لم نفهم الدافع لفعله ؟ ضمن هذا المنظور، ندرك الفكر العقلاني المتضمن في تصور في العلم الفهمي، المترجم مع ذلك في عبارات مختلفة بالنسبة للتقليد الموروث عن ديلتاي وماكس فيبر. متحررا من كل إضافة، منقادا إلى قسمه الأكثر دلالة، هذا التصور يسهم في إبراز خصوصية العلوم الاجتماعية بناء على موضوعها: دراسة الأفعال الإنسانية الغائية.

من المهم إدراك دور الفهم المصمم هكذا من أجل التفسير الغائي في ميدان العلوم الاجتماعية عموما وفي التاريخ بشكل خاص. هل يوجد منهج أكثر موضوعية وبناء عليه أقل تعرض للخطأ في ييشخصيته؟ ألا نستطيع تفضيل الرجوع إلى المصادر، إلى الخطابات، إلى الذاكرات، إلى الأعمال التاريخية المكتوبة من قبل الساسة المنخرطين في الحدث والمفسرين لأهداف ومقاصد أفعالهم. الجواب طويل. دراسة المصادر هي ضرورية بكل تأكيد في التفكير التاريخي، ولكنها لا تحرر المؤرخ من ضرورة الفهم، وبناء عليه من التطابق مع الغير، من محاولة إعادة بناء الأهداف والسلوكيات الغائية للناس. على العكس، دراسة المصادر تجعل من الفهم عملية ضرورية.

وهكذا من غير فهم أفعال الناس، يكون من المستحيل تفسير التاريخ، بعبارة أخرى، الفهم جزء لا يتجزأ من التفسير التاريخي.

هذا الواقع غير قابل للتكذيب، ولكنه يضع باستمرار موضوعية المعرفة التاريخية في خطر، إنه يدخل حصة جديدة من الذاتية. في الواقع، الفهم يشكل دائما علاقة ذاتية - موضوعية تتعلق بكل ما قبل لحد الآن عن العلاقة المعرفية، عن دور العامل الذاتي في هذه العلاقة بشكل خاص. باعتبار فعلا، فإن الفهم مرتبط دائما بذات محددة تتضمن تجربة معيشة. في حالتنا الملموسة تتعلق بالمؤرخ. هذه الذات التي تحاول التفسير وإذن فهم الحوادث هي المؤرخ. بالنظر إلى معرفته وموهبته، والمحددات الاجتماعية المرتبطة بالحقبة التي يعيش فيها، والأمة التي يشكل واحدا منها، والطبقة التي ينتمي إليها، والجماعة المهنية التي يندرج ضمنها، يدرك المؤرخ بعض الوقائع، ويفهمها ويفسرها. كل عمل تاريخي يحمل بصمة فرادة المؤرخ، وإدراكه للتاريخ وتصوره للسيرورة التاريخية، وفهمه للناس ولأفعالهم. إذا كانت هذه البصمة لا معنى لها، فلأن المؤرخ متواضع. إنها مع ذلك لا تقود إلى نفي موضوعية المعرفة التاريخية. إنها تعني الوعي بحدود هذه الموضوعية وتجاوزها ضمن عملية إتقان دائم لمعرفتنا. مشاركة الفهم في التفسير التاريخي تمثل خطرا حقيقيا في تحريف المعرفة عندها يتجاوز العامل الذاتي هذا المجال الضروري للذات في العلاقة المعرفية.⁷⁴

⁷⁴Adam Schaff, Histoire et Vérité , Editions anthropos , Paris , 1971 .